القسم الثالث

الحضارة الأوروبية
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

obeikandl.com

بلغت اوروبا في هذه الحقبة من تاريخها ذروة القوة والسيطرة . فهي تنعم بما تمّ لها من سؤدد وسيادة وسلطان . هنالك لعمري ، في الشرق والجنوب منها ، مناطـــق ريفية لم تتأثر كثيراً بالتطور الرأسمالي . فالمدينة هي التي تبعث في الغالب ، الحركة والنشاط وتدفع بها الى الامام بسرعة . ففي الاطار المدني ، البورجوازية هي التي توجه الانتاج وتشرف على توزيع الثروات وتتحكم بالمدينة التي تنعم بالحرية وتكيف ما يقوم فيها من نظم ومؤسسات.

ومع ان عملية تفاعل العناصر التي تؤلف قوام الحضارة الاوروبية تنمو بسرعـــة وتنشط باستمرار ، فالتنوع لا يزال يستبد بالنظر في هذه القارة التي تفيض ، بالرغم من صغرها ، بالمفارقات الاقليمية والاجتماعية . فالاثراء في قلب كل دولة من دولها المتعددة يرسم منحنىً تلحظ العين بسرعة ما فيه من نقاط سود يرسمها الفقر . فاذا ما ارتفع فيها المستوى العام للحياة ، فحقوق البروليتارية فيها آخذة بالتضخم .

والى هذه كله فالنفوس في غليان موصول ومعين الفن فيها ابعد من ان يجف او ينضب .

الفصل الأول

المدينة ودفعها الشديد

«اخضعت البورجوازية الريف للمدينة وخلقت مدناً جبارة» . (بيان الحزب الشيوعي- ١٨٤٨) .

ازدياد السكان في المدن

اتخذت المدن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مظهراً من الضخامة والاتساع لم يسبق له مثيل للآن . كان سكان الريف، حتى عام١٨٥٠، اوفر عدداً منهم في المدن ، باستثناء انكلترا . واخذت حركة الاحتشاد والتجمع في المدن تزداد بسرعة . وهذا التجمع والتمركز تم بالطبع على حساب الريف، واخذ يتطور ويتضخم. فهو ناجم عن حركة نزوح سكان الريف ، ولا يمكن رده بصورة من الصور للنمو والتزايد الطبيعي لنسبة المواليد في المدن . ففي فرنسا مثلا نرى ان المجتمعات التي يمكن وصفها بالمدينية (وهي التي يجب الا يقل عدد السكان فيها عن ٢٠٠٠ نسمة) ارتفع عدد السكان فيها ، بين احصاء ١٨٤٦ و ١٨٩٦ ، الى٦٣٧٩٠٠٠ وهو عدد يشير ليس الى مجموع الزيادة العامة فحسب بل ايضاً الى نسبة امتصاص المدن من سكان الريف ما مجموعه ٣٢٦١٠٠٠ نسمة . وهنا لا بد لنا من الملاحظة ان سير هذا التطور كان اسرع في مقاطعات الغرب والوسط منه في الشرق والجنوب ، وهكذا برز لنا بوضوح كلي تفوق مديني يزداد يوماً بعد يوم في وجه هذه القارة الاوروبية التي لا تزال بعد ريفية في صميمها .

هنالك حوالي ١٨١٥ ، اقل من ٢ بالمئة من سكان اوروبا يقطنون نحواً من عشرين مدينة يتجاوز عدد سكان الواحدة منها ١٠٠ الف نسمة ، بينما نرى عام ١٩١٠ ، ست مدن يزيد عدد سكان الواحدة منها على مليون نسمة ، و ٥٥ مدينة يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠ الف فتضم معاً ١٥ بالمئة من المجموع العام للسكان في اوروبا . فالمرتبة التي تحتلها عواصم

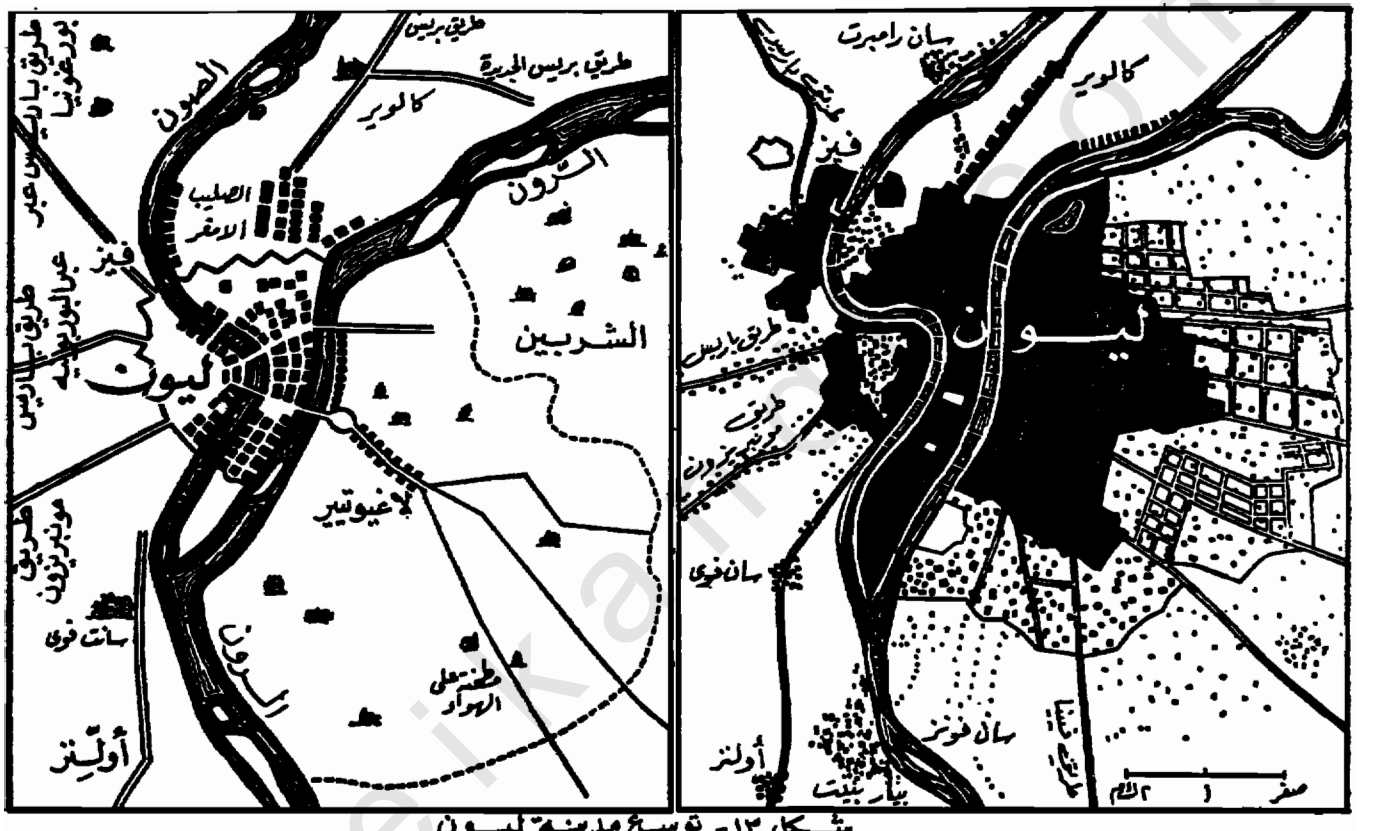

شكل ١٢ - توسع مدينة ليون

الى اليسار : ليون وضواحيها عام ١٨٠٥ (مأخوذة من كتاب ا. كلينكنوز وعنوانه : ليون : تكوين المدينة ، ص ٣٥٠) .

الى اليمين : ليون عام ١٩١١ « مأخوذة من كتاب ف. دوتاك : « تاريخ منطقة ليون » صفحة ١٣٩ « رسوم بيانية من وضع ل. غرونار » .

شكل ١٤ – نمو مدينة فرانكفورت على الماين

اولا – فرانكفورت عام ١٨٥٣ يبدو في الرسم : ١ – الاستادت على مقربة الجسر القديم؛ ٢ – النمو الثاني : الامتداد الاول الذي تم في القرن الثاني عشر.

ثانياً – نمو فرانكفورت في القرن التاسع عشر : يظهر الرسم المدينة القديمة بأحيائها : الاستادت والنوستادت فيها ٤٠٠٠٠ نسمة عام ١٨٠٠ ، وتأخذ المدينة بالتوسع والامتداد وراء السور الذي اقيم في القرن السادس عشر . تبلغ مساحة المدينة اذ ذاك ٦٧٨٢ هكتاراً . كما يرتفع عدد سكانها عام ١٨٦٦ الى ٨٠٠٠٠ نسمة ، وتأخذ المدينة بالتوسع على حساب المساحات الواقعة وراء السور ، بحيث اصبحت تعد ، عـام ١٨٩٥، اكثر من ٢٨٠٠٠٠ وارتفعت مساحتها الى ٨٠١٤ هكتاراً .

الدول تلفت النظر وتستبد بالانتباه والملاحظة . فقد ضمت لندن، عام ١٨٨٠ ، نحـــواً من ٤ ملايين من اصل ٣٠ مليوناً انكليزياً ، وضمت باريس قرابة ٣ ملايين من اصل ٣٧ مليوناً فرنسياً

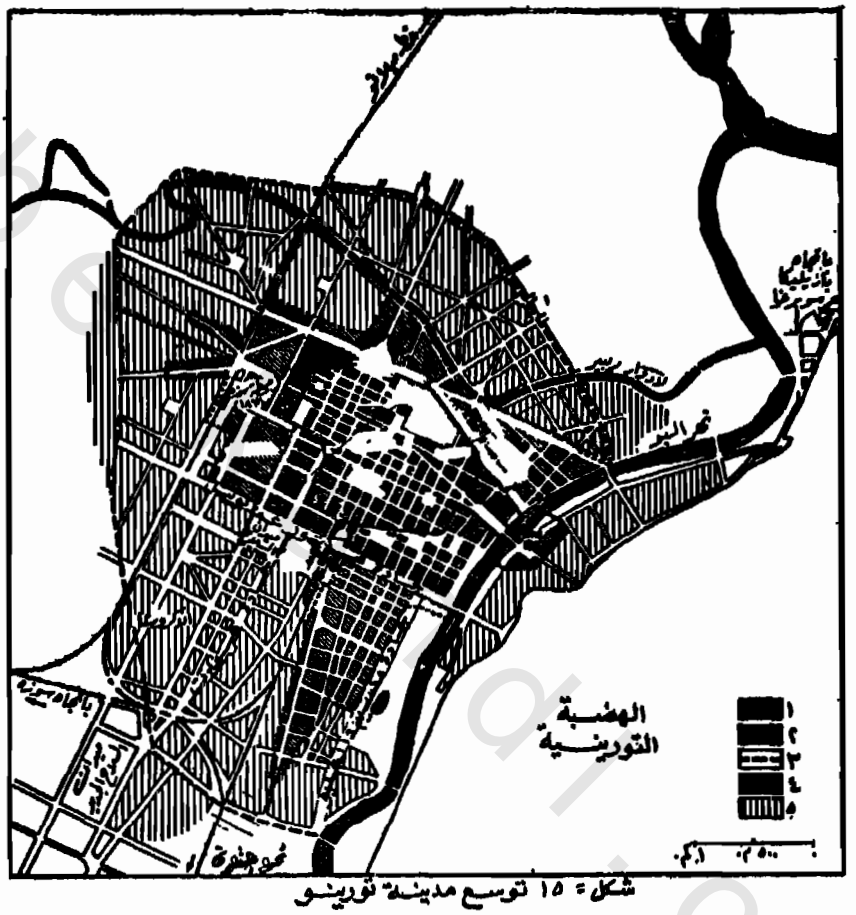

شكل = ١٥ توسع مدينة تورينو

١ ـ جرى تحصين المدينة في مطلع القرن التاسع عشر (٢٨٠ هكتاراً) تسع ٠٠٠ ٦٥ نسمة.
٢ ـ امتداد على عهد شارل البير .
٣ ـ حدودها عام ١٨٥٣ (١٦٦٢ هكتاراً).
٤ ـ منطقة جرى اعمارها حوالي عام ١٨٨٥ (٢٥٠ الف نسمة).
٥ ـ امتداد المدينة في اواخر القرن التاسع عشر (٦٠٠٠ هكتار ، و ٠٠٠ ٤١٥نسمة عام ١٩١١) .

(مأخوذة من كتاب ب. غريبود)

فالزيادة في قرن واحد بلغت ٣٠٠ بالمائة في مـــدينة بطرسبورغ ، و ٣٤٠ بالمائة في لندن ،

و ٣٤٥ بالمائة في باريس وبلغت في فيينا ٤٩٠ بالمائة ، وفي برلين ٨٧٢ بالمائة . فسكان لندن اذ ذاك يعادلون سكان بلجيكا .

والطابع العالمي والدولي لسكان المدن الكبيرة يشتد ويبرز باستمرار . فتيارات الهجرة الضخمة تتجه اليها . فالايرلنديون والسكندينافيون والعديد من سكان القارة ينزحون الى لندن . بينما السلافيون والمجر واليهود يقصدون فيينا . فمن مجموع سكان مدينة ميونيخ ، في عام ١٨٩٥ ، ٣٧ بالمائة فقط ولدوا فيها . اما في مدينة سانت اتيين فعدد من ولدوا فيها هم ٥٠ بالمائة .

المدينة القديمة وتوسع المدينة الحديثة

فاذا ما ساعد القرن على تأمين النمو للمدن القائمة ، فقد عمل بالاكثر على صقلها وافراغها .

صحيح ان المنجم والمصنع ساعدا كثيراً على خلق مدن جديدة كانت مواقعهـا في الامس القريب خواء . والامر يتم ، بالاحرى مع المصنع الذي يقوم عـادة حيث تتوفر امكانات التوزيع . وقد جاء الخط الحديدي هنا يقوم بعملية غربلة او تخير افادت منها بعض التجمعات اكثر من البعض الآخر ، كما ان فن الملاحة وتطورها ساعد كثيراً في نمو المرافىء وامتدادهـا . ولا بد من الملاحظة هنا ان النشاطات السياسية والادارية والفكرية حتى والدينية منها لعبت هي الاخرى دورها البارز في نمو المدن وتوسعها .

ولما كانت المدينة ترتبط بالريف الذي يحيط بها ارتباطاً وثيقاً فتؤلف منه سوقـاً وبندراً تجارياً ، فقد عرفت كيف تحافظ على اسباب وجودها . فقد تجلت صورتها لموريس بارّيس عام ١٩٠٩ كما يلي : « هاهي منذ اجيال تحتل الرابية نفسها التي تقوم فوقها الآن . هاهي ذاتهـا تقريباً ، باستثناء سورها الذي فقد الكثير من متانته الاولى . فقد استحال الحيّز الذي شغله حدائق غناء وجنات خضراء وضعت فيها سلواها ومتعتها. ففي كل يوم ، وفي الساعات والاوقات ذاتها نرى هذه الايدي التي تعتني بها ... »

كثيراً ما يحدث ان هذا الماضي الماثل امامنا لم يلحق به عصر الصناعة الكبرى الذي يسيطر الآن ، اي اذى ، وهذه المظاهر والرؤى المتتالية تحيى معاً وتتراكب بعدان تتخلى عن ميزاتها الفارقة. فالمدينة القديمة هي التي تحدد موقعها على العموم ، وعلى كل خطة توضع لتجميلها ان تحسب حساباً لها وان تتكيف ومقتضيات هذا الوضع الطوبوغرافي . وتبذل حركة تطوير المدينـة كل جهد مستطاع لتحترم آثار المدينة وخططها التاريخية ، فلا تمسها معاول الهدم . ولذا فتراكم المنازل وتراكبها بعضاً على بعض كثيراً ما يجري في هذه الاحياء التاريخية . وقد يجري هـذا الاحتقان قبل ان تتيح وسائل النقل السريعة على اختلاف انواعها ، مراعاة حركة البناء والامتداد لتوفير الفراغ والساحات فيما بينها . ففي برلين حيث الاتساع والامتداد تم باكراً وبسرعة غريبة ، فقد بلغت كثافة السكان في قلب المدينة ، عام ١٨٩٠ ، ما معدله ٣٧٥ شخصاً في الهكتار الواحد ، مقابل ٢٥٠ نسمة للهكتار بالنسبة للمدينة كلها . ومع ذلك فبفضل حركة الامتداد

والاتساع ، لم يعد مركز القلب ليمثل ، في لندن ، سوى ٥٫٨ بالمائة من مجموع السكان عام ١٨٩١ ، بينما كان معدله ١٥ بالمائة عام١٨٠١، بعد ان فقد قلب المدينة ٧٠ بالمائة من سكانه. أما في برلين ، فالاحياء *Alstadt* والـ *Ferderichstadt* يسجلان تأخراً او بالاحرى تقهقراً بين ١٨٧٥ – ١٨٩٦ ، اذ هبط معدل السكان فيها من ١٧٫٦ الى ٧٫٣ بالمائة . وفي باريس ، هدمت الامبراطورية الثانية الاحياء العائدة فيها الى الاجيال الوسطى او الى عهد الملكية المطلقة ، وذلك بما يوازي مساحة ٥٠٠ هكتار من اصل ٣٣٧١ هكتاراً هي مساحة المدينة داخل الحصون التي امر بتشييدها الملك لويس فيليب. فقد امر بفتح ثغرات او فجوات واقام ميادين او مساحات في قلب المدينة ، وبنى دوراً للحكومة رحبة ، كما امر بهدم المنازل السكنية الحقيرة المنظر ذات المساكن الضيقة لتحل محلها مبانٍ بورجوازية ضخمة . فهاهو برودون يحدثنا عن « المدينة الجديدة الرتيبة ، المملة التي انشأها هوسمان ، مع ما لها من جادات مستقيمة الزوايا وفنادق ضخمة وأرصفة بديعة ، مقفرة ، ونهرها الكئيب الذي لم يعد يرى ينقل سوى احمال الحجارة والرمل مع مراثب وعنابر قائمة لدى منتهيات الخطوط الحديدية، التي بعد ان حلت محل مرافىء المدينة وموانئها القديمة ، افقدتها سبب وجودها لهذه الساحات والميادين ودور التمثيل الجديدة وطرقها المرصوفة بالحصباء ، وهذه الطوابير من الكناسين ، وهذه السحائب الخفيفة ، من الغبار المتصاعد . واخذت الاحياء ترتدي طابعاً خاصاً مميزاً ، لكل منها منظره الهندسي الخاص . هنا الاحياء الخاصة بالتجارة بالجملة ، وهناك احياء محطة سكة الحديد ، واحياء الادارات العامة. وهذه الحواجز والفواصل المادية لم تلبث ان حملت طابعاً اجتماعياً مميزاً اخذ يبرز من خلال ارادة البورجوازية . « فالعملاء أبعدوا بقسوة عن قلب المدينة » ، كما يلاحظ اوغسطين كوشين. اما في منشستر حيث يسكن اصحاب الفبارك والمصانع، عام ١٨٣٠، يسكنون منازل ، اسودت جدرانها من تراكم السخام عليها ، منازل كانت تحيط بها اكواخ العمال وزرائبهم ، فلم يلبثوا ان نزحوا الى ضواحي المدينة حيث يتوفر الهواء الطلق ، بعيدين عن كل اتصال بطبقة البورجوازيين والمياومين الذين اخذوا يتكدسون في احياء تفتقر الى الوسائل الصحية .

وعلى جانبي الشارع الذي خططوا له من عهد قريب ، ترتفع هذه المباني والعمائر المعدة للاستثمار ، من ابرز انواعها هذه العمارات ذات الواجهة الجميلة ، بينما الظهر منها يطل على ساحة داخلية ظليلة ، والطابق العلوي يحتفظ به للخدم والعشم وقد قسم دائرياً الى حجرات ذات سقف سندي يدخلها النور من منافذ في السقف . والطابق او الدور الواحد يقسم الى شقق او مساكن ، يضم كل واحد منها عدة غرف كبيرة ، رحبة بعد ان ضحوا بالمطبخ والقسم الصحي، اذ ان غرفة الحمام لم يهتموا بها الا فيما بعد . فكل شيء في المبنى جرى تصميمه على اساس تجاري برسم الايجار .

ويقوم حول المدينة جادة دائرية او صف من مراكز الدخولية . وتجاوز هذا الخط الى

الى الوراء يعتبر حدثا هاماً في تاريخ تطور المدينة وامتدادها ، اذ يحررها ، الى الأبد ، من النطاق المضروب حولها ويفتح امامها مجال التوسع والامتداد . وقد قام حول باريس عدد من هذه المناطق الدائرية استحالت فيما بعد حارات واحياء جميلة متحدة المركز ، وقد حدّ من طاقتها على التطور والاتساع سلسلة الحصون التي انشئت حولها عام ١٨٤٠ . ولم تخضع لندن لمثل هذا الارتفاق الذي يحد من قدرتها على التوسع . وقد حل نطاق من المباني والعمائر محل الاسوار بعد ان أزيلت من الاساس وهُدمت عام ١٨٥٧ ،وأزيلت كذلك تباعاً من مدينة انفرس اسوارها عام ١٨٥٩ ، وكذلك من مدينتي بال وبرشلونة ، عام ١٨٦٠ ، ومن كوبنهاغن ، بين ١٨٥٧ و ١٨٧٢ ، ومن كولوني عام ١٨٨١ ، وامتدت ميلانو الى ما وراء سلسلة الحصون التي كانت تحميها ، كما ان مدينة امستردام تجاوزت كثيراً نطاق شبكة الاقنية المائية والترع التي كانت تحيط بها. وعمر حي المحطة بالمباني السوقية حيث اخذت تظهر سلسلة من الفنادق والمقاهي ، ولن تلبث المدينة حتى غطت الضواحي القريبة فاصبحت بدورها احياءً عامرة اصبحت واسطة العقد بين الريف والمدينة .

بحثاً عن هندسة خاصة بالمدن

هنالك رغبة شديدة في ادخال تعديل اساسي على هذا الطراز المعماري المسيطر على الاذواق في بناء عمارات ضخمة ، بالجملة . ففي مذكراته يعترف هوسمان ، بأنه كثيراً ما ضحى بالخط السوي في البناء ، ويأسف كثيراً الان عهد الامبراطورية الثانية لم يشهد مهندساً خلاقاً يحاول اجراء تجديد في فن العمارة بحيث يراعي الموجبات الجديدة » . وبالفعل ، فالعصر كله يتعثر في تردده ، ويكثر من التقليد كما ان ابتكاراته تفتقر الى الإصالة .

ويشعور من الوجل والجرأة ، والتردد والاقدام ، خيل للكثيرين في هذا العصر ان عليهم او باستطاعتهم ان يقلدوا ، على هواهم ، الفن القديم او الفن القوطي او فن عهد النهضة والانبعاث. ولذا نراهم يندفعون وراء التجديد والتقليد . فقد علقت باريس بالفن الايطالي في عهد النهضة محتذية بذلك حذو العصر الذهبي الكبير (القرن السابع عشر) فتحيي بذلك الفن الكلاسيكي الروماني ، كما يظهر ذلك جلياً لمن يتملى النظر في كنيسة الثالوث الاقدس وسان فرنسوا كسافييه ، والاوبرا واللوفر الجديد ، كما يحلو لفارنييه الاكثار من تزويق الأوبرا بشكل ينبو عن الذوق السليم ، كما ان دوكسنوي عمد هو الآخر ، الى تقليد الفن الكلاسيكي في هندسته لمحطة الخط الحديدي الشمالية ، ويحذو حذوه هيتورف في بنائه المحطة الشرقية . الا ان بلنار الذي تولى بناء الهال الذي اكثر فيه من المواد المعدنية آثر ان يضفي على كنيسة القديس اوغسطين ، مظهراً بيزنطياً . اما البريطانيون المحافظون فقد مالوا بالاحرى الى الطراز القوطي بينما اخذ الاحرار منهم بالطراز الكلاسيكي كما نتمثل ذلك في قصر بوكنغهام مثلاً وفي اروقة كاتدرائية سانت بول ، والطابق الارضي لمسلة نلسون ، بينما ارتدت مباني الجامعة في لندن طرازاً يونانياً . اما في فيينا فالطراز المسيطر عليها هو المعروف بطراز فرنسوا جوزف . فقد تمثل في الكنيسة

التذكارية ، الا ان مبنى المصفق (البورصة) ومسرح هوفبرغ والمتاحف التي قامت فيها ، فمعظمها من طراز فن عهد النهضة . وقد استلهم *Poelaert* الفن الكلاسيكي في تجديد رسم وشكل قصر العدل الضخم في بروكسل .

والهندسة قادت على اقدار مختلفة من النجاح، المتعارف من فنون القرن الثامن عشر كالجادات والميادين العامة والحدائق . واستعملت على نطاق واسع ، فن الحفر لتزيين القصور ومفارق الشوارع الكبرى ،بالتماثيل والانصاب . ولما كان الحجر يوحي دائماً فكرة الضخامة ، فقد حاول بعضهم استخدام المواد المعدنية فيأتي مظهر البناء من الخارج منمنماً مهفهفاً ... فالمهندس لابروست يكثر من المواد الحديدية في المكتبة الاهلية في باريس ، وفي مبنى سانت جنفيف مخففاً بذلك من تراكم الاعمدة . فالاحجام الدقيقة الممشوقة، الهيفاء، تليق كثيراً بالمباني الخاصة بالمعارض ومحطات السكك الحديدية وبالهالات .

تطور الخدمات البلدية الصحية

اثار نمو المدن السريع وامتدادها مشكلات متعددة،متعاظلة، فاذا ما حفظ لنا تاريخ تطور باريس اسماء يتمتع اصحابها بالشهرة وبعد الصيت امثال : رمبوتو وهوسمان وبوبيل ، فبروكسل تفخر وتدل برئيس بلديتها أناباش ، معاصر هوسمان وزميله في الوظيفة محافظاً ، كما اشتهر جوزف شمبرلن بوصفه امينا لمدينة برمنغهام .

فقد عدت لندن ١١،٠٠٠ شارع اي ما يعادل طول ٨٥٠٠ كلم،كما بلغ معدل طرق باريس ٢٣٤٥ كلم ، رصف معظمها بالحجارة والبلاط واقيمت الارصفة المريضة على جانبيها. ورصف الطرق بالخشب ، أخذ به عام ١٨٨٠ ، كما لجأوا الى تزفيت الطرق بعد ذلك بقليل وتم للنقل ثلاثة انواع من الوسائل : الامنيبوس او سيارة كبيرة للركاب ، وعربة الجر والخط الحديدي على سطح المدينة او تحت الارض،ثم الترامواي:مكهرباً كان او غير مكهرب.وغاز الاستصباح يبلغ استعماله الذروة عام ١٨٩٠ ، فهو وسيلة سهلة للتدفئة لم تلبث ان عمت المطابخ . أفيبقى بعد هذا جائزاً التعويل في تأمين المياه على الحالين والسقاة ، ولذا رأت ادارة المدن العودة الى استعمال قناطر الجر هذه القناطر التي عول عليها الرومان ، من قبل . فكانت باريس اول من فكر بين المدن باستنباط الماء من تحت الارض بواسطة الآبار الارتوازية ، ولعل اول بئر من هذا النوع هي بئر غرينيل. وراح المهندس بلغران يحاول جمع مياه بعض الينابيع المعروفة في المنطقة ، فارتفع استهلاك الماء لدى الفرد الواحد من ٦٨ لتراً الى ٢٤٠ لتراً في السنة . وبنت مدينة مدريد قناة لجر المياه طولها ٧٠ كلم . ومدينة منشستر تزودت بالمياه من كمبرلاند . وتصريف المياه القذرة او الملوثة عملية ضخمة تطلبت نفقات باهظة . فقد احدث بوبيل (محافظ باريس) ثورة في تلك المدينة عندما اصدر امره بان تطرح النفايات في صناديق خاصة ليتولى عمال من قبل البلدية فيما بعد ، جمعها ، ونقلها ، دون ان يبالي بمعارضة ٤٠٠،٠٠٠ من جامعي الخرق والاسمال .

احشاء باريس ، هذه هي التسمية التي اطلقها زولا عندمـــا راح يتكلم عن هال باريس . فالمدن الكبرى في الغرب تعول ، في تأمين موادها الغذائية ، ليس على هذه المناطق المحيطة بها فتؤمن لها حاجات من الخضراوات والحبوب فحسب ، بل ايضاً على هذه المناطق النائيةعنها . ففيينا تستقدم حاجاتها من اللحوم من مقاطعات الالب والحبوب من هنغاريا ، والجعـــة من بوهيميا . وسكان مدن مقاطعة الروهر يؤمنون حاجتهم من البطاطا من المانيا الشرقية ، ومن هولندا ، والحنطة من اميركا ، والخضراوات من هولندا ، وفرنسا ، والحس عـلى انواعه من مناطق البحر الشمالي ، والفاكهة والاثمار من فرنسا وايطاليا . وهكذا ندرك الآن كيف ان الالمان تمكنوا من اخضاع الباريسيين عن طريق تجويعهم .

الشارع في عبثه ولهوه وملذاته

وهذه الاقوام المحتشدة في هذه المدن المملاقة تعيش جماهيرياً ، لهـا ساعاتها من الغضب والحب . فباريس لا تغتفر للمجلس في فرساي «مجلس ابناءالريف» كما يلقبونه ، منافسته لها على لقب « العاصمة »، فتعرب عن هياجها وعن ثورتها عندما يتقدم احد امراء آل هوهنز ولرن ليرشح نفسه لعرش اسبانيا.ويحلو لهـــذا الشعب الباريسي التهكم «بالتونكينين »، ويتحلق حول بيرانجيه ويصفق له ويظهر عداءه للسامية خلال « القضية » (قضية اليهودي دريفوس) ويهتف للقيصر مردداً :

لرؤية القيصر كما يجب
قم باكراً واحضر بسرعة
ولا تتمهل في سريرك

وقد تفاءل ادوار السابع خيراً خلال زيارته لباريس ، من موقف الشعب الفرنسي موقفاً حيادياً من الاتفاق الودي ، وراح شعب مدريد ، عام ١٨٨٢ ، يحيي الملك ألفونس الثاني عشر ، اثر عودته من زيارة قام بها الى المانيا ومـر فيها على باريس (التي اظهرت استياءها وغضبتها) يهتف قائلا : «ليحي الملك الرامح»، وهذا لم يمنعه قط من ان يحتج بشدة على انزال فرقة المانية في جزيرة باب . البزة العسكرية لها اغراؤهـا لعمري : فها هو ابن لندن او زائرها الاجنـــبي يسارع لمشاهدة حفلة تغيير الحرس امـــام قصر بوكنغهام ، وابن باريس كابن برلين ، يهرول في سيره لمشاهدة حفلة استعراض للجيش تقام في احياء العاصمـــة . فالتماثيل والانصاب الوطنية والشوارع تعمّد باسماء مشاهير الوطن ؛ والمبنى التذكاري يلعب الدور ذاته الذي لعبه الضريح من قبل .

وجاذبية الشارع أقوى من اي وقت مضى . فالمناظر المتنوعة تأسر الانظار وتسبي الالباب بعد ان تكون شوارع العاصمة قد تألقت بالانوار السواطع ليلاً . والنساء والفتيات لا يتحرجن قط عن الخروج ليلاً . وفي باحات المقاهي يحتشد النظارة والزبن يتحدثون ويتسامرون محدقين بعضهم لبعض . وفي باريس اصبح للشوارع ولجـــاداتها البديعة سحر وفتنة دونها سحر القصر الملكي ، والاقبال على احتساء اكواب الجعـــة اصبح من الامـــور التي غزت اعراف

الامبراطورية الثانية بعد ان جاءتها من المانيا . فواجهات المخازن الكبرى تلفت اليها الانظار والاعلان يجتذب النظر .

بين الاخلاق الباريسية والاخلاق البورجوازية

فالموضة او الازياء ، تخرج من باريس وتتحكم بالاذواق في الوقت الذي تفخر معه لندن بأنها محور الاذواق الرجالية ، كما ان فيينا هي محـــور الموسيقى المرقصة . هنالـــك لعمري انماط من الحياة هي من صميم حياة الشعب او الجماهير . فالعامل يتخلى عن ارتداء « البلوزة » او السترة بينما يتمسك بارتداء الكاسكيت او القبعة . فهو يشعر بانه في محيطه وبيئته لدى مشاهدته هذه الاعياد التي تقام عند حاجز العرش او في سوق المعجنات والحلويات ، اكثر مما يشعر به عنـــد مرأى الشانزليزه . له العابه المفضلة كالكرة والبلياردو والدومينو والورق . فهو يتردد عـــلى الحارة ويأتي الى هذه « الدوّاخة » ، كما ينعتها زولا في وصف لها أخـّـاذ . الا ان هذا المجتمـع الذي تتحكم به البورجوازية ، كثيراً ما نظر اليه بنظرته الى غريب بعيد عنه .

فقد حرص البورجوازي على ان يتميز عن العامل . فهو يلبس الريدنغوت والجاكيت . فاذا ما اعرض عن السوالف ، فهو شديد الاهتمام والعناية بلحيته وشاربيه . اما امرأته فتتبـع بيقظة واهتمام شديدين تطورات الزي السائد (الموضة) التي لها غرائبها ومستهجناتها السنوية واحياناً الفصلية ، فتسبب لها نفقات غير ملحوظة كما تقتضيها المزيد من اوقات الفراغ . فسواء حصرت نفسها في مشد او فضلت الشكل المبهم ، وسواء أفضلت القبعة الكبيرة او اختارت القصيرة ، فهي تهتم الى حد بعيد بأحذيتها وتفضل منها ما كان على الزي ، وبقفازاتها ، والحطة اوالطرحة ، والنقاب او الخمار ، وبالمروحة اليدوية . ولما كانت دواعي حياة العصر تحفزها اكثر فاكثر الى الحركة والتنقل والى ركوب العربة ، كان عليها ان ترفع اطراف فستانها الذي يشكو من الطول اجمالاً . فهي تدل حوالي عام ١٨٩٥ ، بحقيبتها الصغيرة تودعها منديلها وبعض اغراض زينتها . فالالبسة لا تتطور الا حوالي عام ١٩٠٠ ، فالرجال يفضلون بالاكـــثر السروال والقبعة المستديرة الشكل ، وقبعة القش ، بينما تؤثر السيدة التايور والحـــذاء الواطي الكعب . فالرياضة البدنية وركوب الدراجات والاستقبالات وارتياد المناظر في الاوبرا ، أمور معقدة وتدعو للبذخ .

اما الدار او المنزل ، فقد حرصوا على ان يوفروا له احسن ما يكون من المفروشات والاثاث والرياش . فقد اخذ الناس يكثرون من الدمى والصحون المزخرفة بشتى الالوان ورسوم الاسرة ، كما حرصوا على ان يؤمنوا لهم غرفة للطعام فرشها من طراز هنري الثاني ، وغرفة للنوم من طراز لويس الخامس عشر او لويس السادس عشر . وكثيرا مـــا يتدلى من السقف الثريات الجميلة ، كما حرصوا على تزيين المداخن بالشموع . اما المائدة فترفل عادة بالاطـــايب من الالوان وصنوف الاطعمة ، ولذا كثرت جداً الكتب والمطبوعات التي تدور حول المطبخ واعداد الطعام . والملاعق والشوك والسكاكين هي مفضضة على طراز دبولز وكريستوفل وهلفن . والبيانو يضفي على البيت مسحة من الثراء والغنى ولا يفترض في اصحابه مواهب موسيقية عالية ، ويصطحب الغناء عادة .

فهو الآلة الموسيقية المفضلة لدى الطبقة البورجوازية الحديثة العهد . وبانتظار تهيئة الباثنة قبل الزواج، تنصرف الفتاة لاشغال الابرة والتطريز. اما تبادل الزيارت في ايام ومواعيد محـــددة مسبقاً ، فهذه من الامور والواجبات التي تتقيد بها السيدات في المجتمع ، اما الصالونات الادبية في المنزل ، فمثل هذا الامر لم يعد موضوع اهتمام .

وكثيراً ما يلتقي في هذه الصالونات والنوادي ممثلو الطبقة البورجوازية العليا وابناء طبقة النبلاء القديمة ، على الطريقة الانكليزية ، كنادي جوكي كلوب ونادي الاتحاد .

والاقبال على جمع الاشياء القديمة والتعلق بحفظها يلتقي والغريزة المحافظة التي ميزت هذا العصر. فهذه الهواية تخدم المتاحف والمجموعات الفنية الكبرى. فاذا ما خطر يوماً لاحد هؤلاء الهواة ان يلقي نظرة عابرة على المجموعات الفنية الخاصة المتوفرة في باريس ، كان لا بد له من ان يقضي سنة كاملة قبل ان يشبـع فضوله ، كما يؤكد لنا عام ١٨٦٠ ، وليم بورجر . كل بورجوازي من علية القوم يحاول نفسه يرغب صادقا في ان يؤلف له مجموعة منها محتذيـــاً في ذلك حذو ابناء الطبقة الارستوقراطية ، والهبات الخاصة تتوافر وتتكاثر بحيث يمكن انشاء متاحف عامة . فآبل غيبيمه يحرص على جمع غرائب الشرق الاقصى ثم يهبها للدولة، والصراف سرنوش، والبارون دافلييه ودوقة غاليارا وآل كونياس – جـــاي ؛ وآل روتشيلد ، وهبوا الدولة مجموعاتهم النادرة .

وهواية جمع الكتب تستهوي الاذواق ، اذ ذاك ، فمن ناطور العمارة الى ساكن السقيفة العلوية، الكل يقرأ الروايات المسلسلة التي تحرص الجرائد المعنية بالإعلام والازياء على نشرها تباعا. وقد توفر من هذا كله ادب روائي رخيص هو من القصص الشعبي او القصص البوليسي .

ومثل هذا الهوس يستحوذ على النفوس فيقبلـون بحماس على المسرح الغنائي. فالفن كل الفن يقوم باستثمار اللحن او النهج الغنائي على الوجه الاكمل . فاناشيد روسيني ومدرسة ماير بير وبوالديو وهيرولد وأوبير ومن لف لفهم تنتشر بين الجماهير الشعبية. وبعد هذا الجيل الذي صفق عالياً « للافريقية » و « لليهودية » تطل علينا الميلودراما التي تغص صـالات العرض بالمستمعين اليها من الهواة ، منها الـ *Mignon* تأليف امبرواز تومـاس ، وفوست، وميراي لغونو، وكارمن لبيزه ، ومانون لماسنه ، وباريس تقوم وتقعد لواغنر الذي قاد المعركة ، سنة ١٨٦١ وخسرهـا حول *tannhauser* وكل مدينة لها شيء من الشأن تعمل على انشاء مسرح لها وفرقة موسيقية ، ملازمة له ، و «موسم» فني، تنظم هذه الجوقات رحلات لها تطوف معها الولايات والمقاطعات. والآلة تفيد كثيرا من التقنية التي ازدهرت في هذا العصر ، كما ان فـــن التزيين والتحلية يتطور بسرعة ، وعرف فن الضوء ، كيف يفيد من غاز الاستصباح ، ثم من الكهرباء .

وهذا الشعب يرغب في ان يلهو وان يعبث . فـــالى جـــانب المسارح الـــتي تسير في نهجها على تكريم المؤلفين الاتباعيين (الكلاسيكيين)، كالكوميديا الفرنسية التي برز فيها نبوغ

ممثلين امثال : بروهان ومونيه – صولي وروزين برناردت (التي اشتهرت باسم ساره برنار) ، فقد عمل بمعزل عن الاوبرا مسرح المهرجين ومسرح بيجازيت ومسرح الامم ، ومسرح المستحدث (*Nouveautés*) . وهذا الفن الباريسي الاصيل : الفودفيل او الملهاة الذي يقول عنه سانت بوف انه : مثال لا يخرج كبيراً عن مثال هذا الجيل الذي لا مثالية له ، فن يضعنا وجهاً لوجه امام رواية يشاهدها المرء وهو متكىء الى درابزون الشرفة « موضوع هواية الطبقة الوسطى التي لا تحلم بشيء احسن » ، وبعد هذا النجاح المنقطع النظير الذي سجله سكريب امكن للابيش ان يطلع علينا ، فيلعب لوحده ، او مع بعض المساعدين له نحواً من ١٠٠ مسرحية ، بين ١٨٣٦–١٨٧٦ واكثر سخرية منه واوفر ، كما برز كل من اميل أوجييه واسكندر دوماس الابن الذي تمكن من أقلمة مسرحيات ذات فكرة معينة او تصف لنا اخلاق المجتمع . والاوبريت التي تداني الفودفيل ، تبتعد عن الاوبرا المضحكة على نسبة ما يصبح هذا الفن الاخير دراما تقف عند منتصف الطريق من القصص الوصفي ، اذ كان من المفروض القيام بحركة معاكسة لما يسميه تيوفيل غوتييه الفن الهجين الحقير الذي جاء خليط من طريقتين للتعابير تعارض احداهما الاخرى حيث يسيء اللاعبون تمثيل ادوارهم بحجة انهم مغنون ويغنون بصورة شاذة تحت ستار انهم يقومون بعملية تمثيل . كان على الاوبريت ان تضحي بعنصر المرح وحرية الموضوع بدلا من التضحية بالموسيقى التي كان يطلب إعداد الجو الملائم لها . ومع ذلك فالمؤلفون امثال لوكوك واودران وبلانكيت ومساجيه اتقنوا ، الى درجة عالية ، فن التلحين او التوزيع الموسيقي للاوركسترا ، وقاموا بردة معاكسة ضد هذا الفن الذي وصفه برليوز « بالزقاق » والسافل او الواطي ، والكثير الحركات ، ضد هذا الفن الذي بفضل النجاحات التي حققتها « هيلينا الجديدة » و « الحياة الباريسية » رواجاً عظيماً .

هنالك مع ذلك لذاذات ايسر منالاً وأيسر اخذاً واشد وقعاً . فقد اقبلت باريس على المراقص حيث تقع العين على ما يذهل ويدهش ، امثال ميمي ، تاب تاب ، وبيبيه والبطينة ، كما استسلمت لهواية السيرك الذي تملك الاذواق وسارت شهرته بفضل العاب بارنوم ، فعرفت باريس اربع فرق منه في وقت واحد ، حيث أخذ القوم بألعاب الخفة التي قام بها مازورييه ، صاحب الوجه الصبوح ، واوريول ، هذا المهرج الذي ليس من يعدله ، ثم الاخوة برانكوني الذين وضعوا تحت اعين النظارة العاب السيرك الاولمبي الذي لم يلبث ان حل محل سيرك الشانزليه . وفتح مسرح فولي برجير ابوابه في باريس حيث تألب الناس لمشاهدة الضواري والكواسر والالعاب البهلوانية ، ومشاهد العري والعاب الخفة . وراجت كذلك المقاهي الغنائية حيث يستطيع المشاهد ان يدخن ويشرب على هواه ، فعدت باريس منها عام ١٨٨٠ نحواً من ٣٠٠ مقهى .

الحضارة المدينية : مساوئها وعوراتها

كل ما في المدينة ليس باللائق . ففي بعض احياء باريس امثال الـ *Salpétière* ، والحطة والبيت الابيض ، وفي اماكن ومواقع كثيرة على الخط الدائري تقوم العُلب الليلية وبيوت المشاغلة والتسرى .

ولستراسبورغ مثل هذه ، هي الاخرى ، اشهرها الـ (*Ponts - Couverts*)ومثل لذلك لمدن روبيه وليون ومرسيليا . اما في لندن، فمقابل الاحياء السكنية الغنية الى جهة الغرب، يقـــوم حيها القذر ، الوسخ *East - End* ، واحياؤها الفقيرة القـذرة . ويرى ماكس اوريل في لنـدن مزيجاً بشعاً من الجمة والانجيل ، وخليطاً من مشروب « الجين » والتوراة ، والسكر والرياء، والاوساخ مما لا يرى في غير مكان ، والبذخ الجنوني والبؤس المدقع ، والازدهار والانحطاط وغير ذلك من المفارقات والمتناقضات الصارخة، وهؤلاء البائسون الجائعون ، الحيارى، وهذا الفريق الغارق بصلف وعلياء في الفن واللذاذات .

فهذه الزرائب والحشود البشرية التي هي اقرب الى السائمة منها الى الناس ، هي نتيجة هـذا الازدحام والقذارة معاً . ففي عام ١٨٨٥ ، كان معـدل الغرف التي يسكنها شخصان ١٤ ٪ في باريس ، و٢٨ ٪ في برلين وفيينا ، و ٤٦ ٪ في بطرسبورغ . وجاء في احصاء حول بروكسل ، عام ١٨٩٠ ان ٤٩ اسرة تملك مسكناً خاصاً بها و١٣٧١ تضم ثلاث غرف على الاقل ، و ٨٠٥٨ للواحدة منها غرفتان فقط ، و ٦٩٧٨ اسرة لها غرفة واحدة،و ٢١٨٦ اسرة تسكن غرفـة علوية تحت السقف ، و ٢٠٠ في كهف او دهليز ارضي.

ففي عهد ديكنز،آوت ارصفة لندن وعنابرها٠٠٠،١٠سارق.وهايد ـ بارك حيث لا تظهر الارستوقراطية نهاراً الا على صهوة الخيل،هو مكان يتعرض من يجتازه ليلاً لخطر الموت ، وكلمة « مخضب بدمائه »هي على كل شفة ولسان . ففي فرنسا ٢٢شخص من كل ٠٠٠،١٠٠ من سكان المدن يقدمون لمحاكم الجنح مقابل ١١ في الريف ، عام ١٨٨٠ وحوادث الانتحار هي تقريبـــاً، وبصورة ثابتة بنسبة اهمية التحشدات .

ففي لندن ، عام ١٩٠١ نحو ١٨ ولادة لكل ١٠٠٠ شخص في همبستيد ، و٢٥ في بتنـــال غرين ، وفي تورينو ٢٤،٦ ولادة في الحي الارستوقراطي سان فرديناندو، و ٤١،٥ في حي سان لورنزو الفقير . اما معدل الحياة ، فالاحصاءات تقـــدم لنا ارقاماً في غاية التضارب والتضاد . فالاحصاء الذي وقع ١٨٧٣ – ١٨٧٥ ،كان معدل الوفيات ١٥،٧ في المقاطعة الثامنة في باريس، بينما بلغ هذا المعدل ٣٦،٢ في حي ١٩ ، عام ١٩١١ ، مقابل ٩،٦ و ٣٢،٤ .اما في برمنغهـــام فقد انخفض الى ٢٦ عام ١٨٥٠ ،والى ١٧عام١٩١٠ ،بعد ان تطورت الامور الصحية في المدينة، وارتفعت اسبابها . وتعلل مقاطع مستمدة من نصوص كثيرة ان سبب هذا الوضع انما يعود كله الى تأثير الزرائب والاحياء الفاسدة في المدينة، فكلمات السكر والسرقة والبغاء والامراض ترقص على لسان الشعراء وتتدافع الى شفاههم عندما يتحدثون عن المدينة اللعينة .

من خلال الأنوار التي تعبث بها الارياح
بيوت البغاء تتألق نورها في الشوراع
(بودلير : ازاهير الشر)

الهرب من المدينة

كثيراً ماجاشت نفس ابن الضيعة حسداً من ابن المدينة على عيشه، في الوقت الذي يفكر هذا الاخير بمناسبة لتغيير الهواء الذي يستنشقه. وهكذا نرى ان حضارة المدينة طلعت علينا برغبة جامحة وميل قوي للتنقل والانتقال طلباً للذة وانتجاعاً للصحة؛ وكلما توفر لابن المدينة بعض اوقات الفراغ وكان باستطاعته السفر شمر للرحلة متوخياً المواقع الجميلة واماكن الاستجمام. وكلمة سياحة اطلت علينا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويخرجها ليتره في معجمه الشهير من الكلمة الانكليزية *Tourist* فقد جاءتنا هذه الحركة ونسميها اليوم هذه الرياضة، من الانكليز. الا ان الاسفار اصبحت عادة استبدت بالناس وطفت على الامزجة بعد طلوع السكك الحديدية، فكثرت بين ايدي المسافرين كتب الادلة والخرائط التي تشير بدقة الى معالم الطرق وخطط البلدانية. فالنادي البريطاني للرياضة البدنية للتصعيد في الالب، نشأ عام ١٨٧٧ وسميّه النادي الفرنسي ظهر عام ١٨٧٤، وتولى ادارة الثاني منهما شخصيات لها شهرتها الواسعة للترسيخ للرياضة البدنية وحركة السياحة، امثال: ادولف جوان وفيوله — لودوق، ودوق دومال والبارون نفليز. وطلع علينا بيارا بالخريطة المصورة التي تشير الى المواقع الاثرية المشهورة.

فاذا ما حرصت كل مدينة على ان تؤمن في محطاتها الكبرى ونهايات خطوطها الحديدية الرئيسية الفنادق الفخمة لاستقبال المسافرين والسياح، فالصناعة الفندقية فرشت مناطق برمتها ومقاطعات بكاملها بالفناديق والاوتيلات على اختلاف درجاتها. وعلى شواطىء البحر قامت مسابح اثيرة يرتادها المستحمون من كبار القوم واثريائهم ومشاهيرهم.

ورياضة الجبل راجت، هي الاخرى ايما رواج. فقد ام شامونيكس ٩٠٠٠ زائر عام ١٨٦٠، كما امها حوالي ٢٥٠٠٠ عام ١٩٠٠. واخذت سويسرا تصنّع السياحة في بلادها فدرّت عليها هذه الصناعة دخلاً طيباً. فسويسرا هي التي طلعت علينا بما نسمي *Palace*، وآدمز الغى مائدة الضيوف ليقدم لهم بديلا عنها غرفة الحمام. ورؤوس الاموال التي استثمرت في صناعة السياحة بلغت المليار، عام ١٩١٠. والرياضة الجبلية استفادت من هذه الحركة الناشطة لتحسن ستثمار قنن الجبال وقممها، وفتحت بذلك الطريق امام رياضة التزلج على الثلج.

فقد هبط فيشي ٧٠٠٠ ضيف او زائر عام ١٨٥٢، و ٦٠ الف عام ١٨٩٠، ومدينة بلسبيه تجمع ينابيعها العديدة عام ١٨٥٧، حتى ان مترنيخ دعا ممثلي الحلف المقدس لقضاء فترة استجمام في مياه كارلسباد، ونابوليون الثالث يتردد كثيراً على فيشي ويقوم بمفاوضة كافور في بلسبيه، بسبارك يأتي وبياريتز. وعدد كبير من المفاوضات الدولية جرت في مراكز المياه المعدنية: في ايشل، وغاستاين، وبادن. والبرقية التاريخية التي ارسلها غليوم الاول الى بسمارك في تموز ١٨٧٠، انما انطلقت من ايلو حيث كان العاهل الالماني يستجم.

وفي ميادينها وساحاتها المعشوشبة اخذت انكلترا تحيي العابها المفضلة: التنس والغولف

وكرة القدم ولعبة الكريكيت، واخذت عادة التزلج تغزو باريس منذ عام ١٨٦٠ / ٦١ على بحيرة لونشان. اما هواية القنص والصيد بواسطة الكلاب فبقيت الهواية المفضلة لدى الطبقة الارستوقراطية وكبار ممثلي البورجوازية الذين لهم من مذخور وفرهم ما يسمح لهم بالانصراف لهذه المتعة. اما صغار القوم فيقنعون منها بصيد صغار الطير ودقيق الطرائد بالبندقية. واخذ الطب يدعو للرياضة البدنية، واقبلت عليها المدرسة تشجع في صفوفها الرياضة ولا سيما الالعاب السويدية التي روج لها ايما رواج آل لنغ، الاب والابن. وقامت جمعيات رياضية في جميع البلدان تدعو الشباب للالعاب الرياضية في الهواء الطلق، ومثل هذه الجمعيات لها موسيقاها واعيادها الموسمية، من هذه الجمعيات من وضع نصب اعينها اغراضاً وطنية كجمعية السوكول عند التشيك مثلاً، التي رمت الى تغذية الروح القومية في قلب الشباب الرياضي.

الفصل الثاني

استقلال الذوق

استقلال كل من الكاتب والفنان

كلما تقدم بنا العصر نعمنا بالمزيد من انتاج الادب والفن. وقد تم لنا ذلك بفضل هذا التطور المزدوج في مجالي الفن والاثراء وتوفر اسباب الفراغ والتعليم والتقنية . فالمنشورات على انواعها تتوفر في كل مكان وعن كل شيء . فالجريدة تنير وتزود قراءها بالمعلومات وتثير الفضول في نفس القارىء . وقد طغى الكم على النوع وليس بمستغرب . ومهما يكن فقد ادى انتشار الثقافة الى طلوع نشاطات فنية كانت من قبل وقفاً على اقلية ضئيلة ونفر قليل ، كالموسيقى مثلا . لنعد بالفكر الى هذا الحد الذي سيطر على قرننا فترة من الدهر وكأن المرء فيه شعر بانتقاص من كرامته اذا لم يأت اهتمامه بفنون المسرح دون اهتمامه بمهام الحياة وشؤونها الدنيا . فتألفت جمعيات فنية ، عنت باقامة الحفلات الموسيقية ، منها في باريس مثلاً ، الجمعية الوطنية للموسيقى ، وجمعية بادلو للموسيقى ، وكرلون ولامور ، وكلها رمت لتصحيح الذوق وصقله وتهذيبه ، كما ان جمعية الحفلات الموسيقية في الكونسرفاتوار الوطني التي نظمها ابنيك اخذت تعرف عبقرية بيتهوفن الى الرأي العام الفرنسي. فاذا ما حل النصراء من رجال المال الذين لا تتوفر دوماً لهم ثقافة عالية محل النصراء الامراء ، فكثيراً ما رأينا نصيراً ذكياً مستبداً يحل محل هوي يبسط للفنان يداً رفيقة دون ان يفرض عليه الامور او الاشياء الاثيرة لديه . فالتوصية حملت دوماً شيئا من الاستبداد والتسلط . فعلى هذا الهوي الا يأخذ بعين الاعتبار والملاحظة ، هذا الخيال المجنح الخلاق ، بل عليه ان يؤكد حكم الاندية الادبية والفنية .

فكان لا بد ، والحالة هذه من ان يدافع الفنان عن حريته وان يصمد في وجه الضغط الذي يتعرض له من الجمهور. فقد تكاثرت المذاهب والمدارس الصغرى لتفي بمطالب الجماهير ، فراحت في تعنتها توصد ابوابها في وجه المديدين . وهكذا راح الالهام يصون نفسه من هذه

الزقاقية . هنالك اتجاه بارز يرمي الى صبغ الفن بالديموقراطية . فقد استطاع الجيل الرومنطيقي ان يفرض نمطه كما يفرض الطغيان ذاته . ومع ان الرومنطيقية بقيت لها القدرة على التعبير عن لواعج النفس بعد عام ١٨٤٨ ، الا انها كانت اعجز من ان تشبع الغرائز في ثورتها على الاعراف والتوافه . فثورة الشباب التي اتسمت بالرومنطيقية قبل عام ١٨٣٠ ، قامت عام ١٨٥٠ تقف في وجه الرومنطيقية . الا ان مراكز العبادة هذه تاقت اكثر من كل وقت مضى ، الى جمع اتباعها وضمهم بعضاً الى بعض . فعبق الجو بهذا الاريج وهذه الالوان الزاهية والانغام الساحرة ، كما يؤكد بودلير لنا ذلك .

والحال ، فالبورجوازي لا يستطيب كثيراً ما يخرج عن الحد الوسط . وفي هذا لعمري كل جاذبية الربح وسحره — في هذا العهد المعروف بالعهد الواقعي — الذي قابل ، بإعراض كلي حرفة الادب والفن لعجزهما عن تأمين الخبز لمحترفيهما . فقد سبق للشباب الرومنطيقي واحتج بشدة على ما يكتنف العيش من صروف وظروف قاسية ، وشروط راح برودون يفرضها على الفنان في عهد لويس فيليب . فقد راح ميليه ، في مطلع حياته الادبية يقلد بعض آثار القرن الثامن عشر بعشرين فرنكاً للقطعة الواحدة ويصور بافطات . فقد باع صورة «البشارة» ١٨٠٠ فرنك ، التي بيعت ، بعد ذلك بقليل بـ ٥٥٣٠٠٠ فرنك عند بيع مجموعة سكريتان وراح بعض هؤلاء الفنانين يتساهلون ويتنازلون عن غلوائهم في سبيل استدراج توصيات وطلبات جديدة . وراح الناس يتذوقون اللوحات المرسومة بريشة فلاندرين وشاسريان بينما رفضوا ان يعرضوا الصورة: « جنازة في اورمانس » بريشة كوربيه ، في متحف باريس للفن ، عام ١٨٥٥، فاضطر لعرضها في كشك من خشب . والمحكون الفنيون لم يعاملوا معاملة احسن آثار مانيه . وقد أحيل الى القضاء اصحاب هذه الآثار الادبية او الفنية : أزاهير الشر — ومدام بوفاري — وتيريز راكين — ومادلين فيرات ، والمدوخ، بحجة انها انتهاك للآداب العامة. فقد ترك لنا « مورجر » وصفاً لحياة بوهيمية ، حياة على هامش العالم البورجوازي الذي يحرص على دفع بعض بنيه الى سلوكها ، ثم يروح ويصفهم بخارجين على المجتمع . ويذهب ستيفن زفايغ الى اطراء مناخ باريس الغريب « المشبع بالسذاجة ، وبهذه اللامبالاة المتسمة بالحكمة والرصانة » ، هو الذي « خرج من مدينة فيينا هذه الطائشة ، اللعوب » وقد وقع الانفصال حقاً: فقد اعلنت مونمارتر ومونبارناس تمردهما في باريس نفسها واصحاب الشهرة لم يعودوا من خلق الذوادي والصالونات ، ولا وقفاً على الاغنياء ، بل من صنع المقاهي — المساقي والاهراءات . وقد يحدث ان اللغة المحلية في هذه الاماكن لم تعد مفهومة لدى الطبقات العليا . هنالك ضوء خافت يضيء بعض المطلعين او المريدين ، الا ان هذا الضوء لا يبلغ المدينة.

وهذه الثورة ضد الالتزامية او العرفية — وهي ليست بشيء جديد — ظهرت في جميع البلدان على اقدار متفاوتة ، فها هو احد الكتاب الروس يتأوه عالياً نادباً حظه التاعس لوقوعه تحت كابوس الروح السلافية ويندب حظه لان ادبه ليس من هذا « الادب المتهم » . فبعد ان استعرض شعراء ايطاليا وقصاصوها البلاد الذي يتضرس به الوطن المضطهد المهيض الجناح في

تطلعهم بإعجاب لهذه الاعمال التي تم انجازها برعاية الاسرة المالكة سعيداً في سردينيا. والفكر الالماني القلق ، المضطرب دوماً ، يعرض جانباً عن هذه المغريات التي توفرها له سياسة بسمارك الوطنية ، فيتيه حائراً بين الفلسفة الراديكالية وبين اللاعقلانية. اما في الجزر البريطانية ، فقد انتصب في وجه هذا الرياء الذي طبع العصر الفكتوري ، هذه الفردية بما اتصفت به من سخرية ومرارة . فلا يسيرون معها بالضرورة على خطى اوسكار وايلد الذي حُكم عليه لخروجه عن جادة الادب، متجاوزاً هذا التشكك اللااخلاقي، برفضهم لسهولة التعبير فطلعوا علينا بمعظم هذه الآثار الادبية التي وصلت الينا ..

اتكون هذه الحضارة المدينية في اوروبا، اسفيناً او اداة طرد بعد ان سجلت في حسابها مثل هذا التطور ، يا ترى ؟

مخلفات المدرسة الرومنطيقية

وهذه الرومطقية ، الغنائية السادرة في تأملها والعاطفية، سر قوتها وسر بقائها ، في قدرتها على ورودها ورد الاحلام والخيالات المجنحة والحماس الوطني. وهذه البنابيع التي كانت تصدر عنها زاخرة ، فياضة اصبحت الان اشبه بخط دقيق يكاد يضيع بين هذه التيارات الجديدة التي اطلت علينا من هذه البلدان التي شهدت طلوع ادب وطني قومي ، فقد كان بوسعها ان تردفه بدفع شديد، فلا تراها تشكو من اي ضعف او وهن في المجال الموسيقي .

وهذا الهس العاطفي والمادة الشعريه الدفينة بقي يستمد منها نبراته المثيرة . فالحب المشبوب طي الضلوع والمتمطي بين ثنايا لواعج النفس ، يلهم هؤلاء الادباء صفحات تمور بالحرارة والوهج والدفء كالاديب الانكليزي روستي ، والاديب الاسباني بكر ، ومعظم الشعراء السلافيين والرومان والسكندينافيين. والطابع المميز لآثار روبرت برونتغ هو الطابع السيكلوجي، وهو غو الذي ادركته الشيخوخة وراح يعاني من اغراضها ، اخذ يعنى اكثر فاكثر ، بامور الحياة والموت هذه القضايا التي عالجها الكاتب النرويجي بجارسن منذ ١٨٨٠ . ومع ذلك فحماسة الناصريين تبرز على اتمها في المانيا ، في ما عرف بالفن المثالي الذي لمع فيه ماكس كلنجر ، اشهر وابرز نقاش على ما نرى ، منذ طلوع دورر ؛ وهذه الردة التي ظهرت في انكلترا ضد الاكاديمية او التقليدية الفنية والتي كان بعض نتائجها هذا الازدهار المدهش السابق لرافائيل والذي يتمثل على اتمه في هونت وروستي ، وميلاي ، وبورن – جونز الذين حرصوا جميعاً على ان ينموا فيهم البدائية الفنية ، التي راح رسكن ، هذا الناقد الذواقة الذي راى « في كل فن كبير، شكلا من اشكال العادة، رسكن هذا الذي كان همه الاول والأخير ان يطهر البشرية وينقيها مما علق بها من عورات وشوائب، من هذه اللطمة التي لحقتها من جراء وقوع نظرها على هذه المناظر البشعة التي طلعت بها علينا الصناعة » . وهذا الحنين القوي الى الاجيال الوسطى نجده من جهة عند « هيبل » ، كما نجده من جهة ثانية عند وليم موريس وولتر كراين اللذين

حاولا تجديد فن الزجاج الملون وصناعة السجاجيد والفسيفساء ، او عند غوستاف مورو هـذا الفنان الذي عني بفن التمنمة والتزويق الناعم .

والاشاحة عن المدينة والهروب منها يولد بالتالي النزوع الى الدخيل او الدخيل المستجلب من الخارج ، الذي يبعث الشوق الى تنويع المناظر . « اني امقت كل ما توافقوا على وصفه بحضارة وما طلع علينا من نظريات المساواة » . يصرح لوتي ، كما ان موباسان يكتب بدوره قائلا : « لن ارى بعد الآن اناساً لابسين الحداد ويشربون الافسانت وهم يبحثون شؤون مشاريعهم التجارية » . فاذا ما راح برودون يستعيد بلذة ظاهرة ذكريات حداثته ، عهد كان يحرس قطعان البقر ، ويستحضر كوربيه امامنا الاعمال التي نقتضيها العناية بالارض . والاقبـــال على تصوير المناظر الطبيعية ، هذه النزعة التي اطلقها بربيزون لقيت رواجاً عظيماً وكانت امتـــداداً لفن السمفونيات الراعوية .

وقد ذهب بعضهم الى ابعـــد من ذلك حتى انهم اوغلوا ، غير هيابين ، في مجال المستهجن ، فالخوف من المجهول الذي يرزح على الصدر ، عرف ادغار بو ان يفيد منه الى اقصى حد وبعنف كما اجاد ذلك مربيه بمهارته المعروفة ، وغوتييه بذوقه الرهيف ، وجيرار دي نرفال بجماليته . وسيستمر موباسان وكذلك الرمزيون بعده ، في سيرهم على حافة اللاعقلانية .

وهذا العصر يصر على ربط الحاضر بالماضي. من ذلك مثلا مناظر البطولة التي يرسمها لنا ، على غرار هوغو في اثريه الخالدين : « القصاص » وملحمته « اسطورة الاجيال » ، وتنسون ، ووليم موريس وماثيو آرنولد ، وفريتاخ في روايته «الجدود» ،وتولستوي في روايته : «الحرب والسلم» . ولهذا السبب بالذات لقـي واضعو القصص التاريخي ارتياحاً لدى الرأي العام واقبالا شديداً منه ثم ان الاستمساك بالارض الام والتعلق بتاريخها ،قدم من جهة ثانية ،للشعر الملحمي ،موضوعات قوية. ومع ان هذا القصص خضع لمستلزمات الواقعية واحياناً راعى ،مبدأ الفن لاجل الفن ،فالرومنطيقية ، بقيت تكأة لهذه الآداب الحديثة العهد ، تعتمد على بعث المآتي العظيمة التي تتنزى ، على اقدار متفاوتة بين الكبر والصغر ، بأسطورة هذه المآتي والانجازات التي عرف القصص الشعبي ان ينفخ فيها الحياة . وهكذا اخذت بمعاضدة حركة البعث القومي التي سار في خدمتها منذ عـام ١٨٤٨ في هذه البلدان الواقعة بين البلطيق في الشـــمال والبحر الابيض المتوسط ، في الجنوب ، وعرفت ان تعضدها وتهيء لها اسباب النجاح ، كما احسنت تمجيد الذكريات الوطنية بـــين الاقوام السلافية ، وسكان شبه الجزيرة الايبرية . وفي هذا المجال ، يستلهم كاردوتشي الموحيات التي استوحاها بيرس غالدوس او فركليكي . فنحن في عهد تدوي فيه الدنيا بالاناشيد الوطنية وتشهد ابداعاً موسيقياً في الحقل الوطني .

ومن هذا المعين الرومنطيقي الذي لا ينضب ، تنفجر باستمرار تيارات الهرمونيا . فمنذ ان توارى عن الانظار الممثلون الحقيقيون لهذه المدرسة ، امثال ويبر ، وشوبرت ، وشومـــان ،

وشوبان ، وليست ، جرت عبثاً محاولات تمهد لطلوع مناهج أو مدارس جديدة . فكل هؤلاء الذين يكتبون وفقاً لروح العصر ، لا يستطيعون مقاومة الرغبة في استخدام الطريقة الاحتفالية وباستلهام الموضوعات التي كانت عزيزة على قلوب جيل الثلاثينيات . فشكسبير ما زال مصدر وحي والهام لكثير من المواضيع ، وفوست يعي اكثر من كل وقت مضى ، الموضوع المفضل . فالعبور من ليست الى واغنر تم بصورة طبيعية مع ما صحبه من عنصر الخوارق والمعجزات .

القيادات الرجعية ضد الرومنطيقية : الواقعية ، الطبيعية ، الفن اللاشخصي

مما لا شك فيه قط ان الرومنطيقية لاقت ، منذ عهد بعيد حركات عديدة مناهضة لها . فكثيراً ما قرأنا عن الحركة السابقة للرومنطيقية ، وهي حركة معادية اطلت من نواح عديدة : من بلزاك وميريميه ، كما أطلت علينا من ستندال . وكم راح بيالنسكي يتمنى ، قبل عام ١٨٤٨ ، ان يطلع علينا شعر واقعي (وهي امنية تحققت على يد نكراسوف. وضحكة غوغول لم يكن فيها شيء من الرومنطيقية ، الا ان رينان بقي قريب الصلة بميشليه . وفلوبير بسحنته الحمراء وبصوته القاصف والذي تجلت له افاريز ضخمة ، يوضح لنا قائلا : « الطبيعي عندي هو الشاذ الغريب ، المستهجن هذا الزعيق الميتافيزيقي او الميثولوجي ». فلا يحق للروائي ، ايا كان ، « ان يعبر او أن يبدي اي رأي في اي موضوع يطرق » . عليه ان يبذل جهداً كبيراً لئلا يودع الورقة اي شيء من قلبه » . وزولا نفسه يعترف قائلا : « انا اكره الرومنطيقية وامقتها لهذه التربية الزائفة التي لقنتها ، فأنا لا أزال احمل في نفسي اثرها وهذا ما يهيجني بالفعل » ، فيجمح به الخيال .

ما من احد لاحظ ان المذهب الواقعي انتشر بيسر اكبر في هذه البلدان التي سيطرت عليها الثورة الصناعية . وليس من يستطيع ان يتجاهل ما للوضعية والروح العلمية من تأثير بعيد في هذا المجال ... ! « ان ما أرغب فيه ، يصرح ديكنز على لسان احد شخوصه ، هو الوقائع ... فالوقائع او الاحداث هي الشيء الوحيد الذي نحن بحاجة اليه على هذه الارض ... علينا ان نلغي المخيلة وان ننتزعها عنا الى الابد ». فانتشار الزندقة على هذا الشكل ليس بغريب قط عن هذا الاقبال على الامور الخلاعية والمقذعات فلم يعد ثمة من موضوعات سامية اوخسيسة محطة . كل شيء يمكن ان يصبح موضوعاً بعد ان تحيز واصبح واقعياً . فاذا اعترفنا للماضي ببعض الشأن ، فعلى شرط تجريد الوقائع التاريخية من العنصر الاسطوري الذي يقلقها . وعلى هذا الاساس انزل رينان يسوع الى الارض ورده الى المحيط الذي وُجد فيه وفسره من خلال الناس الذين عاش بينهم . وهكذا تسقط فتنة الاجيال الوسطى ويزول سحرها ، هذه الاجيال التي تبعث الرعب بما فيها من ايمان وبرص ومجاعة ، حسب ما يقوله لوكنت دي ليل . فالتاريخ القديم وعهد الانبعاث ليسا بأفضل منها. فعدم التأثر والتجرد من الغرض ، يمكن صاحبه من تشريح مجتمعه بتؤدة ورسم اخلاق المجتمع بكل صراحة . فقد قامت عبقريات خصبة وقوية جددت المسرح واعادت اليه حيويته ونشاطه ، منها اميل اوجييه ودوماس الابن ، في فرنسا ، وهيبل

وهوتمان ، في ألمانيا ، والشالوث الشمالي الذي تألف من بجرسن وابسن وستراندبرغ ، وفي روسيا تشيخوف . اما انكلترا فيمكن ان تباهي بـ :تاكراي وجورج اليوت ، وبولوير لتن ومريديث، طليعة سلسلة طويلة لا تقل خصباً وشهرة في حقل القصة والرواية تتمثل على خير شكل بفونتان في المانيا ، وكيلر في سويسرا ، وتورغنيف ثم دستويفسكي وتولستوي،مهما كان من روحانيتهم فقد وصفوا لنا بدقة لا ترحم ولا تأخذ بالوجوه ، بألوان صارخـــة ، الطبقة الارستوقراطية الروسية العليا ؛ وعمل فلوبير مع الاخوة غونكور ، على الترويج للمذهب الواقعي، هذا المذهب الذي حرثه الفونس دوديه بكل دراية والذي وصل به زولا الى حافة المذهب الطبيعي.وعرفت ايطاليا ، هي الاخرى المذهب الواقعي (الموسيقي والأدبي على السواء) ، هذا المـــذهب الذي يتمثل على أتمه في هؤلاء الروائيين امثال فرغـــا وكمبوانا والموسيقار مسكاني وليونكا فالّو وبوتشيني .

وكوزبييه من رجال الطليعة بين الفنانين الذين تصدوا بشدة لا بل بعنف لهـــذه التفاهات الـ ومنطيقية ، كانوا من جند المذهب الواقعي . وقد عرفوا ان يجتذبوا اليهم ميليـه الذي يرى انه : « لا حرج قط من استخدام اللفظ الزقاقي اذا ما صلح للتعبير عن الســامـــي الجزل ، وكلاهما يؤلف « كتلة » انتصبت في وجه هذا الرياء الاجتماعي . امـــا في البلدان الاخرى ، فتصوير الواقع عنى بالاحرى ، بتحديد التفاصيل بكل دقة . ونختصر القول على كل من ينادي بمبدأ الفن للفن ان يطرح جانبا كل عاطفة شخصية .

فهذا الشاعر الذي يحرص على نحت وصقل عمله الاثري نحت الصائغ لقطعة ذهب بـين يديه وصقلها ، يبتعد كثيراً ، ولا شك ، عن عنصر التأثير . وهنا عودة ثانية الى النمنمة الـتي نشاهد رواجها عند السابقين للنزعة الروفائيلية ، كما انها عودة الى الانشودة . غير ان المذهب الوضعي ترك اثره البعيد في لوكونت دي ليل، وفي «تين» ،ولا سيما في هؤلاء الذين على شاكلة براغا زعيم مدرسة كوامبرا ، يرون في الحادث الواقعي مظهراً جمالياً.واذ كانوا مهتمين كثيراً بتحديد الجمال فقد برزوا لنا خير من يمثل الفلسفة الجمالية . فشخصية رسكن مع باتر تسيطر تماماً على هذا الفريق في انكلترا، وبيرمز لو والون وفوسمير في هولندا، مع تين وواغنر ونيتشه ، كل هؤلاء عبروا عن هذه الفكرة الصحيحة الكامنة تحت هذا النشاط الفني الناصع والمشرق الذي يرى فيه العالم الاجتماعي غويو التعبير الاسمى لهذا التجاوب الجماعي في الشعور .

ان مثل هذه النزعة تتفق تماماً وعودة الكلاسيكية او الاتباعية . فقد تبنى تيوفيل غوتيه عبارة افلاطون عندما يقول:« الجمال هو تعبير عن الواقعي المحيز » . و« تين» معجب الاعجاب كله لهذه الحياة الاغريقية المتواقعة . فنظريات انغر وتعاليمه استمرت في سيرها نحـو الامام ، بعد ان عرف كيف يصمد في وجه العواصف الرومنطيقية ، وبوفيس دي شافان ربط بـدوره فن التصوير بالرسم الهندسي رغبة منه في تأمين الانسجام والمساوقـــة . ومن مندلسوهن الى براهمز وسان — ساينس وفوريه ، عرف التقليد ان يصمد بعد ان تمسك بتأليف موسيقي آسر

وفقاً للقواعد التي وضعها القرن الثامن عشر ، بينما راح كاردوتشي يقترح الطريقة اليونانية اللاتينية . الا ان تذوق التاريخ القديم يتباين الآن نوعاً وقدراً . فاذا ما راح اناتول فرانس يعب بلذة ظاهرة من أربيج فلسفة أبيقور، فرينان بدوره استعمل حبراً سرياً ، كما وجد فن الرثاء تلامذة مخلصين ، وفيلسوف التشاؤمية شوبنهاور ينتهي بشكل طبيعي، الى فن، يرى فيه كل الخلاص .

« فالرومنطيقي الذي اتقن فنه لم يلبث ان اصبح ابداعياً ، ولهذا السبب عينه انتهت الرومنطيقية ، الى البرناسية» ، كما يؤكد فاليري . ويرى تيوفيل غوتيه من ناحيته : « على الكاتب ان يعرف كيف يتحكم بشعوره ويكبت احاسيسه في كل ما يكتب » ؛ ولو كونت دي ليل هذا الجمهوري من تلاميذ فوربيه ومريديه، ونصير الغابة ضد المصنع وضد تعديات الصناعة، والمستسلم بكليته الى بدائية تقول بالاشتراكية ، لم يعد ليرغب في عليائه وكبريائه واشمئزازه ، الا الانقطاع الى هذه اللذائذ الوضعية . فمعرفة الايقاع والانغام هي فوق كل معرفة ثم تأتي التفصيلات الدقيقة فتكمل ما ينقص . وهذه الدقة التي تميزت بها شاعرية كاردوتشي وشادت عظمته ، سيعرف جوزيه – ماريا دي مريديا ، الذي طلع من الجزر ، على شاكلة لوكونت ، كيف ينميها بدوره ويعني بها في ديوانه *Les Trophées* بحيث ان كل مقطع من مقاطعها « سجل منتهى الدقة ومنتهى الجزالة » ؛ وهذا الفن الذي يتسم بالقوة عند الشاعر الايطالي صاحب : «الاناشيد البربرية» ، والذي يتنزى بالعلم والدقة ، والذي يعنى الى اقصى حد، بالصيغة المتناهية الكمال ، لا يخلو دوماً من مسحة من الكآبة والسأم . فالامثولة كان لها دوي عظيم : فظهرت عام ١٨٨٢ « الاناشيد القديمة » كما ان « الاناشيد المفجعة » لن ترى النور قبل عام ١٨٨٥؛ وفي هذه الفضون ينشر بودلير ، عام ١٨٥٧ ديوانه الموسوم « ازاهير الشر » كما ينشر فرلين عام ١٨٦٦ : « الاناشيد الزحلية » ؛ وفي سنة ١٨٥٧ ، وضع واغنر : « مذكرة تريستان » . وهكذا أطل علينا شعر جديد ، رمزي الطابع وجد الطريق امامه ممهدة بهذا الانشاء الجزل الدقيق .

المدرسة الانطباعية

في عام ١٨٧٤ راح ناقد فني يعلق على احد الرسوم يوقع اسمه كلود مانيه فيصفه «بالفن الانطباعي » بينما دليل المعرض يشير اليه بعبارة « انطباع » الشمس الطالعة . « يا لنا من مساكين ، وسنبقي مساكين » طفق يردد الفنانون بعد ان اطلقوا عليهم هذا الوصف التعريفي .

وقد شاء بعضهم ان يرى في مذهب الاخوة غونكور ظهور مدرسة ادبية جديدة يرمي الى وصف الاشياء كما تبرز للعيان في اوضاعها المتبدلة . فهم يشددون على الالوان وعلى المظاهر . ولما كانوا من الاوائل بين من ادخلوا الفن الياباني الى فرنسا ، فليس من عجب قط ان يقعوا تحت تأثيره المباشر . وقد اطلق جول لومتر فيما بعد على نقوده الذاتية عنوان: «انطباعات حول المسرح » . وأناتول فرانس نفسه لا يستعمل تعبيراً آخر عندما يعرض افكاره الشخصية في

كتابه : « الحياة الادبية » .

نحن الآن امام شيء من هذا ، في الموسيقى . وشابريه الذي عُرف ببراعته وتفننه سار هو الآخر في اتجاه أفضى به الى مذهب دي بوسي . ولا يسعنا هنا الا ان ننوه بالرواد من الموسيقيين الانطباعيين ، امثال موسورغسكي الذي عُرف بقدرته على تنويع التدوين الموسيقي . وقد يكون استبقى ، من هذه الناحية في كتابه الموسوم : « بوريس غودونوف » الرغبة التي طالما اعرب عنها دي بوسي ، وهي الاحتفاظ بما يسمى طابع العفوية او الطابع الزئبقي .

ان اسلوباً من هذا النوع ، وقد يكون شيئاً آخر – ظهر مع ذلك بين الرسامين . فالفنان الانطباعي يرى كزميله الفنان الموضوعي بين الامور المستمدة من حياة العصر ، اشياء طيبة . الا ان الاول منهما يأخذ على الثاني اعتقاده بمظاهر وظواهر دائمة مستمرة، كما يأخذ عليه انصرافه للرسم القائم ، في مرسمه السيء الانارة والاضاءة . والحال ، فالمهم في الامر هنا ليس هذا الشيء بذاته ، بل الضوء الذي يكشفه او يبرزه . فالحادث الثوري وقع بالفعل عام ١٨٦٣ عندما عرض مانيه في صالون المرفوضين رسمه المشهور باسم : « ترويقة على الحشيش » وهي صورة وضعها في الهواء الطلق . وعلى شاكلته نرى مونيه مأخوذاً « بهوس الضوء وحمى النور » . والحال، فالنور او الانارة تتغير وتتبدل بتغيير الظروف والاحوال الطارئة . ومن ثم فالشيء الماثل امامنا هو هو ذاته في كل الحالات اذ ان لاتغير ولاتبدل في ذاتيته . مما لا شك فيه اننا هنا امام تأثير الـ *Estompe* الياباني الذي لقي في فرنسا نجاحاً عظيما بعد ١٨٧٠ عندما أخذت امبراطورية الشمس المشرقة تلفت اليها انظار العالم ولا سيما الاوروبيين ، كما اننا ايضاً امام تأثير الفن الهولندي والاسباني ايضاً كما هو ثابت. وهذه الثورة مدينة بنوع خاص لعلم البصريات الجديد الذي استشاطه التصوير الفوتوغرافي ومظاهر المشهد الصناعي: فالرمادي والاصفر يغشيان كل شيء حيث تغيم الالوان وتبهم وتشتد بالتالي الحاجة لنور ساطع . فالفنان الانطباعي لا يمزج ألوانه على الملوّن (لوحة الالوان). فهو حريص على ان يضع جنباً الى جنب الازرق والاصفر ليحصل بها على الاخضر . فهو يحل المركب ويترك للعين مهمة التركيب عن بعد . وهكذا فهو يضاعف اخف المؤثرات وادقها ، والهواء الطلق يوفر له اللقطات الآنية، كما يفعل المصور الفوتوغرافي اذ يأخذ المشاهد بنت ساعتها .

وكلود مونيه الذي يعتبر خير ممثل لهذا الطراز الفني لم يلتقط من الديكور العارض سوى المناظر الآنية ، والمناظر الهروب ، اذ ان الموضوع لا شأن له بحد ذاته . فالابداع او السمو يكون في رسم « الخواء » . وسيزلي يضحي بهام الارض في سبيل السماء ، ورينوار الذي برهن عن روح استقلالية كبيرة والذي انطلق من كوربييه الى مونيه ليكون اكثر فأكثر على مقربة من ديلاكروا، آثر الواناً تهيج الحواس وتثيرها. لا يمكن اعتبار ديغاس في عداد الفنانين الانطباعيين المؤمنين ، هذا الرسام المحافظ ، اليقظ ، انقطع للمرقم (البستل) وتوصل به الى نتائج مدهشة فاذا كان من العسير وضع هوسلر في مرتبة مونيه فقد دشن ليبرمان ، مع ذلك ، في المانيا ،

مدرسة القطيعة او الانفصام ، هذه المدرسة الفنية التي تنتسب للانطباعية وطرفت بدورهـا رواجاً وازدهاراً كبيرين في البلدان الشمالية ذات الجو السويدائي . وبوفيس دي شافان مـدين بهذا الصفاء الذي عرف به لقضايا من هذا النوع سيطرت عليه واستبدت به .

واغنر والاتجاه نحو الفن اللاعقلاني

كثيراً ما وصف نفسه بـ *tondichter* اي شاعر الموسيقى الذي جمع في شخصه كل التيارات الفنية الذي عرفها القرن. رومنطيقي، فقد «كانه» كل حياته ، اقله في انفتاحه للموسيقى . فقد واجه ثورة ١٨٤٨ كما يواجه حدثاً داوياً يصيب النظام الاجتماعي فطلع علينا سيغفريد فوضوي يتحدى الآلهة . وقد وقف في كتابه : الفن والمناخ ، ضد هذه الحضارة المجردة ، السوية الصور وراح يلوم فرنسا التي غـذت ، من راسين الى سكريب ، ما هو تقليدي ، في سبيل « النبوغ » كما لم يوفر في موقفه هذا، اليهودي، اي روتشيلد مرمزاً من تعابير *Glaubiger* الى دائن المـلوك وملهي المؤمنين ، ومندلسون ومايربير مع العلم ان اليهودي يمكن ان يرجع انساناً اذا ما تجرد من يهوديته . ففكرة التجديد تسيطر عليه ، هذه الفكرة المتحكمة باتباع المدرسة الرومنطيقية بالرجوع الى الهرمونيا ، الى الانسجام والوحدة . يجب ان نوحد بين الشعر والموسيقى . ومن هـذه الفكرة طلع علينا « برباعية خاتم آل نيبلونجن» فوضع نص النشيد واحكم الحبكة بين التأويل الموسيقي والمشهد. وتطالعه فلسفة شوبنهور القائلة بالفن المنقذ . ويتجه فنه بعيد عام ١٨٤٨ ، نحو الرمزية الـتي تجلت بكل معانيها في كتابه : « تريستان» . وبعد الفشل الذي اصابه بـ « تانهوزر » في باريس ، لاذ بمرفأ السلامة الذي وفره له لويس الثاني ، ملك بافاريا . ومنذ ذلك الحين وضع كل آماله في المانيا المتجددة . فالقطعة التي وضعها بعنوان : *Les Maitres Chanteurs de Nuremberg* هي مجلى لسمو العبقرية المتحررة التي انقذت في شخص، لوثير المانيا من هذه الصيغ والقوالب الضيقة ، وبهر مسرح بيروث ليشهد تمثيل وقائع سيغفريد الذي برز الآن بطلا قومياً وكذلك برزت شخصية برسيفال المنقذ .

واستبداد موسيقى واغنر بالناس واستئثارها بأذواقهم يتفق وطلوع الوحدة الالمـانية . قليلون جداً الموسيقيون الذين لم يؤخذوا بسحر هذه الموسيقى ، ولم يستطع كل من قـام منهم بحركة رجعية منهم ، امثـال دوبوسي ، ان يتفادى سحر الرمزية . « خرجت مخبولا من مشاهدتي *Felstspielhaus* ، صرح فيما بعد ادوار هريو بعد ان استمع وشاهد الرباعية *tétrologie* عام ١٨٩٦ ليس ما هيأني، انا الكرتزياني الحديث العهد ، لاستمتع بهذا المشهد الموسيقي الضخم، هذه الميتافيزيقا الموسيقية ، هذا الصدام بين القوة والحب ، ولاحتمال مرأى تشنجات ألبرنيغ القزم والحركات السحرية التي ترسمها الحلقة الساحرة في دورانها الذي لا ينتهي حول المرسة» .

وقد خطر لنيتست ان بوسع واغنر ان يحقق حلم المسرح الموسيقي ذي المـدلول الفلسفي العالي . والأثر الواغنري هو الذي حققه نيتشه . فبعد ان وضع جانباً العقلانيـة السقراطية ، واعتقد بالسائل الحيوي الديونيسي الذي يستطيع، اذا ما تعاون مع القوة الابولينية ، ان يخلق

الانسان الكامل . فقد نزع نيتشه بارادته نحو القول بمبدأ حياتي سام ، الا انه يأخذ بعد قليل ، بمهاجمة موقف واغنر من قضية الفداء أو الخلاص ويتطور ، بعد موت واغنر عام ١٨٨٤ ، باتجاه فلسفة نيورومنطيقة شخصية ، صرفة ، كان لها تأثير كبير في اخريات القرن التاسع عشر .

الابداع الشعري المستقل والرمزية

ربما كان بودلير بين الاوائل ممن انبروا للدفاع عن واغنر مع استمراره في جهاده ذوداً عن كوربييه . فقد اطلق هـذا الرجل الغريب الطباع ، الوجيع ، الصعب التصنيف ، كما يقول فيه هوغو «قشعريرة جديدة» . وفرلين الذي يستحق هو الآخر الشفقة ، والذي تأرجح بين الايمان والتهتك وسيطرت عليه ابسط الغرائز مشترطاً « توفر الموسيقى قبل كل شيء » ، متصرفا بكل حريته بالانظمة ، دونما التزام ، مزدرياً بهذه الاصنام وبهذه التماثيل ؛ وقد رُفع على الهياكل رسميا بعد عشرين سنة من وفاته . وبأسلوب يفيض بالجرأة التي لم تعرف لها شبيها من قبل ، راح رامبو ، محمولا على اجنحة الاحلام والخيال الشرود ، يرصف امام اعيننا ، صوراً لم تخطر يوماً على بال ، باحثاً عن الشك للشك ، ثم يلفه صمت طويل وينقطع للرحلة والسفر . وعندما توفي هوغو ، بعد واغنر بقليل ، طلع علينا مالارميه بنظمه التقليدي ينشر على الملأ عدداً محدوداً من قصائده الرقانة الداوية ارادها « ساحرة » تفيض نقاء فكرياً . وهذه الرمزية جاءت كما ارادها واغنر ، اذ شدت وثيقاً ، بين الموسيقى والشعر . وهذا الفريق من الشعراء المعروفين بـ *Décadents* ومن يليهم من الشعراء الرمزيين ، وصفوا انفسهم بشعراء فرنسا الشباب في الحي اللاتيني « قلة ممن فتحت لهم الابواب ، فتقبلوا بارتياح كلي » ، البيان الجمالي الجديد الذي طلع علينا به موريا س.

فاذا كان المراد بالرمزية هذا الفن الذي استسلم ، بعد ان تسلح بالشعر المرسل ، للشعور وحده وللعناصر الموسيقية ، وقام بحركة رجعية ضد البيان الوصفي واستخدم الايحاء واكثر من المجاز الشعري ، هذا التيار ارتدى اذ ذاك ، اتساعاً كبيراً . فقد غزا بلجيكا وتمثل فيها على خير وجه بمترلنك وموكل بقطع النظر عن فيرهارين . وقد تمثل في انكلترا بالشاعر بريدجس وسونبرن كما ترك ميسمه في الثالوث الشمالي ، وجانب الكاتب الايطالي دانونزيو وترك فيه اثره ، كما ترك ميسمه في الكاتب السويسري سبتلر ، ودخل روسيا مع تيوتشيف « فت » . فألهم المسرح كما ساعد في تمهيد الطريق امام الثورة التي قام بها دوبوسي في الموسيقى.

حركة انقطاع او انفصام تام عن المذهب العقلي او مذهب التعقلية . وفي سنة ١٨٨٩ اخذ برغسون يطلع على الناس بنظرية الاكتناه . ونتبين بين هذه التيارات الفكرية والفنية الدقيقة تباعداً تقدمياً نحو النظرية الموضوعية . وهكذا جاءت خاتمة حقبة عظيمة لعمري .

الفصل الثالث

الريف يأخذ جزئياً بأسباب التطور

فاذا لم ترجع كفة المدينة عددياً من الوجهة السكنية ، فقد سجلت مع ذلك، في جميع انحاء اوروبا شأناً لا ينكره الا كل مكابر عنيد .فعلى العالم الريفي ان يتكيف وان يتطور بما يتلاءم وهذا الوضع . ويحق لنا هنا ان نتساءل ما اذا كان بالامكان ان نقارن بين « الثورة الزراعية » و « الثورة الصناعية » ، يا ترى ؟

اكتظاظ الريف بالسكان ونزوحهم الى المدينة

وهذا الازدياد السريع في حركة السكان في المدن يقابلها انخفاض نسبي في حركة السكان في الريف . فالاسر التي تعيش على مرافق الزراعة انخفضت نسبتها في كل من ايرلندا وفرنسا . فالريف لم يعد في فرنسا سوى ٢٣ ٤٩٢ ٠٠٠ نسمة عام ١٨٩٦ ، بينما كان عددهم ٢٦ ٧٥٣ ٠٠٠ ؛ وبلغ من وضع بعض البلدان من هذه الناحية « ان راحت تنعي الارض التي تحتضر » :

فالسهل كئيب تعب ، ليس من يحمي حماه
والسهل حزين يحتضر وقد ابتلعته المدينة
(فيرهارين « المدن الاخطبوطية »)

ومع ذلك ، فهذا الوضع لا يعني قط ان الهبوط النسبي الذي طبع معظم الدول الاوروبية يكوّن انخفاضاً مطلقاً فلا نزال نشهد في كل من انكلترا والمانيا تزايداً مطرداً وان جاءت حركته اضعف مما كانت عليه في الماضي . أما في الجنوب والشرق من اوروبا ، فهذاالنمو يطّرد بصورة محسوسة .

فكل مرة تعجز الارض عن إعالة سكانها او تعجز عن الاحتفاظ بهم ، ترميهم باكتظاظ السكان . ومع ان المدن لا تموّل في معايشها على الفلاحين الاوروبيين وحدهم ، فكثيراً ما نراهم يتخلون عن بعض انتاجهم الطيب طمعاً بالربح او نزولاً عند مقتضيات القانون (فتصدير

الحنطة في روسيا مثلاً ليس نتيجة فائض الموسم ، بل زهداً بالخبز الابيض) . فكثافة السكان في الريف يمكن اعتبارها على شيء من الشدة في عام ١٨٥٠ ، اذا ما قارناهـا بنسبة المحصول . ولما كان معدل الوفيات لا ينخفض الا قليلا او انه يبقى على حاله ، فقد كان من المتوقع ان ترتفع هذه الكثافة على اقدار ملحوظة لولا حركة نزوح السكان الى المدن او هجرتهم خارج اوروبا .

ومهما يكن ، ولكي يتجنب الفلاح النتائج الوخيمة التي كان لا بد ان يفضي اليهـا ازدياد السكان ، كان عليه ان يبقى حيث هو ويعمل عـلى زيادة موارده ، او ان ينزح عن ارضه ويرحل بعيداً .

فهو لن يتخلى عن ارضه بملء ارادته . ولذا نراه على شاكلة من تقدمه من السلف الراحل ، كثيراً ما يؤجر خدماته . فالهجرات الفصلية او الموسمية ازداد الاخذ بهـا بفضل طرق المواصلات والنقل الميسرة ، وهي هجرة تسببها دورياً الحاجة لليد العاملة ، في هذه المزدرعات الضخمة ، في بعض المواسم الفصلية ، كالقمح والكرمة . فمواسم الحصاد في سهل *Beauce* يجتذب اليه عدداً كبيراً من الحصادين يأتون من بين سكان مقاطعة بريتانيا او من البلجيكيين. كما ان هذه المواسم في مقاطعة الساكس تجتذب العديد من البولنديين للعمل فيها . والانسان لا يتردد عن ركوب البحر اذا ما دعاه داعي الهجرة الى ذلك . فها هو الاسباني والبرتغالي والايطالي ينزحون الى اميركا الجنوبية اثناء الشتاء الشمالي للعمل فيها خلال فصل الصيف ، فوضع العامل الفصلي او الموسمي ليس فيه قط ما يرغب او يشوق . فأيام الشغل عنده مضنية ، مرزحـة ، بينما يبقى عاطلا في ما تبقى من ايام السنة . وهكذا يساعد ذويه ويؤمن لهم اسباب العيش ، كما ان الملاك الرأسمالي يستثمر الى اقصى حد في مزارعه هذا الرديف الآني من اليد العاملة .

وهكذا ترى كيف ان المجتمعات الريفية اخذت بالتفكك والانحلال في اوروبا الوسطى بينما ينصرف صاحب قطعة الارض الصغيرة للاستدانة في سبيل استثمارها وتوسيع نطاقها . أما في المانيا فالاسر التي يعمل بعض افرادها في الزراعة ، اخـذ عددها بالتناقص بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ بينما يزداد ، من جهة اخرى ، عدد الاجراء والخدام العاملين في المزارع . ففي جنوب انكلترا حيث الاستثمارات الضخمة تشغل ٨٠ بالمائة من مساحة الارض ، نرى تيار الهجرة فيها يجرف عدداً اكبر مما يجرف في الشمال . والهجرة اشتدت في شرقي المانيا أكثر منهـا في غربيها ، ولكي تحد الحكومة من تيارها الجارف فرضت النظام المعروف عندهم *Rentenguter* الذي يقضي باقطاع العمال المياومين أراضي بموجب عقود خاصة تخولهم استثمارها. وهذا التدبير اتخذ مثله في كل البلدان التي تقوم فيها املاك واسعة للدولة كما اصاب ايرلندا وشبه الجزر الواقعة الى الجنوب من اوروبا على البحر الابيض المتوسط ، والبلاد الاخرى الواقعة الى الشرق من اوروبا. فاذا ما راح ملاك كبير يفرز ارضه قطعاً صغيرة للاستثمار اجتذب اليه عـدداً من الفـلاحين المزارعين ، فأدى ذلك بقسم من الـ *Pntza* المجربة الى انشاء عدد من القرى الجديدة قامت حول

مزارع معزولة عرفت عندهم باسم *tanyos* عمرها اقوام من غاليسيا وآخرون من سلوفاكيا . اما تلك المناطق الجبلية كجبال الالب وسلسلة الجبال الوسطى حيث وصلت عملية احياء الاراضي الموات الى حدود المناطق الزراعية فقد عادت عليها هذه الحركة بالحيف والخسارة لصالح السهل ،

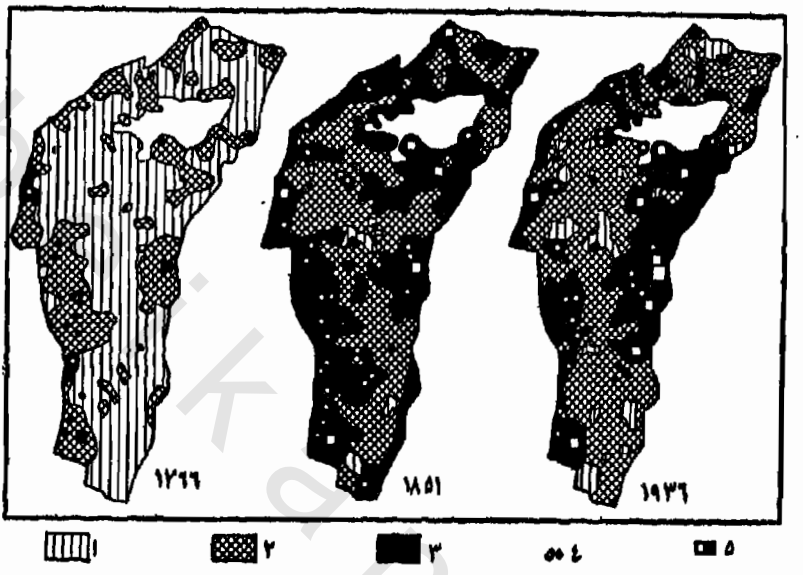

شكل رقم ١٦ ـ كثافة السكان الزراعيين في ألزاس السفلى

١ ـ اقل من ٧٥ نسمة في الكيلومتر المربع، ٢ ـ من ٧٥ ـ ١٥٠ نسمة ، ٣ ـ اكثر من ١٥٠ ، ٤ ـ مجمعات سكنية تعداد سكانها اقل من ٥٠،٠٠٠ ، ٥ ـ مجمعات سكنية تعداد سكانها اكثر من ٥٠،٠٠٠ .

الى الغرب : منطقة الكروم وكوشيرسبيرغ . الى الشمال : منطقة هاغنو وغابتها . الى الشرق : منطقة الريد على طول نهر الرين .

يلاحظ التزايد الفلاحي حتى منتصف القرن ثم الجنوب الذي مارسته ستراسبورغ ومنطقتها .

(نقلا عن جوبيار الحياة الفلاحية في الزاس السفلى ، ص ٣٢٩) .

اذ راح المزارع الفصلي يستقر فيها بعد أن اطمأنت نفسه الى ظروف العيش المؤاتية . فمنطقة الـ*Velay* مثلا كانت في وضع أخف من غيرها ، اما في ضواحي مدينة سانت أتيان ، فالهبوط لحق بالاخص المقاطعات الريفية حيث اخذت تنشط صناعة صغيرة للتعدين ، بينما الصناعة الضخمة تقتل الحرَف المتشتت بعضها عن بعض كما انها تستقطب اليد العاملة المتوفرة .

هذه التغييرات السكانية انما تشير صراحة الى المساوىء التي يتأذى منها الريف. فاذا ما أدت حركة النزوح هذه الى التخفيف بعض الشيء من الضغط الذي يحدثه اكتظاظ السكان على وضع إقتصادي محدود النشاط ، فقد اضطرت طبقة الفلاحين التي بقيت ملازمة للارض للاخذ باصلاحات جزرية تساعدها على قهر الصعوبات التي تتعرض لها والتحكم بها .

تطور التقنيات الجديدة واستثمار أصلح للارض

من المبادىء التي تعتمدها الهندسة الزراعة وتنهض عليها هي ان الزراعة مظهر من مظاهر الصناعة ووجه من وجوهها المتعددة ، تخضع مثلها لمقتضيات العلم والتقنية . فعلم النبات وعلم الحيوان، والاقتصاد الزراعي اساسها كلها العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية وعلم الاسواق بما تقوم عليه من فنون التسويق والتنفيق . ولذا انتشر التعليم المهني وذاع . ولا شك ان رأس المال لعب هنا دوره البارز بحيث ان الفلاح المتعلم هو على الغالب ملاك ، ينعم ببعض الثراء . ولكي يتخلص المستثمر الصغير من المصاعب التي يعاني منها ، كان عليه ان يتغلب على ما طبع عليه من روح فردية وان يبرهن عن استعداد للعمل بروح تعاونية . فالمفارقات تبقى كبيرة ، واضحة بين من يرسفون في قيود العادات القديمة البالية ، وبين من اخذوا باسباب التجدد، يجاهد الفريق الاول منهم ويناضل في ظروف وصروف غير متساوية مع الجهود التي يبذلون . فليس بغريب قط ان تلعب سنة الاصلاح وقانون الاكفأ لعبتها المعروفة هنا ايضاً .

ومن جهة اخرى فهذه الاقطان والاراضي الزراعية القديمة في اوروبا لا تصلح جميعها على السواء للاجهزة الميكانيكية . فقد تركت فرنسا المانيا تبزها في هذا المضمار وتتجاوزها بعيداً . فقد كان لالمانيا عام ١٨٨٠ من الحاصدات الميكانيكية ١٢ ضعفاً مما كان لفرنسا منها ، وضعفان من الدراسات التي تعمل على الخيل ايضاً . فبلدان اوروبا الشمالية ، تتبنى قبل غيرها من البلدان الاوروبية الاخرى المماخض الآلية ، لان صناعة الالبان فيها اصبحت موضوع عناية وتخصص مستمرين .

فاذا ما اخذت الزراعة بالتقهقر في هذه الاراضي المرتفعة الواقعة على سفوح الجبال بعد ان تخلت عنها يد الانسان العاملة ، فالاعمال المتعلقة باحياء الاراضي الموات تتقدم باطراد مستمر . وعلى هذا هبطت في فرنسا مساحة الاراضي البور بين ١٨٨٢ - ١٩٠٨ من ٦،٢٠٠،٠٠٠ الى ٢،٨٠٠،٠٠٠ هكتار . وحلت الاراضي الحرجية محل الاراضي السبخية في محافظة غسكونيا. كما ان اعمال تجفيف الاراضي تسير على قدم وساق في مقاطعات سولوني والبراين والدومب ، خلال الامبراطورية الثانية التي قامت ببناء سدود في مقاطعة «كامارغ»، وبذلت جهوداً جبارة باستمرار لاستصلاح الاراضي المنخفضة عن سطح البحر (*Polders*)، واستخلاص بطون المناجم من رواسب المياه وابتنزاح الرمال من هذه الاراضي الممتدة من مقاطعة با دي كاليه الى مشارف سكندينافيا . ومثل هذه الجهود تخصص لمقاطعة كمباين ، ولهذه السهول المنبسطة التي تمتد على شواطىء هولندا والمانيا، واراضي الجوتلاند والسويد السيئة التصريف. وانفرس تستعمل نفاياتها وقامتها المنزلية لتسميد السبائخ الواقعة على مقربة منها ، فتعطي مواسم طيبة من الخضراوات والبقول ، ومواسم طيبة متأخرة القطوف من البطاطا ، واعمال تصريف المياه، واقامة السدود والحواجز المائية تفتح لزراعة الحبوب ، مساحات واسعة من اراضي المجر التي كانت معرضة من قبل لطغيان المياه . اما في ايطاليا الشمالية ، فقد استعملت اقنية الري على نطاق واسع بحيث استطاعت قناة كافور ان تروي ٢٠٠،٠٠٠ هكتار من الاراضي الزراعية ، كما انه وضع

فيها برنامجاً واسع النطاق لاستصلاح الاراضي شمل كل انحاء الجزيرة الايطالية. ومشكلة التشجير هي موضوع اهتمام الجميع منذ ان تبينوا الاخطار التي تتهدد التربة من جراء تعرية الارض من الشجر وتعرضها للانجراف مع المياه المتدفقة شتاء من سفوح الجبال نحو البحر .

كذلك بذلت عناية كبيرة لتحسين قدرة التربة على العطاء والانتاج . فالعهد الذهبي الذي عولوا فيه على سواد الغوانو والذي يقع بين ١٨٥٠–١٨٨٠ ولى وأدبر لتحل محله مخصبات جديدة طلعت علينا بها الكيمياء الحديثة جاءت مسعفاً كبيراً للسواد الحيواني . واستعمال السماد الكيماوي الذي نجح نجاحاً باهراً في هذه الناحية ، كان فعله بطيئاً في نواح اخرى ، مما اتاح للفلاح مردوداً اكبر وادى بالتالي الى نتائج اطيب في المحصول . وللنهوض بتربية الماشية ، عن طريق الانتخاب الطبيعي والتأصيل ، واستيلاء عروق جدية ، ومكافحة الاوبئة والجوائح الحيوانية فقد نصح خبراء الزراعة بالتعويل على تسميد الارض بالسواد الطبيعي ، واعتماد انتخاب افضل في الحيوانات الداجنة ، وتأصيل في النبات ، وكلها ذرائع ووسائل علمية ادت الى محصول اطيب في البطاطا مثلا اذ اعطى الهكتار الواحد في المانيا ٢٠ طناً عام ١٩٠٠ ، لقاء سبعة اطنان ونصف في فرنسا ، واعطى محصول الشمندر ١١٪ من المادة السكرية بدلا من ٧٪ . كذلك بذلت عناية اكبر في عمليات التطعيم والدرخ ، كما اشتدت اعمال المكافحة ضد الامراض الطفيلية في النباتات اللازهرية ، وهكذا تغلبت زراعة الكرمة على مرض الارمداد ومرض العفن الفطري وعلى الفيلوكسيرا.

فكيف السبيل بعد لتطبيق هذه الاكتشافات وفقاً للبيئات الجغرافية ؟ فاذا ما اقتصرنا على المساحة ، فالمسائل التقليدية لا تزال هي المسيطرة حتى الآن . فالطريقة الزراعية القديمة المتعددة المزروعات ، وهي الطريقة التي تمليها الغريزة والحكمة ، وذات المردود الضعيف ، تصمد في كل مكان وتقاوم تيار التجديد. فهي تلائم تماماً نشاط صغار الملاكين ، وهذا الفلاح الذي لا ارض له ولا املاك ، لا يقبل التخلي راضياً عن العادات والاعراف المعمول بها في مجتمعه والمعول عليها في بيئته. ففي الجنوب الاوروبي ، يتألف معظم الريف مما يعرف عندهم بـ *Saltus* اي من اراضي للرعي تجاور ما يعرف عندهم بالاراضي الصالحة للزراعة التي درجوا في استثمارها وفقاً لنظام التحويل الزراعي . كم هو كبير عدد البلدان التي تمتد حلقاتها من البلدان السكندينافية حتى سلسلة جبال شيارا مورينا في اسبانيا وفي البلقان ، اصبحت عملية الاحتشاب عندهم من ذكريات الماضي البعيد .

والعلاقات في الحياة والاتساع الذي تتخذه في المجتمع هي التي تعمل على تعديل ذهنية ابن الريف . والعلامتان الفارقتان اللتان لا تدعان مجالا للشك هما التخلي عن نظام الدورة الزراعية وفقاً لما درجوا عليه منذ القديم ، والعزوف عن تعاطي زراعة الحبوب وتربية الماشية . ففي هذا انهاك للارض من جهة يوجب الركون الى تسميدها ، ومن جهة ثانية ضمان نجاح التخصص وترسيخ لاصول الزراعة الاحادية ، مع العلم ان نجاح تربية الماشية يستدعي استبدال عملية

الـ *Emblavure* بالعشب وزراعة النباتات العلفية والبطاطا التي تحل بشكل اجدى وانفع محل الارض البور . فبعد الفصل بينهما، تختار كل من زراعة الحبوب وتربية الماشية، الاراضي التي تلائم بالاكثر ، كل واحد منهما . وتربح الواحدة منهما ، من حيث الانتاج والمحصول، مـــا تكون خسرته من المساحة ، بينما يسجل الثاني ازدهارا اكبر . وهذا الانفصال الارضي يعود بالخير على زراعة الكرمة والحدائق وبساتين الخضرة . غير ان الفصل يستدعي تبادل الخدمات ، والاخذ بنظام يرمي لتقديم الانتاج الزراعي الذي له قيمة اكبر من الوجهة التجارية . فالاكتفاء الذاتي يعني ان تنتج البلاد ليس كل ما تحتاج اليه ، بل القدرة على تأمين ما لا تنتجه البلاد بسعر منخفض . فكل بلد يحدد نوع الاختصاص الصالح له حسبما يحدده علماء الاقتصاد الحر . فبعد ان عززت انكلترا عن تأمين حاجتها من الحبوب محليا لتحصر جـل نشاطها الزراعي بتربية الماشية ، فقد كانت اول بلاد تقوم بمثل هذا الاختيار ، وهو تصرف لم يلبث ان حذا حذوه كل من هولنـــدا وسكندينافيا وسويسرا ، والدول الاخرى التي لا تتوفر لهـــا امكانات اكبر كفرنسا مثلاً تركت لمختلف مقاطعاتها ومحافظاتها ان تختار على ضوء مصلحتها وحاجتها ، نوع النشاط الزراعي الذي يلائم طبيعة تربتها . فالكرمة تنوعت نصوبهـــا ، وتلونت عروقها في الجنوب ، حيث جاءت التجربة تثبت بانه من المقاطعات الواقعة على الساحل الغربي ، لا يمكن ان يعول عليها لتأمين البواكير في انتاج الثمار . والسهول الغرينية اثبتت صلاحيتهـــا لانتاج الحنطة والشمندر فنشطت ، في المقاطعات الجبلية ، تربية الماشية ، وهو نشاط تتقاسمه مع السهول الرطبة. فالخط الحديدي والملاحة يسهلان نقل المحاصيل التي تعطي البلاد مردوداً طيباً . فالمدينة هي التي تنظم وتقني حركة المبادلات . فهي تشتري لتبيع ، وتمد الريف بالآليات الزراعية وتقدم له كل مـا لا يستطيـع توفيره او صنعه .

التطور الزراعي يتوالى بين مواسم خصبة وسنون عجفاء

ترتبط الثورة الزراعية ارتباطاً وثيقاً بتقلبات طويلة الامد، بعيدة المدى. فقد عقد الريف سنة ١٨٥٠ ، آمالاً طيبة على المواسم ونشطت بالتالي الحركة في المدن كما زاد فيها النشاط التجاري . فالاستهلاك، ازداد ووسائل النقل الجديدة سهلت عملية مد الاسواق المحلية بحاجاتهـــا الاولية. وقد صحب ارتفاع الانتاج الزراعي، ارتفاع عام في الاسعار[1]. ومع ازدياد انتاج الارض ارتفعت بالتالي قيمتها التأجيرية . ففي فرنسا ارتفعت قيمة الاملاك بين ١٨٥١ – ١٨٧٩ ، من ٦٠ مليار فرنك الى ٩٠ ملياراً، كما ان ريع الارض ارتفع في المدة ذاتها ، من ٧٠ – ٨٠٪ . وفي بوسنانيا تضاعفت قيمة الفدان الواحد بين ١٨٥٧ – ١٨٧٠ كما ارتفعت اربعة اضعاف في بروسيا الشرقية . وتحسنت جداً الأساليب الزراعية ، واستطاع مزارعون كثيرون ان يؤمنوا وفـراً طيباً لهم. فنحن في صميم هذه الحقبة التي تواجه فيها بلدان اوروبا الوسطى زوال النظام السيادي

(١) راجع الكشف البياني ص ٨٩

عندما راح العهد القيصري يلغي عبودية الارض . وحركة نزوح طبقة الفلاحين التي اخذت اذ ذاك بالاشتداد ، اثارت شيئاً من الارتياح ، بين العديد من الاسر . وهكذا ساهم قسم كبير من الريف في شبكة المبادلات والمقايضات ، مع العلم ان منافسة الدول التي طلعت حديثاً لم تكن بعد شعروا بها بصورة ملحوظة .

وقد اكفهر الجو بعد عام ١٨٧٥ . فازدادت الصادرات الاميركية ، والروسية ، كما أن المنافسة الدولية احدثت هبوطاً في الاسعار : الا ان البلدان التي كانت تنتج كثيراً في سبيل التصدير تضررت بنسبة البلدان الاخرى التي تسير على النهج القديم. وقد انخفض مدخول الارض في فرنسا ٣٠ ٪ في هذه الفترة الممتدة بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ ، و ٦٠ – ٧٠ ٪ في هذه المناطق التي تعول على زراعة الكرمة التي فتكت بها آفة الفيلوكسيرا . وقيمة الارض نفسها هبطت من ٥٠ مليارا الى ٣٠ مليارا في بريطانيا العظمى ، بين ١٨٧٥ – ١٩٠٠ ، في هذا الوقت بالذات الذي ارتفعت فيه قيمة بيوت السكن من ٣٥ – ٦٥ ٪ .

واستمر التطور السابق في سيره الصاعد وزاد بنسبة الميل الى الهبوط . ونشطت حركة الهجرة في الريف والنزوح منه ، وهي حركة لم تقتصر على ايرلندا وبريطانيا العظمى ، بل تعدتها الى بلدان اوروبا الوسطى واقطار اوروبا الجنوبية والشرقية على السواء. فالمزروعات التقليدية ، وفي الدرجة الاولى منها الحبوب ، سجلت خسائر كبيرة اضطر معها المزارعون ، اكثر مما فعلوا في الماضي ، الى تحسين طرق استثمار الارض باستخدامهم وسائل وادوات جديدة للحصول على انتاج اكبر : وهكذا انصرفت العناية للمزروعات التي تؤمن مردوداً اكبر :كمية اصغر من القمح ومقداراً اكبر من اللحم وكمية اكبر من الهكتولترات في الهكتار الواحد . وتم الفصل تماماً ، في هذه الحقبة بين الحبوب وتربية الماشية . فقد استحالت مساحة ١٦،٠٠٠ كيلومتراً مربعاً من الاراضي الزراعية في انكلترا الى مراع . فقبل عام ١٨٥٠ ، كانت بلدان اسكندينافيا تبيع مواسمها من الحبوب لتشتري اللحوم . ولكن منذ عام ١٨٩٢ لم تعد تنتج سوى نصف ما كانت تنتجه من القمح ، وثلاثة محصولها من الشوفان ، الا انها ضاعفت عدد الماشية فيها ، واخذت تصدر الزبدة . وقام الدانمارك بثورة جزرية في اقتصاده الزراعي ، وارتفع الى البلدان الطليعة في تربية الماشية . وسويسرا اتجهت هي الاخرى نحو مصير زاهر للمراعي الجبلية. وايرلندا نفسها حققت تقدماً محسوساً في هذا المضمار بعد ان تخلت عن زراعة الحبوب لتشجيع المروج الخضراء والمراعي للماشية وبيعها من الانكليز. وتخصصت هولندا بانتاج المواد الغذائية ذات القيمة الغذائية كالحبوب وانواع الجبنة والزبدة والزهور . فالحدائق والبساتين تقام بسرعة في الجنوب بينما تهدد الكرمة جوائح طارئة . فبلدان اوروبا الوسطى وغربيها هي التي اخذت ، على الاجمال، بأسباب حركة التكييف والتنسيب هذه ، بينما لا تزال الاقطار الشرقية منها في طور زراعة الحبوب .

وهذا لا يعني قط ان الجهود المبذولة لتأمين حركة التطور ودفعه الى الامام كانت كافية .

فالازمة تصيب بالاحرى هذه المناطق التي لم يطرأ تبدل يذكر على نمط العيش فيها . وبفضل هذه الغريزة التي رُكبت فيها بالفطرة ، اخذت الطبقة العاملة في الزراعة تلتمس من الدولة حمايتها. فسياسة الحماية الجمركية ليست بعلاج بحد ذاتها . فهي ليست باكثر من مسعف آلي – اذ تفسح امامهم الامل بتحسين الاسعار . ومع ان هذا التدبير له كل مساوىء الخدر الوقتي ، فلم يكن بوسع الحكومات الا النزول عنده . ومن جهة ثانية ، فقد اخـــذ قسم من سكان الريف بمبدأ تأليف التعاونيات ، كما اخذ قسم آخر – ولا سيما هذه البروليتاريا العاملة في الحقل ، بمبـدأ النقابية .

الملكية الضخمة : امكاناتها ومساوئها

ليس بمستبعد قط ان ملاكاً من اصحاب الاقطان الكبيرة تتوفر له الدراية الكافية ولديه الوسائل الكفيلة ، من راس المال واليد العاملة الرخيصة ، ان يأتي في طليعة حركة التجدد هذه ، فيأخذ ، كما حدث لآل بولزني في ايطاليا ، باستصلاح جانب من السهل الالمـــاني وسهل المجر . والمألوف عموماً هو ان يؤجر ارضه حصصاً لقاء نسبة من ريع الارض وغلتها . وقد ينزل به هبوط اسعار الارض ، كما حدث في انكلترا مثلاً ، ضربة مؤلمة ، كما ان الاجراءات الرسمية والتدابير التي عرفت ، فيها باسم (قانون الاراضي الزراعية ، وطدت جانب المزارعين والمتعهدين الزراعيين الذين تمتعوا باحكام قانون الايجار) ، بحيث ان راس المال المخصص للاستثمار ينفصل عن الرأسمال العقاري. في سنة ١٨٩٠ ، كان المتعهدون الزراعيون يستثمرون ٢٨ مليون فدان ، في الوقت الذي كان فيه اصحاب الاقطان يستثمرون بانفسهم خمسة ملايين فدان لا غير . فالصورة المرتسمة في الاذهان تصور لنا طبقة بورجوازية تنعم في بحبوحة وارستوقراطية لا تزال تحتفظ باملاك وعقارات ضخمة جداً ، فالاراضي المرجية تعد ٦ ملايين هكتار ، درت عليها ربعاً بلغ ٣٥٠ مليون ، وفي بعض الاملاك المتوسطة الحجم بلغ الربع نحو نصف مليون). وفي ارلندا ، وضعت الازمة البلاد امام مجاعة وهو وضع اوجب على مجلس العموم البريطاني ، عام ١٨٧٠ ، سن قانون خول المستأجر حق المساومة حول قيمة الايجار دون ان يربطه ذلك بشيء. صحيح ان الفقر لا يزال ضارباً اطنابه ، الا ان تيار المهاجرة وحركة الاصلاح التي بوشر بها امران بشرا بطلوع عهد افضل طل على المستأجر الصغير الذي توصـل ، شيئاً فشيئاً ، الى ان يتحرر من الرسوم التي رزح تحتها في الماضي . ووقع في ولاية غرونتغ تطور شبيه بالتطور الذي وقع في انكلترا استحال معه المستأجر مشاركاً في الملكية . وهـذا النظام هو المعمول به في مناطق كثيرة في شمالي المانيا وشرقيها. والمطالب الزراعية التي كان على اولي الامر في الرايخ ان يعنوا بها وان يهتموا لها نمت عن المشكلات التي تخفيها ما يعرف عندهم *Junkertum* .

اما في النمسا وايطاليا وشبه الجزيرة الايبيرية ، فالاملاك العقارية الضخمة كانت تتسبب في اطالة البؤس والاضطرابات في البلاد . فالكنائس والاديار وابناء الارستوقراطية العلمـــانية لا

يزالون يتمتعون بسيطرة مقيته ، منفرة ، مرزحة قلما تتيح لهذه الطبقة المتخلفة من الفلاحين والمزارعين فرصة لتحسين اوضاع معيشتهم .

ففي هنغاريا ١٠ ملايين هكتار من الاراضي الزراعية ، الخصبة هي في قبضة ٢٣ ٠٠٠ من كبار الملاكين . بينما ١٬٢٤٠٬٠٠٠ هكتار يتقاسمها ١٬٢٧٩٬٠٠٠ من صغار الملاكين. فقد حاز احد امراء استربازي وحده ٢٣١٬٠٠٠ هكتار كما حاز احد امراء آل فستتيك ٨٨٬٠٠٠ هكتار ؛ هنا زرائب واكواخ مبنية من قوالب اللبن ، مغطاة بالقصب ، وهنالك صروح وقصور باذخة ، فخمة يقطنها عظماء البلاد . وفي مقاطعة بوكوفينا نرى ٤٬٧٪ من مجموع مساحة الارض يملكها ٢٥٧ شخصاً وان ٢٦٪ من هذه المساحة موزعة بين ١٩١ ٠٠٠ ، بينما في ترانسلفانيا ٣٦٢ شخصاً يملكون ١٨ بالمئة في حين يملك ٤٬٠٤٢٬٠٠٠ شخصا ٣٩٬٦ بالمئة ويؤلف المرابعون في ايطاليا مع العمال المياومين، السواد الاكبر من الشعب الايطالي. فايطاليا لا تعد من أصحاب الاملاك سوى ٤٠٠٬٠٠٠ بينما سويسرا تعد ٣٠٠٬٠٠٠ من الملاكين. فصاحب الارض يؤجر أرضه عادة ، حصصاً صغيرة بموجب صك ايجار ينص على اقتسام الارباح والخسارة *Mezzadria* او *Boaria* ، ما لم يلزمها الى متعهد عام يستأجر لها اليد العاملة الرخيصة . ففي مقاطعة توسكانا ٩٣٬٧٪ من الاراضي المستثمرة، لا تزيد مساحة القطعة الواحد عن ١٠ هكتارات ، وهي تمثل ١٩ بالمائة من مجموع الاراضي الزراعية في البلاد ؛ بينما ٢١٬٦ بالمائة يملكها ٠٬١ بالمائة من الملاكين، و ٣٢٬٤ بالمائة يملكها ٢٬٠ بالمائة. والصورة تكاد تكون مماثلة في كل من اسبانيا والبرتغال . فالعقارات التي تبلغ مساحة الواحد منها ١٠٠٠ هكتار توازي من ٥٠ – ٧٠ بالمائة من مساحة مقاطعات اسبانيا الجنوبية (أي بمعدل ٣٠٠٠ لـ ٢٤٨ شخصاً بينما يصيب معظم المزارعين ٣ هكتارات للشخص الواحد . فالقانون الاسباني الذي صدر عام ١٨٨٩ يؤثر التعامل مع الملتزم الواحد بحيث يسهل الدفاع عن مصالحه من جراء هبوط الاسعار مثلا ، والقوانين التي تسهل مبدئياً حق التملك بقيت بالاحرى حبراً على ورق . وقد نجم عن هذا كله ، كما حدث في ايطاليا ، اضطرابات مزمنة تسببت في حركة مهاجرة واسعة النطاق .

تطور الملكية الصغيرة ومشكلاتها والاستعمار المباشر

حطمت الفردية في النظام الزراعي ليس المجتمع القروي فحسب بل ايضاً هذا الطوق الذي وضعه حول عنق المستثمر اصحاب العقارات الضخمة . من الامور المرعية الاشادة بحسنات الملكية الصغيرة التي تكسب اكثر من استثمارها الارض مباشرة . الا ان صغر القطعة الزراعية وتشتتها قد يولدان شيئاً من الضآلة في المواسم يجعل نظام الاستثمار مهدداً بخطر الزوال. ان استملاك الارض من قبل من يستثمرها بقي عرضة للطوارىء اذ لم تكن المراحل التي عرفها هذا النظام متشابهة بين بلد وآخر . فالايجار الدائم او صيغة شريك في الملك كثيراً ما افضيا الى وضع قد لا يختلف كثيراً عن الاستملاك. ففي سكندينافيا والدانمارك حيث عقب عملية توزيع الاملاك السيادية عملية اخرى قامت على تجميع هذه القطع عن طريق التسوية او المبادلة،

نال الفلاحون بموجبها القدر الكافي من الاراضي المنسية . الا ان هذه الاملاك الصغيرة الحجم او المساحة اخذت تضيق وتصغر لحاقاً ، عن طريق الارث والتوزيع المتعاقب بحيث اصبح وضعها وضع اراضٍ اشتدت حولها رغبة الطامعين بها. فقد رأينا كيف عرف صغار المستثمرين في انكلترا الذين لا تزيد مساحة ارض الواحد منهم عن ٢٠ إيكر (٨ هكتارات) بالاكثر ان يتفادوا الطوق الذي حاول فرضه عليهم النظام الاقتصادي المعروف بنظام الامتلاكية واصحاب المزارع الضخمة، يملكون نصف الوحدات الزراعية اي ما لا يزيد على ٦ بالمائة من مساحة الاراضي الزراعية . فاذا ما اعتمدنا اساسا الاصلاح الفرنسي لعام ١٨٨٢ ، نرى ان المزارعين كبارهم ومتوسطهم يملكون معاً ثلاثة ارباع مساحة الاراضي الزراعية ، بينما ملايين من صغار الفلاحين يملكون الربع لا غير . وهكذا يشتط بعيداً من يقول او يعتقد ان ارض فرنسا الزراعية هي بتصرف صغار الفلاحين ، بل الاصح والاقرب الى الصواب القول في انها تخص في غالبيتها الكبرى ، الملكية المتوسطة ، اذ ما وضعنا في هذا الصف المزارع التي يتراوح حجمها بين ١٠ — ٥٠ هكتاراً . فمن اصل ٥ ٦٧٢ ٠٠٠ مزارع ، هنالك ٢ ١٧٦ ٠٠٠ يملك الواحد منهم اقل من هكتار من الاراضي الزراعية . ولما كان عدد القطع الزراعية في البلاد يبلغ ١٢٥ ٢١٤ ٠٠٠ قطعة ، فالمعدل الوسط للقطعة الواحدة يتألف من ٣٩ آراً . ومثل هذا التوزع والتشتت انما يعني ان عدداً كبيراً من المزارعين كان يعاني الضنك الشديد ويضطر بالتالي للقيام بعمل اضافي .

الغنى والفقر في قلب طبقة الفلاحين

ليس من طبقة ريفية اليوم كما في الماضي بل طبقات ريفية تتباين فيما بينها من حيث الوضع العام ونمط العيش .

فاذا ما اقصرنا الكلام هنا على فرنسا ، مثلا ، هل يصح لنا ان نأخذ بعين الاعتبار بعض التأكيدات العامة ؟ ففي عام ١٨٧٠ ، يؤكد بيغوي ان اي رعوية عادية كانت الف مرة اقرب الى رعوية من القرن الخامس عشر او من القرن الخامس او الثامن من اي رعوية في يومنا هذا » . ولنصغ الى ما يرويه لنا الاب « تيانون » بعد ان رسم اميل غيومين لنا صورة قاتمة عن حياة النكد التي يحياها المرابع ، وذلك في كتابه الموسوم : « حياة أحد البسطاء » ، فيقول : « قوتنا خبز الشوفان المجروش ، لونه لون السخام ، يجرش تحت الاسنان كأنه ممزوج برمل خشن من هذه الرمال التي تسقيها السواقي . وهم يؤكدون لنا ان ترك النخالة في الطحين تزيد من خاصيته الغذائية . اما الحساء او الشوربا فهو اللون والصنف الرئيسي : شوربا البصل صباحاً وفي المساء، اما عند الظهيرة فشوربا البطاطا مع الفاصوليا والبقطين مع لحسة من الزبدة . اما شحم الخنزير ، فلون نادر جداً وصنف يترك لايام الاعياد المعدودة .

« ويضاف الى هذه الالوان احياناً بعض المقالي التي يصعب مضغها بحيث تغرز فيها الاسنان ولا تستطيع الخلاص منها بسهولة ، وبطاطا مشوية تحت الرماد ، وفاصوليا مسلوقة يضاف اليها

كمية قليلة من الحليب يكاد لا يتغير لها معه لون » . ومع هذا أفلا يجوز لنا ان نجاري جوريس في تساؤله : « كيف يتدبر هذا الفلاح امره من موسم الى آخر، في عمل هو هو، واسعار محاصيله دوماً في هبوط، وهذه الديمومة في عمل روتيني، وتدني سعر قمحه وسعر ماشيته، وتبيذه ومحصوله من القنب ، ومن الزبيب والحليب ، وأمام هذا الجفاف ، والقحط ، وهذه الضربات المتتالية ، لا يستسلم لحكم القضاء والقدر، استسلامه له امام هبوط البرّد وهبوب العاصفة واشتداد الجفاف، ومع ذلك فهو يشعر ببعض التعزية « لاول مرة في حياته لمشاركته حياة المجتمع » . علينا ان نقر ونعترف ، مع ذلك ان الفلاح ، كان غذاؤه على وجه العموم، احسن مما قرأنا له من وصف . فخبزه اكثر بياضاً . فقد ازدادت كمية البطاطا التي يتناولها كما ازدادت كمية النبيذ التي يشتريها ، او الجعة او شراب التفاح الذي يشربه حسب ظروف المكان. فهو الآن يتناول القهوة ويستهلك السكر ويأكل اللحم اقله مرة في الاسبوع وفي ايام الاعياد . الغذاء عنده اوفر حجماً وكمّا منه نوعاً وصنفاً . وشبح المجاعة تضاءلت اسباب ظهوره واوضاع سكنه تحسنت قليلا . فاذا ما قلت رؤية الغرفة الواحدة سكناً للعائلة الواحدة بكاملها ، فلم يكن ، مع ذلك من النادر قط ، ان نرى اهل الدار يتقاسمون مع ماشيتهم بيتاً واحداً هو مسكن واسطبل معاً يفصل بينهما حاجز رقيق. وشيئاً فشيئاً ، فقد حل القرميد محل القش على السقف ، وكابوس الحريق لم يعد المفزعة التي ترزح كابوساً على صدر العائلة . وقبل ظهور الكهرباء لم يكن التنوير شيئاً عملياً ومأموناً والعتمة كانت دوماً تسير جنباً الى جنب مع قلة التهوية . أما الفرش او الاثاث ففاية في البساطة ، مع ان الخزانة او الدولاب هي دائماً هنالك من طراز ما . والكرسي حلت محل الاسكملة، كما ان الناس ازدادوا اقبالا على المقصف او صوان المائدة . فالالبسة الداخلية والاسرّة اشياء اخذوا يهتمون لها والكل يراعي فيها الزي المسيطر في المنطقة على الاذواق الا ان الفلاح اخذ يتبرم من شيوع هندام ابن المدينة .

فالوصف الذي تركه لنا زولا عن فلاح قليل الكلام ، عنيف الطباع ، متأفف من نير الضرائب والقرعة العسكرية قد يبدو قاتماً اذا ما أطلقناه على هذه الفترة الواقعة بين ١٨٦٠ — ١٨٧٠ ، بينما يبدو مغالياً او مبالغاً فيه عندما يصورونه لا يلين ولا يستجيب للتطور ولا يأخذ بأسبابه ، يحمل في قلبه للارض التي هي بعنايته تعلقاً شديداً ، لين العريكة امام ممثل السلطة ، وذا طبع مستقل يجعل منه من مؤيدي السلطة المطلقة دون ان يدري . واذا كان عليه ان يخرج طوعاً واختياراً من عزلته وان ينزل للمدينة ليبتاع منها ما هو بحاجة اليه ، ساعده ذلك على اثارة الفضول فيه ، وراح يشعر ، ولو بصورة غامضة ، بالحاجة للتحوط ضد طوارىء الحياة[1] .

---

(١) ما هي بالفعل نسبة ارتفاع الاجر لدى سكان الريف ؟ فالعامل في الزراعة كان يقبض في اواخر القرن الثامن عشر في انكلترا تسعة فرنكات في الاسبوع ، و ١٢ فرنكا حوالي ١٨٥٠ ، و١٥ فرنكاً حوالي ←

فبينما يرى البعض ان العامل في الارض هو من هذا الفريق الذي يـــذهب فريسة القوي ، ويرى غيرهم بأنه حليف قوي في وجه الديماغوجيين، فهو ينظر نظرة تقدير للنظـــام التمثيلي ويؤمن بسحر ورقة الاقتراع التي يطرحها في صندوق الاقتراع. فاللعبة السياسية لم يعد في مكنتها تجاهله قط .

١٨٨٠ . اما في فرنسا فكانت اجرته في السنة ٤٠٠ فرنك عام ١٨٤٠ و ٨٠٠ فرنك عام ١٨٨٠ . اما اجر خادم في مزرعة فكانت اعلى اجرة العامل اليومي غير الممون او المكفى . فالاجر في الريف دون مـــا هو عليه في المدينة ، ووضع المرأة في كلا الحالين مجحف جداً بحقها ، اذ كان معدل الاجر الذي يدفع للعامل في الحقل ، عام ١٨٨٢ ، هو ٢٠٢٢ فرنك للرجال و ١٠٤٢ فرنك للنساء العاملات في الحقل ، بينما يدفع للعامل ٣٠٥٨ فرنكات وللعاملة ١٠٧٧ فرنك في المدينة . ومع ذلك فكنتال القمح كان يساوي ثمنه معدل ١٦٠ ساعة عمل للعامل عام ١٨٤٠ ، بينما لم يكن يكلفه سوى ٧٠ ساعة عمل ، عام ١٩٠٠ .

obeikandl.com

الفصل الرابع

المدينة المتحررة
بين القوى المحافظة والاشتراكية

« لا بد للحرية من العقل »
ادمون بينو - « مساوىء التربية والتعليم العام »
كاديس ١٨٦٧

الدول القومية وعبادة القومية

اوروبا في القرن التاسع عشر هي مجموعة من الدول تنهض كلها على اساس قومي وطني ، ولم يبق فيها سوى وضع جغرافي واحد اساسه اسرة وراثية تتعاقب على الحكم هي اسرة آل هبسبورغ ، التزمت لها سياسة قامت على التنازلات إرضاء للقوميات المختلفة التي تألفت منها . فآل رومانوف يعتمدون بالاحرى الشعور القومي الروسي لتدعيم امبراطوريتهم بينما تنعي تركيا عجزها عن إضرام شعلة الوطنية الخافتة في البلاد . فقد تبدى لاحرار البورجوازيين ان الأمة هي مشاركة شعور ومصالح متبادلة واحترام حقوق الانسان والمواطن. ويقابل الانتساب الحر الى الأمة رابطة الدم الواحد والتفكير الواحد الذي يوجب على افراد المجتمع الواحد ان يعيشوا معاً. إن اقتطاع الالزاس وقسم من اللورين ، عام ١٨٧١ دليل كاف على بطلان الاحتجاج بالحق التاريخي دون ان يثير ذلك عاصفة من النقد والجدل .

كل شيء يدعو لبعث الشعور القومي بين افراد الشعب الواحد: المدرسة والتجنيد الاجباري وخدمة العلم وتطور طبيعة العلاقات التي تشد اجزاء الوطن الواحد بعضها الى بعض ، ووحدة النمط في العيش والنهج المشترك في الحياة . فعظمة الوطن وجماله هما من هذه الموضوعات التي تهم الشعراء وتهم رجال الفن . فالقصص التاريخي الوطني ينشط ويروح الشعر يتغنى بهذه الامجاد والذكريات الوطنية المشتركة . والموسيقى تستلهم انغامها من هذا الادب الشعبي الذي

يلهب القلوب والعقول معاً ، ويصبح التاريخ معيناً للتوكيد ان الماضي يهيء الحاضر ويبرز الايمان بطلوع مستقبل زاهر امام الامة . والروح القومية بفضل ما لها من شعبية تعمل على قتل الروح الاوروبية لما لها من طابع ارستوقراطي وبورجوازي . فهي اقل اخذاً بأسباب العقل ، وألصق بالشعور والعاطفة .

الاقليات وحقوقها ضمن الامة

ذاب في هيكل الأمة ما فيها من فئات خاصة وطبقات ومجتمعات دينية أو مهنية . فالتسليم العام بالوضع القائم ليس سوى شيء فكري أو عقلي . فقانون الدولة اساسه ارادة الاكثرية . وقد يقوم احياناً وضع خاص نجم عن ضغط أو التزام ما .

والاقليات الدينية هي على الاجمال أكثر الفئات الخاصة رعاية واحتراماً . فمن مبدأ التساهل الذي طلع به القرن الثامن عشر ، طلع مبدأ الدولة العلمانية اي الحيادية . فالروح الليبرالية بالاضافة الى عدم اللامبالاة الدينية من شأنها ان تجعل حياة الكاثوليك اسهل وأيسر في هذه البلاد التي تتألف اكثرية السكان فيها من البروتستانت ، والعكس بالعكس . ومع ذلك فالبرلمان الانكليزي لم يقر قانون فصل الدولة عن الكنيسة الا في عام ١٨٦٩ . وبفضل هذا القانون تم تحرير الايرلنديين الكاثوليك من تابعية الكنيسة الانكليكانية . وسياسة الفصل بين الكنيسة والدولة على مثال ما حققته اميركا لم تنتصر في فرنسا إلا في عام ١٩٠٥ .

وتحرير اليهود حركة لها مغزاها ومدلولها هي الاخرى . فقد جاءت نتيجة ، حتمية لهذا التطور الذي خضعت له فكرة المساواة ، في العالم ، وتقهقر روح العصبية الدينية ، كما ان هذه الحركة قابلت ، ارتفاع شأن الرأسمالية . فقد شهد عام ١٨٤٨ تحرير القوميات في اوروبا الوسطى ، وفي هذا الاتجاه سارت ايضاً كل من اسبانيا والبرتغال ، بينما حركة الاضطهاد الديني نشطت في الشرق من القارة الاوروبية وحركة معاداة اليهودية التي تغذيها هذه الاقليات القوية النفوذ في كل من اوروبا الغربية والوسطى ، وهذه الملايين من هؤلاء البؤساء التعسين في اوروبا الوسطى ، لم يخبُ ثارها في اي مكان . هنا دليل قوي على رسوخ بعض الاوهام في عقول الناس بالرغم من التطور الذي قطعه التحرر الفكري في العالم .

فقد عجزت لندن عن التوفيق بين وحدة امبراطوريتها وبين النزول عند مطالب الايرلنديين الحقة . فمن هذه المفارقات الصارخة ، مقاومة الشعب الايرلندي للضغط البريطاني اصبح رمزاً للتحرر بينما المضطهد المتعسف هو هذا البريطاني الذي يضرب المثل باحترامه للشخصية الانسانية . والقضية البولونية تشبه من وجوه عدة ، القضية الايرلندية : صراع دولة مستعبدة في سبيل تحرير ارضها ، وتأمين حريتها السياسية والدينية وتحقيق استقلالها السياسي ، يقابلها من الجانب الآخر مسائل تتعلق بأمن الدولة المسيطرة لتبرر موقفها المتصلب الذي لا ينهض على دليل تاريخي بل هو حجة القوي التي عرفوا ان يدعموه في الوقت اللازم ، والرايخ الذي اقتطع الالزاس واللورين ، والذي رفض ان يعيد الى الدانمارك مقاطعة الشلسويغ ، والامبراطور الملك الذي راح من فيينا وبودابست

يستخدم القومية الالمانية والمجرية لكبح جماح الاقليات الواقعة تحت سيطرته ، والقيصر الذي يرغب في لجم المقاطعات البلط ، والفلنديين والبولونيين، يحتج بسلامة الدولة وامنها ، وهو عذر سهل يبرر كل فتح . فالتناقض يبرز بين حق الاكثرية ، وبين سوء استعمالها لهذا الحق . فالدولة التي تهب عليها روح الحرية تبدو عاجزة . فسويسرا وحدها وجدت الحل المرتجى من نظام الاقضية الذي ارتضته نهجاً سوياً لها .

الابقاء على الوظيفة الملكية ومقاومة الارستوقراطيات

ولهذه الاسباب التي ذكرنا لم ينتشر النظام الجمهوري . فقد شابهت جمهورية الدوقات ، في فرنسا ، بصورة مدهشة ملكية برلمانية والملكية في بريطانيا تستعيد قسماً من شعبيتها . وعلى شاكلة بلجيكا ما كاد معظم الدول البلقانية تفوز باستقلالها حتى تولى رئاستها ملوك جاؤوا من الاسر المالكة في اوروبا .وفي ايطاليا تتم حركة التجمع والالتفاف حول الاسرة المالكة في السافوي ، كما تتم في المانيا حول اسرة هوهنزولرن . وما كادت النرويج تنفصل عن السويد حتى اقامت فيها النظام الملكي .

فعهد المشاحنات السلالية ولى وأدبر.فالملوك الذين تشدهم بعضاً الى بعض وشائج وطيدة من التزاوج والمصاهرة، أملكوا بحق الهي، كما هي الحال في كل من بروسيا والنمسا، او ملكوا بدون ان يحكموا ، كما هي الحال في كل من لندن وبروكسل ، يؤلفون من بينهم عشيرة يسودها التضامن والتعاضد ، وهي صفات تلعب دوراً رئيسياً في العلاقات الدولية .

والى كنف النظام الملكي تلجأ الكنائس التي تتمتع بامتيازات خاصة والارستوقراطيات العلمانية . فالكاثوليكية والانكليكانية واللوثرية تحترم كالارثوذكسية، التقاليد التي تقول بعضد العرش للهيكل . وهذه البلاطات الملكية ، سواءٌ اتسمت الحياة فيها بالبذخ او بالبساطة تستمر حية ناشطة . فبعد ان وقفت في وجه تجاوزات السلطة الملكية ، راحت طبقات النبلاء تطالب بقيام مؤسسة تقيها شر الديموقراطيات الساحلة.ويكفي ان نلقي نظرة عابرة الى هذا الفريق السياسي لنتبين الدور الكبير الذي تلعبه هذه الطبقات مناصفة مع كبار ممثلي البورجوازية والعاملين في خدمتها ، امثال بسمارك وهوهنلو ورصفاؤهما في كل من انكلترا ، في شخص دربي وسلسبري ، وفي فرنسا ، اقله الى بروز ممثلي « الطبقات الاجتماعية الحديثة » بطلوع غمبتا ثم بروبل وديكاز .

تطور المصالح العامة الكبرى

فالطبقة البورجوازية التي ثارت ، عام ١٧٨٩ ضد امتيازات العهد القديم وضد الاستثناءات العديدة التي كان ينعم بها ،تصدت كذلك لروح الفطرسة والاستبداد في الادارة ، هذه الروح التي لم تكن سوى اداة الدولة الحديثة في تطورها الصاعد . ولذا راح غيزو يصرح قائلاً : « ان فرنسا دولة يوجهها الموظفون ». وفي المانيا بين ١٨٨٠ — ١٩١٠ ، ارتفع عدد الموظفين العاملين في مصلحة البرق والبريد ومصالح الخطوط

الحديدية من ٤٢٥،٠٠٠ الى ٧٠٠،٠٠٠ . وراح فرنسوا جوزف يتبجح بأنه الموظف النموذجي في الدولة . ومهما بلغ من تعلق انكلترا بسياسة الحكم الذاتي المحلي ، فقد شعرت بشديد الحاجة الى موظفين يؤمنون خدمة المصلحة العامة .

هنالك مصالح تقليدية يتدبر امرها موظفو «السلك» من عسكريين ودبلوماسيين واداريين . فالسلك لا يدخله الا اصحاب الاستحقاق والاهلية ، ويقتضي ، الى جانب المؤهلات الشخصية شيئاً من اليسر المالي والثروة ، يشد بين اعضائه روح من تضامن الزمالة ، وهي روح تضمن الاستمرار ، فيها يقوم سر كل نجاح . ولذا راح الموظف الكبير يردف الرجل السياسي ويحل بديلاً عنه على رأس وزارة حكومية او على رأس حكومة كلما دعت الى تأليفها مصلحة السلطة العليا .

فالعدالة في البلاد والشرطة هي من هذه المصالح التي تقع مسؤولياتها على كاهل الدولة التي يؤول اليها مهمة السهر على السلامة العامة وحفظ النظام في البلاد الذي يفترض فيه احترام الاشخاص والحفاظ على ممتلكاتهم . فاذا ما توفر للقاضي بعض الاستقلال في عمله ، واذا ما تطور الاخذ بنظام المحكمين فقد كان لا بد من وجود هيئة عليا للامن العام يؤمن ، تدخلها المكشوف او الخفي ، الاستمرار للحكومة او سقوطها . فحوادث الثاني من كانون الاول (ديسمبر) ١٨٥١ ، يجب اعتبارها ، قبل كل شيء عملية بوليسية ، في الدرجة الاولى ، كما ان سقوط الامبراطورية في ٤ ايلول ١٨٧٠ جاء نتيجة لاقصاء البوليس من قصر البوربون . « فالنظام الادبي » يعتمد عليها قبل كل شيء ، ومدير البوليس لابين يغذي علاقات طيبة مع هذه الجمهورية الراديكالية التي يخدمها بكل اخلاص .

فالمصالح العامة في الدولة العصرية : كالبرق والبريد والخطوط الحديدية والتعليم ، تتولاها هيئة من المواطنين ذات طابع ديموقراطي لا بل شعبي ولكنهم ليسوا عيالاً على الدولة اذ ان مقتضيات الاقتصاد الحر تستلزم عدم وضعهم على نفقة الجماعة .

مشكلات التعليم العام والتعليم المهني

ومع ان الامية لا تزال البلاء الاعظم الذي يعاني منه المجتمع ، فالتعليم الالزامي لم يدخل الا متأخراً جداً في التشريعات الحديثة التي لم تدخل حيز التنفيذ في كل مكان . فالتعليم الابتدائي سجل تطوراً اكبر كما نلاحظ ، في البلدان الشمالية والمانيا وفرنسا وسويسرا . ومع تفاوت الاعتمادات المرصدة له في موازنة الدولة العامة ، فستبقى هذه المخصصات دون الاعتمادات المخصصة لاغراض الدفاع بكثير .

ومهما يكن فقد ارتفع حول المدرسة وقضايا التعليم جدل طويل وصراع مرير ارتسمت صورته في ذهنية الطبقات الادارية التي تقاذفتها تيارات مختلفة كضرورة الاخذ بفكرة التطور والتمسك الغريزي بالنظام . فبعد بستلوزي ، راح فريق من امثال لانكاستر وفروبيل ومونتزينو ينبذون بشدة

التقريرية او الجزمية . فالانتقائي فكتور كوزين ، اتخذ قاعدة عمل له المبـدأ القائل : « ان كل المواطنين من ابناء البـلاد ، مهما كان دينهم او مذهبهم ، لهم حق تلقي التعليم » . الا ان حق احتكار التعليم الجامعي الذي كان لا يزال يقول به ويبرر القيام به ، رفض الاحرار المتمنتون القبول به من حيث المبـدأ ، كما ان الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن لهـا ان تسلم به . ومن جهة اخرى ، هل بالامكان تصور تعليم علماني يحترم في وقت واحد كل المعتقدات الدينية ، ويستطيع ان يؤمن الوحدة الفكرية في الوطن ؟ ثم هل من الموافق ومن الحكمة ، من وجهة المحافظة على المجتمع البشري ، ان يكون الله بالضرورة حاضراً في المدرسة ؟

سجلت فرنسا في هذا المجال حادثاً تاريخياً يتمثل في قانون « فلّو » الصادر عام ١٨٥٠ ، هذا القانون الذي جاء يوفق بين نظريتين : النظرية المسيحية والنظرية الوطنية القومية . وفي بلجكا تمكنت المدرسة الطائفية من تقرير مساواتها رسمياً بالمدرسة العلـمانية اذ ان النسبة العالية من الطلاب الذين ينتمون اليها امنت لها مساعدة السلطات العامة على قـدم المساواة مع منافستها الاخرى . ففي الحين الذي راحت فيه الامبراطورية الالمانية تفرض وجوب التصريح عن الدين في التعليم الرسمي الوحيد ، قررت بريطانيا العظمى ، مراعاة لمزاجها الخاص ، الوقوف بجـانب التنويع دون ان تلغي التعليم الديني من مناهجها التربوية ، فالدول البروتستانتية تميل نحو التساهل المبدئي ، هذا التساهل الذي ينطبع ، من الوجهة المبدئية على الاقل ، بالفكرة المسيحية ، بينما تنتصب العلمانية في الدول الكاثوليكية في وجه المدرسة الطائفية .

هبوط في الايمان التقليدي وتطور الفكر الحـر

فالجدل حول المدرسـة ليس سوى مظهر من مظاهر الصراع الذي احتدم بين الكنيسة والحركة العلمانية التي لا تعني بالضرورة ، مناهضة رجال الاكليروس ، بينما تعلم الاخرى ان لا خلاص للجنس البشري خـارج التعاليم الدينية الموحى بها .

ان انصراف العقول عن الدين وزهـد الناس بالعبادات والطقوس التقليدية امر لا يختلف فيه اثنان . وقد اشتدت وطأة هذا التحول في المناطق الصناعية او في تلك المناطق التي اكتظت مدنها بالسكان دون ان نستطيع الجزم ما اذا كان اصاب البلدان الكاثوليكية اكثر من البلدان البروتستانتية ، الا انه أبعد عن الارثوذكسية وعن الطقوس التقليدية المعمول بها جانباً كبيراً من العنصر الاسرائيلي . ويؤكد الاب بشرت ، عـام ١٨٥٦ . « ان المهمة الملقاة على عاتق عصرنا هذا هو إعادة الطبقات الشعبية الى جادة الايمان ... » . وقـد خشي غليوم الثاني كثيراً من إعراض الناس المتزايد عن الدعوات الكهنوتية . ففي فرنسا كانت حوادث السيامات الكهنوتية ارتفع عددها ، عام ١٨١٥ ، لتهبط بعد حين ، ثم تعود فترتفع قليلاً بين ١٨٧٠ — ١٨٨٠ لتهبط من جديد . هنالك ١٢٠٠ راعوية ، حوالي ١٨٤٨ ، واكثر من ٤٠٠٠ حوالي عام ١٩٠٠ ليس من كاهن او قس يقوم على خدمتها . فالاكليروس الذي قلت بضاعته من العلم والثقافة ، ضؤل استعداده للقيام بالمهمة الملقاة عليه . وقد لاحظ لامنيه ، منذ عام ١٨٢٧ ، هذا الوضع المستحكم ،

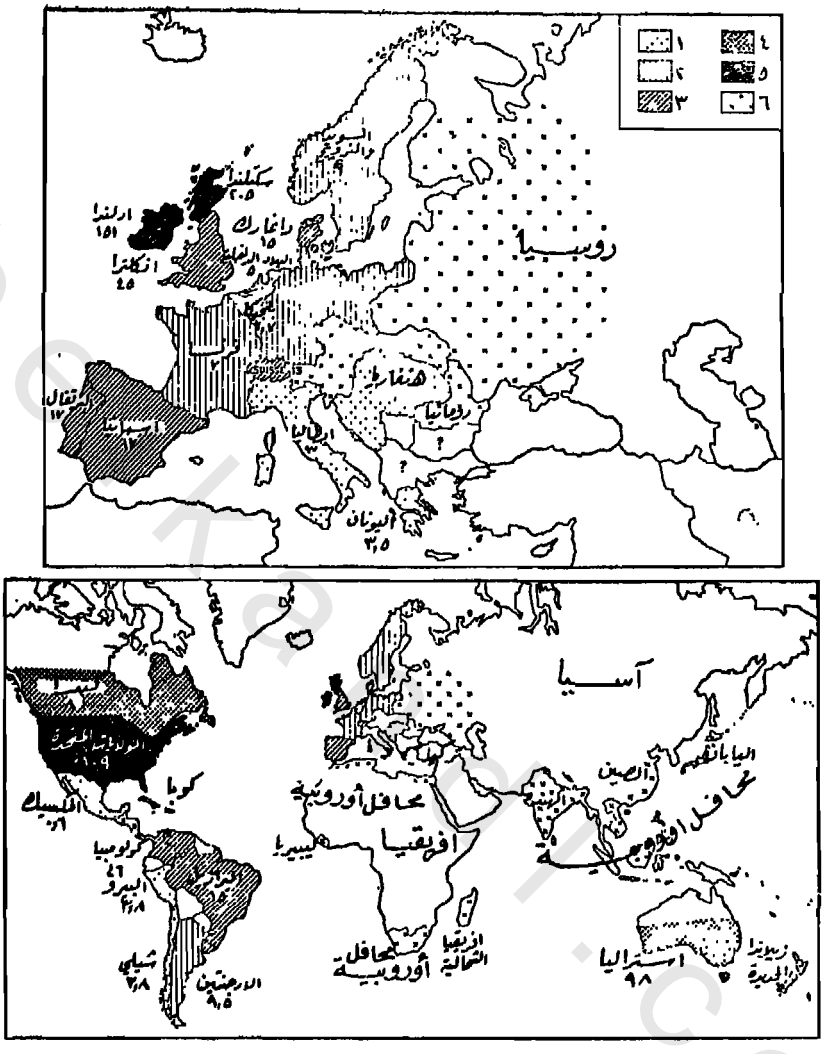

شكل رقم ١٧ ـ توزيع اعضاء الماسونية في العالم بين ١٨٨٥ ـ ١٨٩٠

١ ـ ٥ اعضاء من ١٠٠٠٠٠ نسمة ؛ ٢ ـ من ٥ ـ ١٠ ؛ ٣ ـ من ١٠ ـ ٥٠ عضوا ؛ ٤ ـ من ٥٠ ـ ١٠٠ عضو ؛ ٥ ـ اكثر من ١٠٠ عضو ؛ ٦ ـ وجود اعضاء بدون تحديد عدد .

عندما يقول : « يجب رد قوة اعداء المسيحية ليس الى انهم يعرفون كثيراً، بل الى ما هم عليه من جهل الطبيعيون المدافعون عنها » فلا الفنون التشكيلية، ولا الهندسة يتخذان بـــدأ من التقوى الدينية . « ففن السان سولبيس » يفتقر اصـــلاً للانطلاقة ، والموسيقى الكنسية اصيبت ، هي الاخرى بالخسف ، والموسيقار ليست عجز تمامـــاً عن التعبير الصحيح للطقوس ، هذه الطقوس التي حاول غيرانجيه ان يبعث فيها النشاط والتجدد .

وقد احتدم الجـــدل والنقاش الديني بين البروتستانت . فالكنيسة الانكليكانية تجتـــاز ازمة حادة بعد ان هزتها اعادة السلطة الى الكنيسة الكاثوليكية ، في تلك البلاد وراحت المشاحنات تتجاذب الكنيسة العليا ، والكنيسة العريضة والكنيسة السفلى . والظـــاهر ان اليقظة استنفذت كل نتائجها ، وفي بروسيـــا والبلاد الواطية ، احتدمت المعركة الدينية بين مستقيمي الرأي واصحاب الرأي الحر بحيث لم تلبث هـــذه المشاحنات ان امتدت الى الكنائس الانجيلية في كل من سويسرا وفرنسا . وحف الخطر من كل صوب بالطقوس التقليـدية من جراء احتدام نقد الكتاب المقـدس . والارثوذكسية اليهودية نفسها المعروف عنها تمسكها الشديد بأسباب الدين تعرضت لهزات هدامة جاءتها من هذه الحركة الاصلاحية، الموجهة ضد التلمود، كما اصيب الولاء للغة العبرية بالتراخي والانحلال من جراء الانحطاط الذي استشرى بين هذه المجتمعات اليهودية في الغرب التي اخذت تعرض عن استعمال اللهجة البيدية هذه اللهجة العبرية الهجين من الالمانية والسلافية : وبالمقابل ، فقد انتشرت اللاتفريقية بمختلف الوانها فتغلغلت بين المؤمنين الذي انقطعوا عن ممـارسة مراسم العبادة فاستحالوا جاحدين ملحدين . فسانت بوف يحدثنا عن : « هذه الابراشية الضخمة التي تغطي كل فرنسا والتي تعـــد الوف الاتباع من هؤلاء القائلين بالربوبية وناكري الوحي ، او المنصرفين الى مخاطبة الارواح والاستسلام لمراسم العبادة الطبيعية ، والحلوليين الوضعيين .

من الصعب تحديد الدور الذي لعبتـــه الماسونية . ففي عام ١٧٨٥ ، بلـــغ عدد المحافل الماسونية في العالم ١٧،٠٠٠ محفل ضمت أكثر من مليون من الاعضاء ، نصفهم في اميركا ، بينهم اكثر من ٢٠٠،٠٠٠ من البريطانيين . فالجمعية ليست بثورية . فملوك البلدان البروتستانتيـــة وانسباء هؤلاء الملوك من الأمراء يشرفون على مصير هذه الجمعية. ففي الدول الكاثوليكية عرفت هذه الجمعية ان تجتذب اليها عدداً كبيراً من موظفي الحكومـــات الذين يحبذون الروح العلمانية ويعملون على الترويج لها وعلى مناهضة رجال الدين . ويجهد خصومها على التشهير بها بشكل لا يخلو من المبالغة ، ويبينون للناس مالها من قوة ونفوذ . ولكن ، أليست بعد هذا كله ، كما يقول فيها اناتول فرانس : « جمعية » ... تؤمن الترفيع المتبادل » !

مقاومة الكنائس لها
مصانعتها للدولة المتحررة

ومهما وجدت نفسها مهددة ، فالاديان التقليدية عرفت ، مـع ذلك ، كيف تحتفظ بما لها من مواقع حصينة ، كما ان قدرتها على الكفـــاح والنضال لم تن ولم تضعف .

فعندما وطدت البروتستانتية اقدامها ورسخت اصولها في بلد ما تعمل على انشاء علاقـات

طيبة مع الدولة التي كثيراً ما ترعى مصالحها ، وتفتى بوصفها الحكَم ، في هذه المنازعات التي كثيراً ما تنشب بين النزعات المحافظة والنزعات المتحررة . ومع أن المعاهدة الدينية (الكونكورداتو) المعقودة بين الدولة والكنيسة اعترفت بوضع الكلفينية في فرنسا ، فقد آثر اتباع هذه الكنيسة ان يعتمدوا على انفسهم ورضوا بفصل الكنيسة عن الدولة هذه السياسة التي اقترح فينه الأخذ بها والنهج عليها باعتبارها شرطاً اساسياً في عملية الاصلاح . وهذه الروح الاصلاحية التي كان بوسعها القيام بحركة تبشيرية واسعة النطاق ، لعبت دوراً بارزاً في اعداد هذه القوانين الانسانية وفي قضية التعليم العام واخذت تنزع للحؤول دون تشتت الراعويات وتباين المذاهب العقائدية ، وذلك بالاتجاه نحو اعمال البر والاحسان ، منها مثلا ، مؤسسة جيش الخلاص ، هذه المؤسسة التي تشكلت على غرار الرهبنة اليسوعية ، ولاقت تأسيسها نجاحاً تاما ، وقد غذت هذه الاعمال الايمان في النفوس ليتلاءم تماماً مع تجمع القوى .

واستمرت الكنيسة الكاثوليكية تعلل النفس بحشد القوى وجمع الطاقات الخيرة إلا ان النجاحات التي حققتها في كل من انكلترا والبلاد الواطية لم تفض قط الى وضع حد لهذه الانفصالات التي أدت اليها سياستها المتصلبة ، وهكذا أدت اعمال هرناك الى توضيح وجهة النظر اللوثرية وجلائها ، بينما سياستها الرامية لتوطيد السلام تدور على نفسها فقد نجحت سياسة تأييد سيادة البابا . وبعبارة أخرى ، ففي الوقت الذي يتوطد فيه الشعور القومي وترسخ الروح القومية بين الشعوب في المجال العلماني ، فقد نزعت ، من جهة أخرى ، الى الهبوط في قلب الكنيسة . فعملية التوحيد تمت لمصلحة الليثورجية والفلسفة القومية ، التي عرفت رواجاً كبيراً وتجدداً جديدين ، قوّت من امتيازات الكرسي الرسولي . ان اعلان عقيدة الحبل بلا دنس ، والوضوح الذي ميز فهرس الكتب والتعاليم المحرمة *Syllabus* لدى الكنيسة الكاثوليكية ، هيأ إعلان عقيدة عصمة البابا ، هذه العقيدة التي تم إعلانها في مجمع الفاتيكان عام ١٨٧٠ ، معلناً بذلك الراعي الدائم . وهكذا فالكنيسة الكاثوليكية في ردتها العفوية في الدفاع عن النفس ، زادتها مركزية وجعلتها تتجه بالتالي نحو الحكم المطلق . فأمام هذه الروح التحررية قامت روح مسكونية ، بعد أن استشرت الروح العلمانية بين الدول ، وادخال هذه الروح على وسائل المواصلات التي تعمل على حشد الخدمات في المدينة الخالدة .

فاذا ما زاد إعداد الكهنة العلمانيين صعوبة ، فقد عرفت المؤسسات الرهبانية من جهتها ازدهاراً أدى الى تأييد نفوذ الكرسي الرسولي . فقد أدى القرن التاسع عشر من هذه الناحية الى دمل أحد الجروح التي فتحها القرن الثامن عشر ، اذ ساعد على إعمار الاديار ، كما ادى الى تأسيس عدد من الرهبانيات الجديدة . وهذا التجدد والبعث للحياة الرهبانية ساعد كثيراً على القيام بحركة التبشير بين المشاقين من المسيحيين وفي هذه البلدان التي لا تزال على الوثنية ، بحيث اصبح من الممكن التحدث الآن عن حركة اصلاحية معاكسة ، في اوروبا نفسها ، الخصم فيها الملحد المعطل أقل منه الهرطوقي . وتكاثرت المشاريع الدينية التي وضعت نصب اعينها تجديد الروح المسيحية عن طريق المحبة والكرازة والتبشير .

ابتعدت مظاهر العبادة عن المفهوم الجنسيني ، وهذه الروح الرمزية التي انطلقت من ايطاليا عمت الكثلكة جمعاء . وتجلت للناس عواطف تقوية تمثلت في هذه الاحتفالات والمظاهرات العبادية ، وتبلورت على اتمها في هذه الزياحات وهذه المزارات والحجيج الى الاماكن المقدسة . وقد اتجهت عواطف المؤمنين الى يسوع الرؤوف ، الرحيم . ولذا راح المطران هولست يتكلم عن « عصر القلب الاقدس » الذي تكرست له الشعوب ، وعن مريم العذراء . والعبادة المريمية تألقت آنياً بهذه الظهورات العجائبية كما لـ *salette* ولبرناديت سوبيروس . وقد كان من سحر لورد العجائبي ان جذبت اليها وفوداً ضخمة من حجاج المسيحيين ، اذ ضم حج واحد اكثر من ١١٠ آلاف حاج عام ١٨٧٢ ، كما انه وفد على لورد من الحجـــاج بين ١٨٧٠ – ١٨٧٨ اكثر من ٦٦٠,٠٠٠ .

وقد ابت على البابا بيوس التاسع تقواه ونفسه البارة مصانعة العصر ، وأعرض عن الخدمات التي كان يمكن للدراسات اللاهوتية ان تؤديها مع دولنجر ، ووقف موقف المدافـع عن العقيدة التقليدية ، في تشهيره لاضاليل العصر ، في البراءة البابوية *Quanta Cura* وفي دليل الكتب المحرمة *Syllabus* الذي اثارت لهجته الصريحة وعبارته الشديدة ردود فعل عنيفة بـــين الفرقـاء الذين وقعوا مع الكرسي الرسولي معاهدات الكونكورداتو بين الدولة والكنيسة . ولذا فقد تأزمت في اواخر حبرية البابا بيوس التاسع العلاقات بين الكرسي الرسولي والدول كما قامت صعوبات مع كل من اسبانيا والنمسا . ونهج بسمارك نحو الكثلكة سياسة عدائية تمثلت في منهج الـ *Kulturkampf* (الصراع في سبيل الحضارة) ، كما ان غمبتا اعلن الحرب ضد « النظـــام الأدبي » عندما أخذ يصرح : « الروح الاكليريكية ، هذا هو العدو بعينه » . فاذا ما تسلح خلفه البابا لاون الثالث عشر بمرونة سياسية اكبر ، فلم يستطع الا الماضي في موقف الكنيسة المتصلب من تعاليم العصر ، كما حذّر من المساوىء والمخازي التي يذهب اليها « العقل ، عندما يشتط في مداهناته وتدليساته وتغذيته حب العظمة الفارغة ، وكلها أمور محببة لقلب الانسان » .

وقد حدث مع ذلك ما نم عن بعض التحسن في الوضع . ففي البراءة التي نشرها بعنوان : *Immortale Dei* يصرح البابا قائلا ان الكنيسة لا يمكن ان تقف موقفاً معاديا من أي « تساهل معادل » ولا تبدي العداء للحرية المشروعة الحقة وهي محاذير أقل وطأة وأخف اثراً . ويؤكد في براءته انه لا يمكن شجب اي شكل من اشكال الحكم ، اذا ما احترم حقوق المؤمنـــين ، وحقوق رجال الدين . وقد بدا طلوع عهد من التقـــارب الى انصـــار الجمهورية في فرنسا الذين قلقوا من انتشار الروح الاشتراكية ، وراحـــوا يتمنون لو يصار الى « تهدئة » . ولذا راح البابا ليون الثالث عشر يوحي بوجوب الولاء للانظمة الشرعية القائمة ، بينما رسم في براءته الجديدة برنامجاً خاصا بطبقة العمال ، اطمأن العمال الى مبادئه المعتدلة .

ولم تحل الفوارق والخصومات القائمة بين الكنائس والمجتمع العلماني من عقد هذه الاتفاقات والتنازلات التي لابد منها . أفليست العبادة من هذه الخدمات العامة ؟

ومن ثم فهذا المجتمع العلماني ، في سعيه الحثيث لتأمين استقلاله عن السلطة الكنسية تردد كثيراً قبل ان يقطع صلاته بالدين وشؤونه . ففرنسا لم تقر الطلاق النهائي – مع ان مبدأ الطلاق اعترف به منذ عام ١٧٩٢ – الا عام ١٨٨٤ ؛ ثم ان الاقبال تدريجياً على الزواج المدني لم يلبث ان انتشر في البلدان الأخرى . والسويد لم تسلم به الا لغير اللوثريين كالبرتغال الذي أقره لغير الكاثوليك . والنمسا اجازت الطلاق لغير الكاثوليك ، ولم تسلم كايطاليا ، إلا بانفصال الزوجين . فالبلدان البروتستانتية ، اختلف موقفها بنسبة تباين الروح التحررية فيها. فلنسمع ما يقوله هوغو هنا : « كل حضارة تبدأ بنظام ثيوقراطي وتنتهي الى نظام ديموقراطي » .

من الاقتراع الضرائبي الى نظام الاقتراع العام ومن حكم النبلاء الى حكم الديموقراطية

في براءته المعنونة *Diuturnum* الصادرة عام ١٨٨١ ، يذكر البابا ليون الثالث عشر : «انه اذا ما اردنا ان نحدد مصدر السلطة في الدولة علينا ان نصغي الى ما تعلمه الكنيسة بهذا الصدد بوجوب البحث عنه في الله » ، ثم يضيف قائلا : « فاذا ما ربطنا هذه السلطة بارادة الشعب نكون استهدفنا للشطط ، من حيث الاساس ، ونكون أولينا السلطة اساساً وَهِناً سريع العطب ، لا قوام له » .

وقد وضع العاملون على توطيد النظام التمثيلي نُصب اعينهم ، ضمان الحريات الفردية . فقد كانت انكلترا ، في هذا المجال ، مثالاً يحتذى ، اذ ان سياسة الصراحة التي درجت عليها تلك البلاد العريقة في نظمها القانونية – بما فيها من ملاكين وذوي أهليات – امنت الاستقرار للحكومة والسير بمقدرات البلاد وتوجيهها التوجيه الصحيح . ان نظاماً من هذا الشكل كان من شأنه في نظر الاحرار ، ان يحول دون استئثار الفرد او فئة معينة ، بالسلطة . ولكن هل كان بوسع مثل هذا النظام ان يبقى بعيداً عن السلطة الشخصية ، كما تستطيعه الديموقراطية ؟

فالنصوص الدستورية تفسح المجال ، عادة ، لمواجهة المجلس الادنى المنتخب من قبل الشعب بمجلس اعلى تعينه السلطة التنفيذية او يجري انتخابه من قبل هيئة انتخابية مصغرة . ومع ذلك فهذا النظام – باستثناء فرنسا حيث كان يعمل به منذ عام ١٨٤٨ – مع العلم ان الامبراطورية الثانية عرفت ان تتلاعب به بما يتفق ومصلحتها – لم يستقر في اوروبا إلا بصورة تدريجية . هنالك ، بالطبع بعض تغيير يطرأ على مفهوم الحزب والحزبية ، اذ اخذت قاعدته بالاتساع ، بحيث تمتع الشعب بأطر اتخذها من بين النبلاء والاعيان : حزب الطبقة الذي اخذت الاشتراكية تدعو الى قيامه ، لخير الطبقة العمالية ، الامر الذي بعث الريبة والتشكيك في هذه المستجدات الخطرة.

الضرائب والموارد المالية في الدولة

هل يترتب علينا ان نرى في هذه الدولة الحديثة « وضعاً من نسج الخيال ، كل واحد فيه يحاول ان يعيش على حساب الغير » ، كما كان يقول بستيا ، او « لجنة ادارية تتولى شؤون البورجوازية المشتركة » ، كما جاء على لسان ماركس ؟ كل هذا والنبلاء يعارضون ما وسعهم ، فرض الضرائب على الثروات التي جمعوها .

والحال ، فان تضخم موازنات الدول ، سنة بعد سنة ، اثار في صفوف الاحرار المتشددين موجة من الاستياء والتذمر ، فزاد من ضغط الحكومات على دافعي الضرائب ، وربطهم اكثر فاكثر باصحاب رؤوس الاموال . فقد بلغت النفقات العامة في فرنسا المليار عام ١٨٣٠ ، ثم ارتفعت الى مليارين عام ١٨٦٩ لتصبح عام ١٩٠٠ ، اربعة مليارات بحيث ان ٢٦ مشروع موازنة جاءت تشكو العجز سنة بعد سنة عام ١٨٧٥ . فالدولة تغطي نفقاتها عادة بفرض الضرائب . الا ان الملاك واصحاب رؤوس الاموال كانوا دوما يحاولون التخفيف من وطأة الضرائب المباشرة التي تكل امر جبايتها الى مأمورين يعدونهم انفسهم جدول دافعي الضرائب في الوقت الذي نراهم يتدحون فيه منافع الضريبة غير المباشرة او غير الملحوظة التي تستند الى الاستهلاك المحلي . وكانت الضريبة الفردية التصاعدية على الدخل التي تبنت مبدأ الاخذ بها الحكومة البروسيانية حيث للموظف هيبة وسطوة كبيرة ، كما تبنتها الحكومة الانكليزية ، كبديل عن تخفيض التعرفة الجمركية ، وقد اثارت في فرنسا ، صراعاً عنيفاً لم يخرج فيه الحزب الراديكالي منتصراً الا قبيل الحرب العالمية الاولى ، بمؤازرة الحزب الاشتراكي .

ولما كانت الضرائب التي تجبيها الدولة لا تفي بالحاجة كان لا بد لها من الاستدانة والاستلاف وقد بلغت الديون المستحقة على الدول الاوروبية ما اربى على ١٣٦ مليار بحيث ان هذه الديون المتوجب وفاؤها ، لو وزعت على المواطنين لأصاب الفرد الواحد منها فرنكاً في سويسرا ، و ٢٣ فرنكاً في فرنسا ، عام ١٩٠٠ .

ازدياد حركة الثراء العام وتفاوت الثروات

حدد آدم سمث معنى الثروة في الشعب « حيازة كل الاشياء اللازمة للحياة والمسهلة لها » . ويلاحظ بعضهم عدم الدقة الملازم لهذا التعريف . ومع ذلك فنمو هذه الثروة المطرد ليس من ينكره ، اذا ما تمثلت هذه الثروة بنقد متداول لم تتغير قيمته خلال القرن . وعلى هذا الاساس فقد قدّر سوثير ، ثروة بروسيا ٧٨٥٦ مليوناً عام ١٨٧٦ ، بينما ارتفعت الى ١٠,٢٠٨ ملايين عام ١٨٩٠ ، وذلك على اساس ضريبة الدخل التي لم تكن تطال غير ٨٠٠,٠٠٠ شخص من أصل ٢٢ مليون نسمة . ومنذ عام ١٨٩١ كانت حصيلة الضرائب التي تصيب مليونين ونصف من دافعي الضرائب ، ٥٨٦١ مليوناً ، عام ١٨٩٢ ، و ٨٨٥٤ عام ١٩٠١ . فالضريبة الموضوعة على التجارة والصناعة في انكلترا اعطت ١٠٦ ملايين ليرة انكليزية تقريباً عام ١٨٤٣ بينما اعطت ٣٢٠ مليون ليرة ، عام ١٨٨٠ ، والضريبة A (على رأس المال) اعطت تباعاً ١٨٨ و ٤٠٧ ملايين ليرة ، بينما الضريبة E (الاجور) درت ٩٣ و ١٧٧ مليون ليرة . وقد قدر بعض علماء الاقتصاد دخل كل من بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية ٤٠٠ ، و ٢٧ و ٦٠ ملياراً عام ١٨٩٥ ، لقاء ٧٥ و ٦ للاولى والثانية عام ١٨١٠ ، و ٣٥ لأميركا عام ١٨٧٠ .

من العسير جداً التحديد بدقة ، توزيع هذه الثروة ، بين مختلف طبقات المجتمع او بين الافراد . فالاحصاء الذي جرى في انكلترا ، عام ١٨٧٨–١٨٨٨ ، يشير الى ان ١٨ بريطانيا يحوز الواحد منهم اكثر من ٢٥ مليوناً (روتشيلد ٦٧ مليوناً ، وكل من بيرنغ وبورتلاند ٣٨ مليوناً).

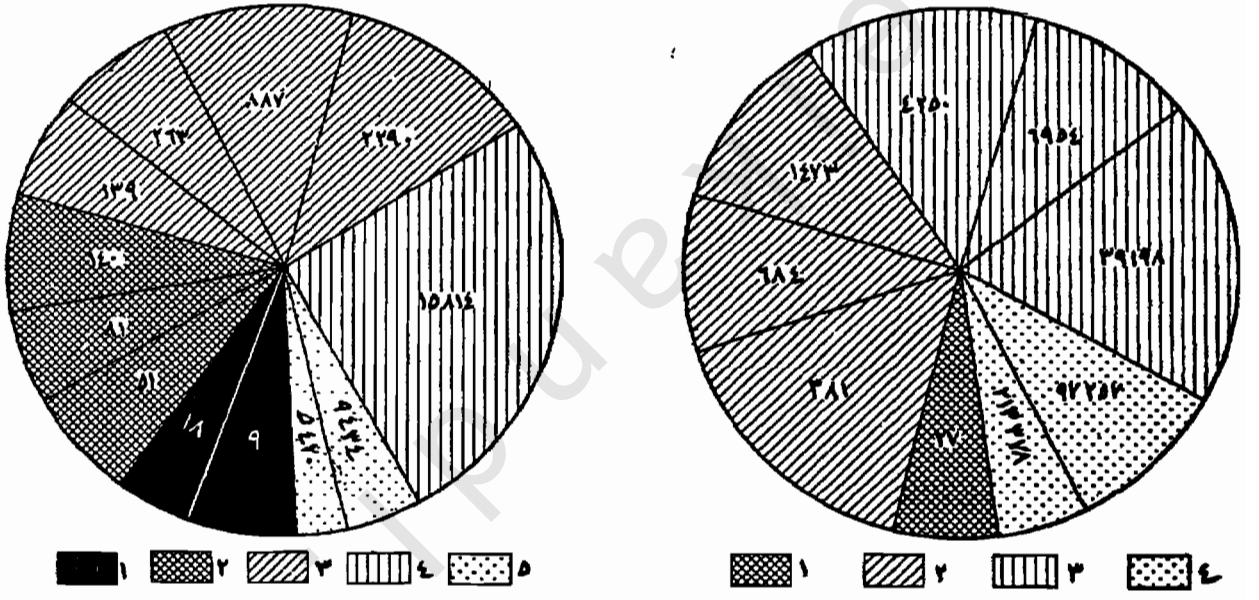

شكل رقم ١٨ ـ توزيع الثروات في كل من فرنسا وانكلترا ، وفقا للتصاريح الارثية

الى اليسار : بريطانيا العظمى (السنة المالية ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ فيها نحو ٣٤٠٥٠٠ تركة مجموع غناها معا ١٠٤٠٠ مليون فرنك تقريبا) .

الى اليمين : فرنسا (السنة المالية ١٩٠٢ ، تضم ٣٦٠٠٠٠٠ تركة مجموع غناها معا ٤٠٧٠٠ مليون فرنك

(عن النشرة الاحصائية لوزارة المالية) .

ويدل الكشف الموضوع للتركات المورثة على ان التفاوت يقل بالانتقال من انكلترا الى ايطاليا ، الى فرنسا وبروسيا . وهكذا نحصل على ٣٠,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ و ١٠ أو ١١,٠٠٠ ، و ٥,٠٠٠ الى ١,٦٠٠ صاحب ثروة تزيد ثروة كل واحـــد بينهم على مليون. فالعالم الاقتصادي فوفيل ادخل منذ عام ١٨٨٣ ، في حسابه ٢٠,٠٠٠ عـــائلة من اصحاب الملايين توجد في انكلترا، ثم اضاف قائلا : « ان هذه ثروات تزيد بكثير على المعدل، في بلاد لا يتجاوز عدد سكانها ٣٨ مليون نسمة . فليس في العالم كله على الاطلاق بلد يضم مثل هـــذا العدد من كبار الاغنياء اصحاب الثروات الطائلة » . ويمكن لنا ان نضيف هنا ان الفاً من كبار الملاكين يملكون ثلث مساحة البلاد او ان ٥٪ من سكان البلاد يجمعون في ايديهم نصف الثروة المنقولة ، وانه يوجـــد في خدمة الاسر الغنية مليون من الخدم والحشم ، وان ٢٠٠,٠٠٠ رأس من الخيل تدرب كل سنة على فنون الصيد في هذه الاطيان الضخمة .

ففي الحقبة الواقعة بين ١٨٤٣ — ١٨٨٠ ، ارتفع عدد البريطانيين المسجلة اسماؤهم في جدول فئة (D) من اصحاب الـ ٥٠,٠٠٠ ليرة ، ثمـــانية اضعاف ونصف ، بينما معدل الزيادة في الفئات الاخرى تضاعفت ثلاث مرات لاغير . وفي بروسيا ، نقلت الزيادة في الحقبة الواقعة بين ١٨٩٦ — ١٩٠٢ ، وفقاً لجدول ضريبة الدخل ٧٣٫٤ بالمائة لدى من زاد دخلهم على ٩٠,٠٠٠ مارك ، و ٣٦ بالمائة لدى اصحاب الدخل الذي يتراوح بين ٣,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ مارك . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد ان تجميع الثروة تم في ايدي اقلية ضئيلة .

اضرابات اليد العاملة وتطور الروح النقابية

تفاقم الاختلاف بين اصحاب رأس المال والعمال في هذه الحقبة الواقعة بين ١٨١٥ — ١٨٤٨ في الوقت الذي زاد حرجاً وضع اصحاب الاجور ، كما لا بـد من الملاحظة هنا ان حوادث الاضرابات والبطالة اخذت تتناقص بعد عام ١٨٥٠ ، وهو هدوء يمكن رده الى عوامل عديدة، منها فشل الثورات والفتن التي نشبت والضغط السياسي وعـــودة النشاط الى الحركة الاقتصادية ، والتخفيف من اسباب البطالة والارتفاع الاسمي ، ان لم يكن الفعلي للاجور . فبعد ان خابت آمال هذه الطبقة واتعظت بحوادث الدهر ، اخذت تفكر بتنظيم نفسها لتحصل على ما ترضى عنه من الوجهة المسلكية فتصبح بالتالي ، اكثر تحصناً ضـــد النظريات الثورية التي تتملقها .

وقد شهدت انكلترا ازدهار الروح النقابية عقب عهد الوثنية التي نادى بها بعض المصلحين الاجتماعيين من انكلترا التي جاءت رومنطيقية اكثر منها سياسية حرفية، عهد النقابية العمالية . وبذلك اخذ أوين ثأره . غير ان هذه الاتحادات لم تضم في صفوفها سوى نخبة ممتازة من العمال اصحاب التخصص الاعلى مرتبا . ومع ذلك ، وبالرغم من حظر الاتحاد لم تمت في فرنسا روح المقاومة وبقيت خافتة تحت الرماد تتربث سنوح الظروف المناسبة ، للظهور والانطلاق من جديد.

ان ارتفاع تكاليف الحياة والتعقيدات التي جرت اليها حرب الانفصال (في الولايات المتحدة) في صناعة النسيج كانت السانحة لانطلاق الهيجان منذ عام ١٨٦٠ وعلى غرار النقابات العمالية ظهرت حركة نقابية لا طابع سياسي لهـا في المانيا . وراحت حكومات فرنسا وبروسيا وساكس ، حرصاً منها على ارضاء العمال واستمالتهم ، تمنحهم حق تشكيل اتحادات عمالية ، وهو حق جاء في الوقت الذي طلعت فيه علينا الدولية الاولى التي تبينت ما تخفيه الحركة النقابية من شأن وقوة وما يمكن ان تقدمه من فوائد جمة ، فراح اعضاؤها يستميلونها للعمل الثوري . وعقدت الحركة النقابية العمالية في انكلترا مؤتمرها العام الاول وراحت تشجب فيه اعمال العنف التي وقعت في مدينة شفيلد ، كما اعربت عن ارتياحها لاصلاح قانون الانتخاب عام ١٨٦٧ . واذ ذاك ، اخذ العمال في المناجم وصناعة التعدين يتحركون ، فتكاثرت الاضرابات العمالية في الروهر وسيليزيا والهاينو وسورانغ وأنزين وريكاميري واوبين والكروزو . واخذ الاضطراب يحتدم ويشتد الى ان ظهرت فتنة الكومون في باريس ، وهذا الحادث يؤلف تاريخاً بارزاً في حركة البروليتاريا مع ان الباعث الاول والوحيد لهذه الفتنة الشعبية التصميم هو الوقوف في وجه الرأسمالية . وامكن قمع اعتصاب ثان في سيليزيا العليا حين ظهر فجأة قانون يعترف ببعض حقوق العمال النقابية .

وقد اتضح الآن ان الازمات تزيد من ضنك وبؤس صاحب الأجر المحدود وتحمله على الثورة . فهي تتركه في وضع يبقى فيه عرضة أكبر للمخاطر ؛ إلا ان موقفه يصبح أقوى مع رجوع الازدهار مع انه لا يفكر بالمطالبة بحقوقه . فاذا ما راح يطالب بزيادة في الأجور فجهوده تنحصر في تخفيض ساعات العمل والشغل لمدة ثمان ساعات ، وهذا أقصى ما يحلم به .

وقد اثارت أزمة ١٨٧٣ موجة جديدة من الاضرابات والاعتصابات في انكلترا اشترك فيها العمال العاملون في القطاع الزراعي . إلا ان القانون المعروف بقانون رب العمال والعامل الذي صدر عام ١٨٧٥ أدى الى شيء من التهدئة ؛ فالظروف المتحكمة اذ ذاك توضح لنا صعوبة نهوض المنظمات العمالية في فرنسا وتبين لنا سلسلة حوادث الفشل الذريع الذي اصيبت به الحركة العمالية في المانيا والولايات المتحدة الاميركية .

ففي الوقت الذي تزداد فيه الهوة عمقاً ، تميل موازنة العامل الى تحقيق التوازن بسهولة أكبر حتى ان الأجر أخذ احياناً بالارتفاع ، على شريطة أن تكون حركة تشغيل العمال مرضية . فالاضرابات تخف حوادثها بينما تزداد الحركة النقابية قوة وبأساً في فرنسا ، وتأخذ بتنظيم نفسها في المانيا ، وتتكاثر في بريطانيا حيث قامت اتحادات عمالية جديدة فتحت صفوفها لعمال غير متخصصين . واليد العاملة في كل مكان في الريف تتململ وتتحرك دون أن يطرأ أي تحسين على دخلها بل انه مال الى الهبوط احياناً ، وراح الجمهوريون في فرنسا يعترفون للعمال بحق تأليف نقابات لهم ، كما راح بسمارك ، من جهته ، يجري تغييراً في الصورة بوضعه خطة للضمان الاجتماعي .

وحدث اثر تحسن وقتي في الاسعار ، عام ١٨٨٦ ، سلسلة من الاضرابات العنيفة ولا سيما في

مقاطعات الهاينو وليباج ، وفي بريطانيا العظمى والمانيا . وقامت موجة شديدة من هـذه الاضرابات، عام ١٨٨٩ ،وعطل عمال الارصفة في الجزيرة كل نشاط في موانىء انكلترا لمدة خمسة اسابيع متوالية ، وفازوا بمطالبهم بفضل ما لقيت حركتهم هـذه من عطف عليهم لدى الرأي العام ولتضامن العمال الاوستراليين معهم . ونال عمال المناجم في منطقة الروهر من الامبراطور غليوم الثاني ، بعد ان تخلى عن بسمارك وصرفه ، وعداً بتطبيق مبدأ العمل لمدة ثماني ساعات في اليوم . وعلى أثر الحوادث الدامية التي وقعت في ديكازفيل ، يحاول غَسْد ، على غرار هندمان عبر المانش ، ان ينقل الحركة العمالية النقابية ، الى الماركسية ، كما ان البلاد الواقعة في الجنوب شهدت ، هي الأخرى ، حوادث دامية عديدة .

واخذت اسعار الحاجيات تهبط، بعد عام ١٨٩٠ ،وتميزت سنوات ١٨٩١ و ١٨٩٣ بالازمات الشديدة التي شهدتها . وقد قابل هذه الحركات تصلب من قبل أرباب العمل في مواقفهم ، في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ، لا سيما وقد اخذت الحكومات تجزع شديداً لحوادث القتل والاغتيالات ، بعد ان سادت الفوضى نتيجة لردة فعل قوية فسالت الدماء غزيرة في مدينة فورمي ، كما ان المضربين حققوا لهم بعض النجاح المحلي في مدينو كارمو. وقد تُغلب عمال المناجم على أمرهم في مقاطعة السار والروهر ، وتحول قسم من نشاط اتحاد العمال الى الجمعية الفابيانية عدوة العنف والضغط ، كما اتجه بلوتييه نحو العمل السياسي البرلماني ، واستطاع ان يثير بنجاح كلي ، في بورصات العمل، فكرة انشاء نقابة ضخمة مستقلة تماماً عن الاحزاب السياسية،عُرفت بالتحالف العمالي العالمي . وتم شيء من هذا الانقسام بين اعضاء الحركة العمالية في ايطاليا نفسها ، وفي اسبانيا ايضاً . اما العمال في المانيا فقد وضعوا ثقتهم بالحركة الديموقراطية الاجتماعية التي راحت تطعن بقدرة الحركة النقابية .

الحركات الاشتراكية والفوضوية عام ١٨٦٠ الدولية الاولى وكومون عام ١٨٧١

وضع رايبو ، عام ١٨٥٢ ، بحثاً نشره في « موسوعة الاقتصاد السياسي » جاء فيه : « ان الحديث عن الاشتراكية يكاد يعني نعياً لهذه الحركة والقاء رثاء فيها . فالجهـد المبذول للنشر الاشتراكية انقطع ، ومدلولهـا غمض وجف . فاذا ما استمر الشغف لهذه الحركة ، فتحت ستار آخر وتحت تعريرات أخرى » . وبالفعل ، فهذه الحركة الثورية التي اصيبت في الصميم والتي تلبّس نشاطها الواناً واشكالاً شتى : كالمؤامرات والجمعيات السرية ، واقامة الحواجز في الشوارع والأزقة ، اقتضى لها عشر سنوات لتعيد تنظيمها ولتتخذ لها عبرة وعظة من تجربتها الأولى .

والساعة الحاسمة في نظر ماركس هي فترة التريث والانتظار الجاهدة ،انتظار الحادث الاغر الضخم «الرأسمال»الذي انصب على وضعه ونشره فاصدر منه الجزء الأول. وقد كرسه لتحديد خصائص الرأسمالية وتوضيح مميزاتها بدقة ، فكلمات السر والشعارات التي جاش بها « البيان » ، هي التي شقت طريقها وئيداً والحق يقال ، الى العقول والنفوس . فالمفهوم الرومنطيقي عنـد المجذبين

للانقلاب بالقوة يُعد سراً وفي الخفاء، وتقوم بتنفيذه أقلية حازمة صلبة العود والرأي، يتمثل على الاخص، في تلاميذ بلانكي « الشيخ » و « السجين » . وقد اصطدم نفوذ ماركس بالدعوة للاشتراكية على الطريقة اللاسالية، وبالروح الفوضوية. ولاسال الذي رضخ لاحكام قانون الاجور الشديد، ألزم نفسه بعدم الدفاع عن المطالب التي تقدم بها العمال، كما رأى نفسه مضطراً للتفاوض مع بسمارك حول الشروط التي قد تؤول الى الاتفاق بين الدولة المشبعة بروح العطف الابوي وبين الطبقة العمالية « وهو وضع يعيد الى الذاكرة التنازلات التي قام بها برودون الطاغية في الثاني من شهر كانون الاول، بحيث ان انصاره زرعوا في قلب الحركة الاشتراكية الديموقراطية، جرثومة الاتفاقات التي يمكن التوصل اليها في مفاوضة زعماء الرابخ. ومما هو اوسع من هذه الحركة وأرحب، النظرية الفوضوية؛ فالروح التحررية المطلقة تكتسح فرنسا وسويسرا وقسماً كبيراً من البلاد الى الجنوب، وتتغلغل بين العمال وبين فريق من طبقة البروليتاريا من انصاف سكان الريف وأنصاف سكان المدن، الذين لا يرون في جماهير الثورة الاجتماعية غير بغض السلطة وكرهها، والرغبة في التحرر منها . وها هو ماركس يلتقي مع برودون، برودون هذا الذي نشر على الملأ شعارات هزت كل شيء في طريقها، منها مثلا تصريحه : « ان الاشتراكية ليست بشيء، ولم تكن شيئاً للآن ولن تصبح شيئاً في المستقبل »، وكلمته المأثورة الأخرى : « من المستحيل ان لا تفضي الاضرابات التي تعقبها زيادة الأجور الا الى التشديد بالمطالبة بأكثر، وهذا شيء واضح وضوح ٢ + ٢ يعملان ٤ ». وقد رد ماركس على ذلك قائلا : « نحن ننكر هذه التأكيدات في الاساس باستثناء القول ان ٢ زائد ٢ يعملان ٤ »، ماركس هذا الذي رأى في كل تنازل تقوم به الرأسمالية تنازلاً يفضي بالتالي الى اضعافها وايهانها .

والحال فالنظرية الفوضوية (على مذهب برودون) التبادلية، الفدرالية، المضادة للاكليروس، اذا ما التقت بالبلانكية في شعارها : « لا إله ولا رب عمل »، ليست ببعيدة قط عن الجماعية الفدرالية المضادة لكل سلطة، هذه النظرية التي راح باكونين يحاول نشرها في جميع انحاء اوروبا . « انا أمقت الشيوعية — راح ينادي هذا البوهيمي في مؤتمر السلام والحرية المعقود عام ١٨٦٩، لانها تؤلف نفياً للحرية، اولا، ولأنه يستحيل علي ان اتصور شيئا بشريا يفتقر كليا للحرية ». وباكونين الذي يُسلّم بقانون الأجور الحديدي يرفض رفضا باتاً دكتاتورية البروليتاريا ويقف بجانب البؤساء، بجانب الفلاح الروسي الموجيك . وقد رفض ماركس الدعوة الى ثورة اشتراكية اوروبية تقتصر على عالم الزراعة وتنحصر في هذه الاقوام الروسية والسلافية العاملة في مجالاتها . ففي زعمه ان البروليتاريا الواعية القائمة في فلك دولة رأسمالية هي وحدها تستطيع ان تفعل وتعمل بنجاح، كما راح يحذر من هؤلاء الذين لا طبقة لهم في *Lumpenproletariat* الذين ليس بوسع الفوضوية تفاديهم . أهو احتقار الالماني للسلافي — هذا السلافي الذي يجيش صدره بكره بغيض للمزاج اليهودي؟ اهو احتقار هذا البورجوازي الصغير المستكين، في قلب الفرنسي برودون ؟ هنالك من ظن ذلك وقال به . الا ان تشابه هذه النزعات وتعارضها أمر واقعي،

قائم بالفعل . فهو ينغّص العيش على الحياة الدولية .

وفي عام ١٨٨٤ ، جرى عماد الجمعية العمالية الدولية على يـــد النقابات العمالية والعمال المتخصصين في فرنسا الذين وقّعوا المنشور المعروف بـ « بيان الستين » الذين كانوا تعاونيين اكثر منهم نقابيين . ومع ذلك ، فقد تولى ماركس نفسه إعداد خطبة الافتتاح ، وأخذ بمناهضة كل من البرودونية والباكونينية ، وراحت منذ ذلك الحين ، الاختلافات والشقاقات الداخلية تعمل على ايهانها ، مع انها بقيت توحي الرعب وتسمر الخوف في قلب الحكومات . وامتدت مظاهراتها الى كل مكان ، حتى الى الولايات المتحدة واميركا اللاتينية . الا انها عجزت كلياً عن قطع الطريق على الحرب ، وعن انقاذ الكومون في باريس عن طريق إثارة ثورة شاملة في اوروبا ضـــد المجتمع البورجوازي .

وما هي الكومون ، يا ترى ؟ فتنة طارئة قام بهـا سكان باريس ، بعد ان انزل بهم الحصار الطويل الذي تعرضوا له ما انزل من آلام وعذابات وحرمان ، وبعد ان شاهدوا هول الهزيمة التي أصيبت بهـا فرنسا في الحرب ، وعملية استسلامها ، والفوز الانتخابي الذي حققه النبـــلاء « الريفيون » . وقد تسربلت سربال سلطة بروليتارية ، وهي سلطة وهنة لعمري ، محصورة في مدينة ، ضخمة منعزلة ، محدودة الموارد ، والتي رفعت ، بالرغم مما انتابها من انقسامات ، العلم الاحمر ، وأقرت فصل الدولة عن الكنيسة ، وألغت العمل ليلاً في الافران والمخابز ، وشجعت قيام « جمعيات تعاونية ذات رأس مال مشترك لا يمكن التصرف به او مسه » ، واقترحت وضع منهج فدرالي ، شعوبي للدولية ، له اتجاهان رئيسيان يمكن لهما ان يتلاقيا . فبعد ان غُلبت على أمرها في معركة طاحنة ، دونها بكثير أهوال ثورة ١٨٤٨ ، فقد خلفت وراءها دوياً تجاوبت اصداؤه بعيـداً . وأدت هزيمتها الى هزيمة الشيوعية الدولية الأولى ، الأمر الذي اتاح لتيير ان يلاحظ معقباً : « لم يعودوا يتحدثون عن الاشتراكية ، وحسناً فعلوا ، فقد تخلصنا منها » .

نشأة الاحزاب الاشتراكية وتأليف الدولية الثانية

حدثت انطلاقة جديدة عندما راح تلاميذ لاسال وماركس الالمان يشكلون عام ١٨٦٩ ، الحزب الذي عُرف بالحزب الاشتراكي الديموقراطي . صحيح ان مؤتمر غوتا وضع برنامجاً معتدل اللهجة ، خصه ماركس بنقد لم ينشر الا سنة ١٨٩١ . وقد عد هذا الحزب اذ ذاك ، مليوناً ونصف مليون من الاعضاء ، كما انه تمثل في مجلس النواب بـ ٣٥ نائباً . وقد استمد هذا الحزب ما عُرف به من روح الصراع والمقاومة من هذا الاضطهاد الذي اصطلاه به بسمارك اكثر من إرداتـــه الثورية ، واذ اصبح بعد وقت قصير من الزمن القوة الصناعية الاكثر والاحسن تنظيماً في اوروبا جمعاء ، فقد قدمت المانيا للعالم اجمع نموذجاً للاشتراكية النيابية حسنة التنظيم والانضباط عُرفت بـــالحذر والحسبان .

وهذا النموذج الجديد للاشتراكية برز كثير التعقيد والتشعب في البلدان الاوروبية الأخرى .

ان تطور المؤسسات والنظم التمثيلية ، وتوسيع القاعدة الشعبية للانتخابات ، وقصور المكاسب التي حققها النقابيون ، والنتائج الضئيلة التي أدت اليها الاضطرابات ، كل هذا وما اليه ، ساعد على ظهور الاحزاب الاشتراكية على المسرح السياسي بعد ان تقاسمتها فئـــات المطالبين بالحرية المطلقة ، والحزب الاصلاحي والحزب الماركسي ، وهي احزاب أخذت توصي بمجابهة الاحزاب البورجوازية ، على اساس من المعارضة المنهجية . اما الحزب الاصلاحي فقـــد تعرض للغوص في الوحل ، في تعاونه مع السوسيال ديموقراط الذين يكرهون الجماعية . وقد أطل علينا من جهة أخرى ، في الاطار الوطني ، بصورة اوضح ، مزاج خاص يؤذي حركة يجب ان تتصف بروح دولية . وهكذا طلع علينا عدد لا يحصى من الفئات والاحزاب السياسية ، اخـذت لها لبوساً شتى : إصلاحياً (المستطاعية في فرنسا ؛ النزعة الشرعية او التطورية في ايطاليا) ، بينما لبس الآخرون لباس الماركسية (هـذا وضع حزب العمال في غسد) وحزب العمال في بلجيكا الذي اتخذ قاعـــدة شعبية له التعاونيات ، ووطـــد نفسه حزباً بلدياً وفقـاً للتقاليد البلدية المرعية في البـــلاد الواطية ، ومن الوان الحزب العمالي الثوروي الحزب المعروف بـ *Communalisme* الذي كان يرمي الى اقامة سلطة بلدية فوضوية او شيوعية الذي ابتعد بدوره عن اتحـــاد العمال الاشتراكيين في فرنسا ؛ كما ابتعد عن مذهب الاستطاعية *Possibilisme* الذي هـدف الى السيطرة على المصالح العامة بينما تألف المذهب الفسدي مع بلانكية اللجنة المركزية الثورية . فقد أوجد له انصاراً في الشمال ، وفي الوسط حيث تقوم صناعات التعدين بينما تعتمد الاستطاعية على منطقة باريس .

وخلافاً لما يجري على القارة ، بقيت بريطانيا العظمى مستمسكة بالنشاط النقابي ، اذ آثرت المنظمات العمالية ان تؤثر على الحزبين التقليديين معاً في البلاد دون ان تلحـــق أي تشويش أو اضطراب باللعبة البرلمـــانية المعمول بها . فقد انتخبت ، عام ١٨٧٤ ، عاملين اعضاء في مجلس العموم ، و ١١ نائبـــاً من « العمال الاحرار » الذين اعطوا اصواتهم لغلادستون ، كما ان حزب الاصلاح الاشتراكي ، راح على مثال رسكين ، يحلم بالمدن ذات الحدائق ، وبمناهج تربوية كالجمعية الفابية ، مثلا (انشئت عام ١٨٨٤) . وعندما رأى حزب العمال المستقل النور عام ١٨٩٣ ، فقط كان ظهوره دعماً قوياً للنظام البرلماني .

وعندما توفي ماركس ، عام ١٨٨٣ ، بدا للناس وكأنه اعظم بكثير ممـــا كان في حياته . والجزء الاول من كتابه : « رأس المال » صدر عام ١٨٦٧ ، وترجم من بعـــد ، الى الفرنسية فالانكليزية وعرف عدة طبعات له بالالمانية . وقد تابـــع المجلس رسالة المعلم وانجز العمل العظيم . كذلك ترجم « البيان » الى عدة لغات ، والنداء الذي وجهه الى ابنـــاء البروليتاريا بالاتحاد والالتفاف حول العلم الاحمر ، تجاوبت اصداؤه في جميع اطراف العالم . وقـد كتب فيه ادوار فيان قائلا : « ان منزلة ماركس من هذا العصر ، بالنسبة للعلوم التـاريخية والاجتماعية ، هي منزلة دارون من العلوم الطبيعية . هذان الاسمان يبرزان فوق العلم الحديث . فما من احد ساهم

مثلهما على تسليح العقل البشري وتحريره كما فعلا » .

هنالك مجهود يبذل لتنظيم الشيوعية الدولية وجعلها فوق كل النزعات الاشتراكية وخلال المعرض الدولي في باريس عام ١٨٨٩ ، عقد مؤتمر سيطر عليه الماركسيون اتخذت فيه توصية بهذا المعنى وفيه اتخذ القرار بجعل اليوم الاول من ايار في كل سنة يوم مظاهرات عامة في جميع انحاء العالم ، بحيث يطالب العمال في كل صقع ومصر ومدينة ، السلطات العامة بجعل ساعات العمل في اليوم ثماني . وقد تميز اول ايار عام ١٨٨٦ ، في مدينة شيكاغو بفتنة لاهبة ، أخمدت بالدم .

عهد الاغتيالات الفوضوية

وقد نبذ انصار الحرية المطلقة الماركسية والمذهب الاصلاحي ، على السواء لشجبها كل دعاوة ذات طابع انتخابي ، وقد هبت على روسيا منذ عام ١٨٧٠ موجة جارفة من الارهاب . وعقد المذهب الفوضوي ، في لندن ، عام ١٨٨١ ، مؤتمراً كان من بعض مقرراته اللجوء الى «اعمال العنف» ، ورفع العلم الاسود . وستصبح الولايات المتحدة من جهة ، واوروبا الغربية من جهة ثانية ، مسرحاً لحوادث الاغتيال توجه ضد الافراد وضد المقتنيات . وحركة الاضطرابات هذه اشتدت في كل من فرنسا وبلجيكا ودول جنوبي اوروبا ، دون ان تستثنى دول اوروبا الشمالية . وقد نهض الايرلنديون بهذه الحركة في الجزر البريطانية قاصرين دعوتهـــا للاضراب على بعض الاوساط التي اظهرت بعض الاستعداد لتقبل نظريات برودون وباكونـين الهدامة . وعملت هـــذه الحركة في كل من ايطاليا واسبانيا ودول اميركا اللاتينية ، على إثارة الفتن وحرضت على القيام بها . ووقعت محاولات اغتيال عديدة ضد الملوك ورؤساء الحكومات في الوقت الذي استهدفت فيه حركة القمع توجيه ضربة شديد ضد الاشتراكية . وتحت مكافحة الاعمال الموجهة ضـــد الروح العسكرية اخذت الحركة المطالبة بالحرية المطلقة تتغلغل بشدة بين النقابات وتوجهها نحو نهج سياسة مستقلة عن الاضراب وخاصة نحـو المطالب التي تهدف صراحة الى الثورة .

الصراع المفتوح ضد الاضرابات العمالية وضد الاشتراكية

« الارض مغطـاة بجثث القتلى . ففي هـــذا المشهد المريع درس وعظة » (تيير — ٢٢ ايار ١٨٧١) .

وراحت المحاكم تصدر احكامها تباعاً ضد هذه النظريات وضد الرجال الذين يقفون في وجه النظام الرسمالي ، واخذوا يصورونهم ، بالكلام والكتابة ، اعداء السلطة الشرعية والحريات . فيهم الخطر كل الخطر على الامة وعلى السلام الدولي . فانضمت الكنائس الى العلمانيين للتدليل على ما هو عليه هذا الفريق الآثم من شر خبيث . وراح البابا بيوس التاسع يشجب بقوة هذه التعاليم التي يعتونها شيوعية « وهذه الانظمة الممنوعة ، وهذه الاضطرابات التي تهدف « الى مخالفة الشرائع السماوية والارضية » ، كما ان البابا ليون الثالث عشر . هاجم بمثل هذا العنف والشدة « هذه الطائفة » التي ترمي الى هدم حق التملك ، هذا الحق الذي هو من حقوق الانسان

الطبيعية ، والتي تغذي في النفوس ، « حقد الفقراء على اصحاب الاملاك » .

وارباب الاعمال يلجأون الى السلطات العامة عندما يرون انفسهم مهددين بالخطر، وكثيراً ما يأخذون المبادرة بأنفسهم . «فأنا حر باستخدام من ارغب باستخدامه في معاملي ومصانعي»، كان يصرح شنيدر لوفد من العمال جاء لمقابلته في كانون الثاني (يناير عام ١٨٧٠ ؛ «وافضل الف مرة ان تخمد النار في مسابك معاملي وتنطفىء الى الابد ، على ان انصاع تحت الضغط والتهديد » . وافضل جـــواب وانجع رد على محـــالفات العمال هـــو الطرد من الخـدمة وهي طريقة كثيراً مـــا اعتمدها ارباب العمل من الانكليز ، منذ عام ١٨١٥ . وقـامت بـــين ارباب العمل اتفاقات بالتراضي ، فتألفت في ايطاليا محالفات ليس بين ارباب الصناعة فحسب ، بـل ايضاً بين الملاكين واصحاب الاقطان الضخمة الذين اخذوا ينظمون حركة المقاومة في وجـــه المطالب التي يتقدم بها المرابعون والعمال المياومون .

العاملة الابوية والتشريع الاجتماعي

حـــدد الخبير الاقتصادي المتحرر لاروا بوليو الاشتراكية بانها « حالة مرضية » . فكيف يمكن ، ياترى ، معالجة هذا المرض ومداواته ؟

بلغ من حدة القضية العمالية بحيث لم يعد من المستطاع تجـــاهلها ولا مواجهة حلها بالبطش والعنف . وراح المعنيون بالامر يقلبون الرأي ويعدون الابحاث والتحقيقات حول هذه المشكلة الاجتماعية ، موجهين الاضواء الكشافة لاكتناهها على الوجه الصحيح، معربة عن حقيقة العذابات والضنك الذي يكتنف وضع العمال ، والذي راح كل من ميلرميه وفيلنوف بارجمونت يميطان اللثام عنها ، قبل عام ١٨٤٨ . فقد ارتسمت ، من جهة ، حركة ، تعاطف اشتراكية من وحي مسيحي ، قابلها من جهة اخرى، بين احرار البورجوازيين، حركة ، انسانية علمانية ، وحدت بينهما رغبة مشتركة في تخفيف ، ان لم يكن في ازالة ، هـــذه المساوىء والشرور التي تكتنف الطبقة البروليتارية ، وذلك عن طريق الاخذ باصلاحات لا تتعرض ، من قريب او من بعيد ، لمبادىء الملكية الخاصة ، ولا تضر قط بحرية العمل ، فعلى الطبقات الموجهة ان تتفهم الوجبات المترتبة عليها ، كما على الطبقات المرهقة ان تعترف باخلاص ونزاهة ، بالانجازات الاجتماعية التي تحققت لخيرها ونفعها .

وقامت البروتستانتية هنا بحركة اجتماعية شديدة جاءت تتجه لهذا العمل الاجتماعي الطيب الذي قامت به بعض الطوائف ، ووفاقاً للمبدأ الذي قال به وعلم بنتهام . فقد خطر لدزرائيلي نظام ملكي يستن له سياسة ابوية نحو العمال ، ولم يبد قط ان عضو المحافظين هذا كان بعيداً عن بسمارك في النظرية التي قال بها للضمان الاجـــتماعي . وقد خيم على النقابية العمالية جوديني بعث الدفء في الجمعية الفابيانية، ودفعت نحو حزب العمال العصبة المسيحية الاشتراكية وفي المانيا كانت فلسفة فخت والفلسفة الهيغلية قد مهدتا الطريق امام نظرية الدولة الابوية او الدولة العطوف.

ومن جهة اخرى ، فقد وجدت النقابات في المنهجية التاريخية عذراً لها وتبريراً لفوائدها ، هذه المنهجية التي انبثقت منها مدرسة روشير وهيلدبراند وبرنتانو، التي كانت تدعي بأنها تنبثق من الواقع وبأنها تحسب حساباً للتطور سيراً منها مع مذهب التقليدية الذي قال به الفقيه سافيني . ومهما يكن، فقد أطلت علينا حركة اشتراكية طموحة تبنتها الدولة في إثر ردبرتوس بعد ان تشبع لاسال من كتابه : « رسائل اجتماعية»وكذلك شمولر وادولف وغنر . والمنهاج الذي وضعه أيزيناخ هو بمثابة اعلان حرب حقيقي ضد مذهب كوبدن الذي كان من بعض تأثيره على بسمارك ان غرس فيه اليقين ووطد فيه الاعتقاد بان الامبراطورية الالمانية ستعرف كيف تصبح ، بعد لأي قصر ، نموذجاً يحتذى للدول الابوية .

وقد قام بين البروتستانية الفرنسيةوالفلسفة الوضعية اكثر من نقطة اتصال استطاع رينان ، في اعقاب حرب١٨٧٠ان ينتقد «حب الذات»مصدر الاشتراكية»والحسد مصدر الديمقوقراطية» كما اعجب تين بالروح التجريبية التي تمت للبريطانيين اعداء التجريد الكاسح . فهم يتمنون ، على شاكلة ليتريه ، حكومة رائدها العقل ، إصلاحية بحكمة وتعقل. فعقلية هؤلاء الجمهوريين الذين يشكلون الدولية الثالثة ويوجهونها تبرز ايضاً في هذه المحافل الماسونية حيث تدرس الموضوعات الانسانية الطابع وتناقش . فهي مدينة بعض الشيء لهذه الفلسفة التي قال بها رينوفييه الذي بعد ان شدد على ما للانسان من منزلة وكرامة، وعلى فكرة العدالة ،راح يوصي بفكرة التضامن والتعاضد التي تلقي على الدولة الديموقراطية واجبات شديدة من المتوجب عليها القيام بها في جو مشبع بالحرية . وها هو السيد له بلاي الذي عرف ان يربط بإحكام بين الفلسفة الوضيعة والكاثوليكية الاجتماعية ، راح هذا الباحث القدير يشيد بفضائل الاسرة ويعتمد على الاخلاق اكثر من اعتماده على التشريع في سبيل تحسين العلائق بين العامل ورب العمل ، ويرجو ان يعامل هذا ذاك كما يعامل الاب ابنه . ولكن كيف السبيل لنجعل من المعمل او المصنع شيئاً اشبه بالاسرة ؟ اليس بالعمل على إعادة الروح النقابية ؟

هنالك فريق من الكاثوليك المحافظين يتطلعون الى النظام القديم بما تحلى به من مراتب مسلسلة ومن طابع مسيحي، ونذر كل من المركيز دي لاتور والكونت دي مون—وكلاهما من ضباط الجيش المحترفين اعجبا وهما في الاسر في المانيا ، بالانجازات العظيمة التي حققها المطران كتلير ، نفسيها لتأسيس نواد للعمال الكاثوليك . وراح الاتحاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعية واتحاد فريبورغ الذي بعث فيه المطران فرميلود النشاط ، يسلقان بألسنة حداد النظام الرأسمالي و «عبادة العجل الذهبي» وتجلت فعلاً عام ١٨٨٦ الديموقراطية المسيحية بظهور الجمعية الكاثوليكية للشبيبة الفرنسية . وراح ليون هارمل من جهته يقوم بعمل رسولي خليق بكل تقدير في اوساط اصحاب المعامل الكبرى . واخذت هذه الارادات الطيبة تتوقع صدور إشارة مامن قداسة البابا . وتردد البابا ليون الثالث عشر في الامر ، وشجب النشاط الذي كان يقوم به فرسان العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، وابى على نفسه ان يؤازر هذا الفريق

من ابناء فرنسا الذين لا كلمة مسموعة لهم عند الزعماء الجمهوريين . ومع ذلك فرؤساء الاساقفة غيبونز وايرلند اخذا يعطفان على النقابيين الاميركيين ، كما ان رئيس الاساقفة مانتنغ راح يبذل وساطته لصالح عمال الارصفة المضربين في لندن . ونداء « الالتفاف » او التجمع حول الجمهورية الفرنسية الذي توقع الفاتيكان منه ان يحمل « التهدئة » الى البلاد ، قد يعني ايضاً اتفاقاً ضد الاشتراكية . من هنا تبدو اهمية البراءة البابوية التي يمكن اعتبارها البراءة الكاثوليكية الاولى للحركة الاشتراكية . وفي خطابه للحجاج الفرنسيين الذين قابلوه برئاسة دي مون ، راح البابا يؤكد بأن « القضية العمالية والاجتماعية لا يمكن لها ان تلاقي حلها المرتجى والعملي في الشرائع المدنية الصرفة حتى في افضلها . فالحل الامثل يتوقف كثيراً على الضمير والوجدان » .

كان من المفروض على السلطات المدنية والكنيسة ان تتعاون معاً وفقاً لتقاليدهما لتأمين القيام باعمال الاسعاف والوقاية . الا ان اعمال المؤاساة كانت تروح بالاخص الى المرضى والمشوهين والاولاد الذين تخلى عنهم والدوهم ، وقليلاً جدا الى الاسر المستورة . وقد جاء في تقرير وضع عام ١٨٧٤ : « التشريعات الفرنسية التي تنظم الاحسان اساسها المبدأ القائل ان واجبات المجتمع الادبية ان لا يترك متألماً ما دونما علاج . فالاحسان الموجه للمعوزين لا يمكن المطالبة به كواجب مفروض » .

شهدت المانيا أول ما شهدت طلوع الدولة الوالدية ، وذلك عندما صدر فيها اول تشريع يجعل الضمان الاجتماعي إلزامياً . وقد تبلور مفهوم هذا الضمان ، شيئاً فشيئاً وتجلى على أتمه بانشاء تعاونية وصندوق نقابي . ثم صدر قانون آخر اولى الحكومة صلاحية تشكيل ادارة خاصة أنيطت بها مهمة مراقبة النقابات المهنية التي تنشأ فيها صناديق اسعاف . ومع ذلك فبسمارك يتردد كثيراً قبل ان يخطو الخطوة الحاسمة وذلك لارتباطه باتفاق مع حزب الاحرار . وراح الكاثوليك في المانيا والحزب الانجيلي يطالبون بتشريع يسيج حول العمل والعمال بحيث يقطع الطريق على الدعاية الاشتراكية . وفي بيان له منشور ، راح الحزب الوسط في الرايشتاخ يعرب عن تمنياته باستصدار قانون خاص ينظم العمل والعمال . وبعد ان اعتمد مستشار المانيا على حزب المحافظين والحزب الكاثوليكي ، فاز بالتصويت على الضمانات الثلاث : ضمان الحوادث ، ضمان المرض وضمان الشيخوخة والعجز عن العمل . إلا انه رفض ضمان البطالة والاضراب . وبعد ان راح يستشهد بفكرة الطمأنينة ، دعا أرباب العمل والعمال للتعاون معاً تحت رعاية الرايخ كما عزم عزماً اكيداً على تنظيم العمل بما يضمن ازدهار الاقتصاد الالماني . ولما كان الامبراطور متشبعاً بروح السلطة ، دعا غليوم الثاني الى مؤتمر دولي للنظر بامور العمل يعقد في برلين عام ١٨٨٩ ، راح فيه ممثله الشخصي يؤكد قائلا : « لما كان العمال لا ثقة لهم باخلاق البورجوازية ، فهم يتوجهون بمطالبهم نحو التشريع الرسمي » .

وقد اعترف للعامل بحرية تشكيل الاتحادات العمالية مع حق تأليف الجمعيات ، وهي تنازلات محسوسة نعم بها العامل . كان ذلك ضربة شديدة توجه للروح التحررية الفردية بنوع

خاص كما تؤلف الى حد ما عودة الى فكرة التجمع المهني والمسلكي . ولما كانت هذه الحركة الاصلاحية لا تطبق على الموظفين والعمال العاملين في خدمة الدولة ، كان باستطاعة ارباب العمل ان يستفيدوا منها فائدة كبرى . ولما كان القانون الفرنسي الصادر عام ١٨٨٤ يخضع النقابات للتفتيش ويقصر نشاطاتها على «الدرس وعلى الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والصناعية والتجارية والزراعية ، كان المطلوب ، حسب رأي غسد ، تطبيق قانون لوشابلييه على « مقتضيات الرأسمالية المستجدة » وبدرجة اقل إلغاء هذا القانون . ومهما كان من الامر ، فالاعتراف للطبقات المتنافسة بحق تنظيم صفوفها ، لا يساعد على التهدئة والمسالمة ، الامر الذي اولى النقابة المختلطة هذا الحق الذي تتمتع به في بعض الاوساط الكاثوليكية . والحال ، لم نر في اي محل كان ، طريق التوفيق والتهدئة تعمل بصورة فعالة (من ذلك مثلاً الطريقة الفرنسية التي توصي بتأليف لجنة محكمين اعضاؤها منتخبون بين العمال وارباب العمل او لجنة من المحكمين ، كما هي الحال في كل من المانيا وانكلترا)

والتشريع الذي صدر بشأن «العمل: مداه وظروفه» ، كان هو الآخر كردة فعل ضد النظرية التحررية [1] . تاريخ معقد ومتشعب تألف من توصيات واحكام عديدة ، تطرح دوماً من جديد على بساط البحث امام الشارع الذي يرغب في وضعها موضع التنفيذ .

قليلة جداً هذه القوانين التي تعرضت لسكن العمال . فالقوانين التي حددت في انكلترا نماذج في بيوت السكن في المدن ، توجب على المالك القيام بالاصلاحات التي تقتضيها اوضاع البيوت . وراحت بعض المدن الانكليزية ، كمدينة برمنغهام مثلاً ، باقتراح من تشمبرلن ، تدرج في التصميمات التي تضعها لتحسين المدن ، مساكن العمال . وفي المانيا كانت الدولة توزع مساعدات للمدن ولارباب العمل تعطى للشركات وتعاونيات البناء . وهكذا تصرف اصحاب معامل كروب وغيرهم من ارباب العمل . الا ان المتبع ، على الاجمال هو ان هذه النزعة الابوية والرأسمالية كانت تؤثر تشييد ابنية خاصة للايجار تؤمن لاصحابها دخلاً في السنة . فالمستخدم قلما يتمكن ، بالنظر للأجر الضئيل الذي يتناوله ، ان يستمتع بمنزل لائق مستوف لجميع الشروط .

آمال وحدود الحركة النقابية

عندما يتعاون الناس ويشاركون في انتاج بعض السلع او في تنفيقها ، لا يفعلون ذلك بالضرورة بدافع منهم للربح والإثراء ، وهي فكرة كثيراً ما راودت خواطر اعضاء الجمعيات الراغبة في الوصول الى طريقة

---

(١) بقيت هذه الظروف قاسية على الاجمال . فالعامل في المنجم بقي ، كالسابق عرضة لامراض عدة كذات الرئة والسل ، كما ان العمل في معامل الكبريت وعيدان الثقاب كان يعرض العامل للتسمم وبالتالي للموت ، وكذلك العمل بالقصدير في معامل القصدير ، وصانع السكاكين عرضة للهيب لعدم استعمال ما يقيه لفح النار ، وكذلك الزجاج الذي ينفخ بواسطة انبوب الحديد ، وهو عمل يسبب تشقق الشفاه وانتفاخ الوجنات وظهور بثور في مجرى اللعاب ، ويعرض صاحبه للفتق ولانتفاخ حويصلات الرئة .

كاملة للتنظيم او للتجديد الاجتماعي عن طريق الحرية الشخصية وفي حدودها . « فالمهدون العدُل »الذين قاموا في روشدايل ، عمدوا ، بادىء الامر ، الى تشكيل تعاونية للاستهلاك ، الغاية منها بيع حاجيات ذات منفعة عامة يشتد عليها الطلب ، بادنى سعر ممكن ، مع حسم صغير على الربح يكون بنسبة الكمية التي يشتريها الزُبن الذين هم بالضرورة من حملة الاسهم في التعاونية . وقد انتقلت العدوى والعمل بهذا النظام الى حرف اخرى ، كالخبازين مثلاً. وهكذا استطاع مخزن روشدايل ان يقترح على زبائنه تنفيق بعض الحاجيات التي تولى صنعها . ولما رأى الشارع بكل ارتياح هذا المشروع ينمو ويتطور ، فلم يلبث ان اضفى عليه وجوداً شرعياً وصفة قانونية . وحدث بعد ذلك ان بعض المحلات التجارية التي تبيع بالجملة ، في منشستر وفي غلاسكو ، وسعت في نشاطها التجاري بحيث امتد الى اطراف العالم ؛ وقد بلغ من إقدامهم وجرأتهم ان اشتروا بعض مزدرعات الشاي في سيلان واراضي زراعية واسعة في كندا وحقول النخيل في سيراليون ، حتى ان بعض هذه المحلات استحال مصارف تعاونية ، واقبلت على صناعة البسكوت ومعلبات اللحم والالبسة والمفروشات حتى والتبغ ، بعد ان كان متشل ومكسويل وامثالهم روح النشاط والحركة فيها .

وهذه التعاونيات الانتاجية بدت مغرية جذابة في نظر بوشير ولويس بلان في فرنسا . الا ان الشركاء في مشروع الاستثمار هذا صعب عليهم ان يدركوا ان مصلحتهم تقوم في استثمار ارباحهم في مشروعات تتيح لهم التوسع تدريجياً في الاعمال . وكان جواب تيير لاعضاء المجلس التأسيسي الذين راحوا يطالبون ، عام ١٨٤٨ ، باعتمادات خاصة : « ليس بثلاثة ملايين يجب ان تطالبو ، بل بعشرين مليوناً . فانا على استعداد كلي لمنحكم اياها ، اذ ليس بكثير قط ان ارفع مثل هذا المبلغ لأثبت لكم خواء هذه الشركة وعدم كفاءتها » ، ومع ذلك فقد جرت بعض التجارب في باريس . فقد عهدت الكومون الى بعض اللجان الخاصة بمهمة ادارة بعض المصانع التي تخلى عنها اصحابها ، كما ان مؤتمرات العمال التي تم عقدها بعد عام ١٨٧٠ اخذت بمناقشة الموضوع . الا ان الاشتراكيين بقوا متحفظين حيال هذه القضايا . ورأى غسد ، على غرار بلانكي ان هذا النوع من التعاونيات لن يلبث ان يحمل البروليتاريا على النعاس. حقق المشروع بعض التقدم حوالي ١٩٠٠ . اما عند البريطانيين ، فبالرغم من الدعاية التي قام بها القسيسان موريس وكنغسلي والمحاميان لدلو وفانسيتارت نيل ،فقد دام إعراض الحركة النقابية والرأي العام طويلاً ، ولم تسجل القضية اي تقدم الا عام ١٨٨٤ ، مع ظهور جمعية العمل التعاونية .

اما خطة إشراك اصحاب الاجور بالارباح ، فقد جاءت اقل توفيقاً ورواجاً . فقد راح عامل رسّام يؤسس عام ١٨٢٧ لحسابه الخاص محلاً استطاع ان يقنع بعض العمال بمشاركته والمساهمة به . الا ان مشروعه هذا لم يلبث ان اصبح برمته بين ايديهم . وراح المدعو غودين ينظم هو الآخر ، في مدينة غيز ، مشروع استثمار عائلي ، الا انه اضطر بعد قليل للتخلي عن مشروعه

العمال العاملين فيه . وهنالك بعض المشاريع من هذا النوع قامت على هذا الاساس ، بينها مطابع ، والـ *Bon Marché* ومناجم بريغز –في يوركشير ، وشركة الغاز في مدينة لندن ، ومعامل الجمعة البرلينية لصاحبها بوروشرت . فقد تعرضت كلها لهذه الخصومات والمناقسات التي وقعت بين الاشتراكيين واصحاب العمل .

الا ان التسليف الزراعي سار بنجاح . ومثل هذا المشروع قلما يخدم مصلحة طبقة البروليتاريا الذين لا تتوفر لهم الامكانات والطاقات المالية ، مثلما يخدم مجموعة من صغار الملاكين الفلاحين الذين يحتاجون في اعمالهم ومشروعاتهم لعملية تسليف طويلة الاجل . فقد وضع برودون اصبعه على الجرح وحاول وصف العلاج اللازم لبرئه عندما اخذ يفكر بإنشاء مصرف شعبي . الا ان النجاح اصاب هذه المشاريع التي قامت في المانيا ، كالمشاريع التي تمت على يد رايفيزن وشولز ، تخصص اولها في الامور الزراعية كما اتجه الثاني للجميع من سكان المدن والريف على السواء . وقد فتحت مصارف من هذا النوع في جميع البلاد .

والازمة التي ألمت بالريف ، في ذلك الوقت ، ساعدت كثيراً على نشر نظام التعاونيات الزراعية التي تعاطت على السواء ، الشراء او البيع او الاثنين معاً . ومثل هذه المشاريع تروق للفلاح الذي يتمكن ، بمثل هذه الطريقة ، من ان يؤمن له ، كل ما يحتاج اليه من الادوات الزراعية والأسمدة ويجد اسواقاً لتنفيق محاصيله . وهكذا قامت في الدانمارك وازدهرت تعاونيات للزبدة ، كما قامت في مقاطعة الجورا ، تعاونيات للاجبان والفاكهة .

فالتعاونية ، على هذا الشكل تصبح طريقة سهلة من مصالح المهنة . فكل همها ان تحصل تخفيضاً محسوساً لاعضائها في اسعار الكلفة وزيادة في ارباحهم ، مع العلم ان اعضاء المجتمع لا يفيدون منها بالضرورة .

وفكرة تعاونية التوزيع التي تنتجه من المستهلكين عرفت الازدهار والرواج بفضل هذه الازمات الاقتصادية التي وقعت بين ١٨٧٥ -- ١٨٩٥ . وراح بعض رجال الاقتصاد « العلماء » ، امثال والراس ومنجر يبثون بين الناس فكرة تقديم الاستهلاك على الانتاج ، وهي فكرة تبنتها مدرسة نيم بعد ان بعث فيها شارل جيد النشاط . وفي السويد وبلجيكا عن طريق فورويت ، وفي انكلترا بواسطة كتابات ويب ، راح الناس يحلمون بجمهورية اشتراكية لها القدرة على إشباع احتياجات الناس دون إلحاق الضرر بأجور يحل فيها الحسم المضاف الى الرأسمال محل الربح .

ويرى معارضو هذه الحركة وشاجبوها ان النظام التعاوني الذي فشل في اجتذاب رؤوس الاموال اللازمة ، عجز كذلك عن فرض نفسه في قلب النظام الرأسمالي ، واذ لم يكن في وسعه ان يبيع بالدين ، كان لا بد من ان يفشل في تغيير او تعديل الظروف التي تكتنف حياة البروليتاريا .

هنالك ولا شك فريق من اصحاب الاجور حسنت اوضاعهم المادية من جراء التحسن الفعلي الذي طرأ على مرتباتهم بقطع النظر عن التحسن الاسمي . الا ان التحسن المادي في بعض اوساط البروليتاريا على الاجمال هو اقل ظهوراً للعيان منه لدى البورجوازية . هل نحن يا ترى

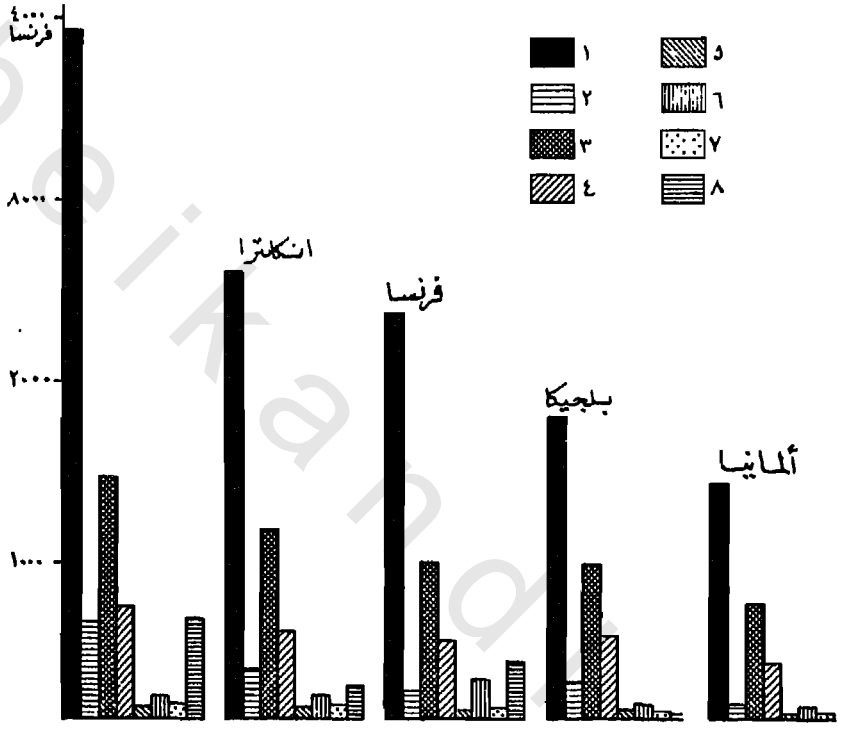

شكل رقم ١٩ ـ الاجور والنفقات السنوية . مقارنة بين ٦٢٣ اسرة عمالية في صناعة الحديد ، موزعة بين ٥ بلدان

١ ـ المرتب ؛ ٢ ـ الايجار ؛ ٣ ـ الغذاء ؛ ٤ ـ اللباس ؛ ٥ ـ القراءة والمطالعة ؛ ٦ ـ المشروبات (بينها الكحول) ؛ ٧ ـ التبغ ؛ ٨ ـ الوقر .

(تتحقيق قامت به وزارة العمل الاميركية ، منقول عن غولد : الوضع الاجتماعي للعمل ، ١٨٩٣).

امام حركة افتقار تصاعدية ؟ ان عملية مقارنة بين النفقات التي يستطيع رب عمل ، من جهة تحملها ، ومن جهة اخرى ، عامل يعمل في المشروع ذاته ، تستطيع وحدها ان توفر لنا عناصر الجواب عن هذا السؤال . فالاحصاءات التي تمت في هذه الناحية انحصرت كلها في موازنة العامل .

من هذه الابحاث والتحقيقات التي قام بهـــا مكتب العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، يتضح لنا ان العامل في الصناعة المعدنية ، مثلا، تستهلك اعاشته نصف مرتبه تقريباً او اكثر من ذلك بقليل ، ولا يبقى له بالتالي الا القليل لايجار منزله ولباسه وتغطية نفقات ثانية اخرى كالمشروبات والقراءة والتدخين ، اما السكن فيعود على الانكليزي والبلجيكي اغلى مما يعود على الفرنسي والالماني ، او انهم يكرسون له مبلغاً اعلى نسبياً . فالالماني يكتسي بثياب اقل جودة وأرخص بالطبع . واذا كان معروفاً عن الفرنسي انه اكثر تعاطياً للشرب ، فلأن النبيذ قد عد بين المشروبات الكحولية . فالتوفير يكاد لا يظهر على البلجيكي وعلى الالماني ، ويصبح محسوساً عند الانكليزي ولا سيما عند الفرنسي .

فاذا ما قارنا بين وضع العمال الاوروبيين والاميركيين لاتضح لنا جليا انخفاض الوضع عند الآخرين[1] . ومن ثم فالتوازن لا يمكن تأمينه الا بعمل المرأة ، ان الرجل ، انكليزيا كان أو فرنسياً ، لا يحصل الا ٤/٣ موازنة اسرته والبلجيكي ٥/٣ ، والالماني ٧/٦ ، والاميركي ١٠/٩ موازنته السنوية .

ان معظم الاسر العمالية التي قام بدراسة عنها في الحي الثالث عشر من احيـــاء باريس كل من درمسنيل ومنجنو ، تخصص لايجـــار سكنهـــا من سدس الى نصف دخلهـــا . وبعد حسم نفقة الايجار هذه ، لم يبق لـ ١٣٤ اسرة من اصل ١٨٦٦ اسرة جرى درسها سوى ٤٠٠ فرنك يجب ان تكفيها للسنة كلها . فالبعض من هذه الاسر يخصص من ١٥–٢٠ سنتيماً للفرد الواحد كمصروف يومي لغذائه ولباسه ، مع العلم أن كيـــلو الخبز يساوي ٢٥ سنتيماً ، وكيلو اللحم فرنك ونصف ، والسكر ٧٥ سنتيما . فما من احد ينفق فرنكاً في اليوم على فرد واحـــد . وفي بروسيـــا حوالي عام ١٨٦٠ . كانت الفئات الاكثر فقراً تخصص من ٦٠ –٦٦ من دخلها لتأمين حاجتها من المواد الغذائية ، بينما أحسنهم وضعاً كان يخصص من ٨ – ١٠٪ من دخلهم . وكان العامل الالماني في برلين الذي يشتغل في مصنع الابنوس او في ادارة سكة الحديد يقبض ، عام ١٨٨٨ نحواً من ١٠٢٤ ماركاً ، يدفع منها ١٦٨ ماركاً اجرة غرفـــة مع مطبخها (المطبخ دون نافذة) وكان ينفق على طعامه ٥٧٤ ماركاً ، ويغادر مسكنه صباحا بعد ان يكون تناول في الصباح كوباً من جريش القمح (بمثابة قهوة) مع حليب وسكر وينتقل على نفقته حاملا معه من المقانق ما ثمنه ١٠ *Pfennigs* ، ويتناول في المساء حساء من الخضار والبطاطا. والعائلة تنفق من ٢– ٤ ليبرات من اللحم في الاسبوع، ولا تخصص اكثر من ٤٢ ماركاً للملبوس. وكتب المدرسة ثمنها ٩ ماركات ، كما كان عليها ان تخصص ٧ ماركات ثمن الصابون لاعمـــال التنظيفات . الا ان وضع الاسرة لا يسمح لها بشراء جريدة .

فالضنك والعوز هما ابداً ضيفان ثقيلان يحلان على الاسرة بقطع النظر من هبوط الاسعار .

دليلان على تحسن الوضع الاجتماعي صحة احسن واخلاق انعم

ولكن أكان من حق الناس في اوروبا ان يستسلموا لليأس ؟ ان مدى الحياة يستطيل على الاجمال. فمعدل الحياة ارتفع ، في فرنسا، بين ١٨٢٠ ـ ١٨٣٠ ، من ٣٨ الى ٤٦ ، والشيخوخة بين الناس خففت من تقهقر معدل المواليد في البلاد . فاذا كان هذا الانكفاء او الانحسار الذي يمكن رده الى تناقص البؤس والشقاء لا يزال يقلق بعض المواطنين ، فتناقص معدل الوفيات يجب ان يدخل خانة حسنات الحضارة . فقد كان معدل الوفيات ٣١ بالألف في اوروبا ، عام ١٨٥٠ ، فهبط الى ٢٦٪ خلال الفترة الواقعة بين ١٨٩١ – ١٩٠٠ .

وطال امد الحياة لدى الانسان لان الاسباب التي كانت تعجل من وفاته اخذت بالزوال الآن (كالحرب) او ان تأثيرها ضَعف وخف . وبفضل التحسين العام الذي طرأ على وسائل التغذية سجلت مكافحة المرض تطوراً ملحوظاً ، تباين الشعور بها ، في اوروبا ، باختلاف البلدان والطبقات الاجتماعية ، وهو تقدم لا يمكن لاحد نكرانه . وهذه الأمراض التي تسير دوماً في ركاب الحرب كالوباء والتيفوس اصبحت الآن في خبر كان (مع أن الأول زرع الرعب بين الناس في سنة ١٨٨٤ – ١٨٨٧ ، وفي سنة ١٨٩٢ ، والثاني انتشر في جنوبي فرنسا عام ١٨٩٩ – ١٩٠٠) . ومعظم الامراض السارية ، تناقص عدد ضحاياها ؛ فالامراض الزهرية تحسنت كثيراً وسائل معالجتها[1] . وقد تراجع ايضاً مرض التدرن الرئوي في بعض البلدان ، كإنكلترا مثلاً ، بينما فتك فتكاً ذريعاً في فرنسا . كذلك تعاطي المسكرات الكحولية التي جرت مكافحتها بنجاح في انكلترا والتي أتت مكافحتها بنتائج طيبة في البلدان السكندينافية وفي هولندا ، عد من الاوبئة الجديدة التي اشتدت وطأتها في بعض البلدان ، من بينها فرنسا ، حيث ارتفع معدل استهلاك الخمور والمشروبات الكحولية، كما ازداد عدد محلات بيع هذه المشروبات بكثرة. كذلك نلاحظ ارتفاع معدل الذين يدخلون مستشفيات الامراض العقلية ، ومعدل حوادث الانتحار . ومع ذلك فحوادث الاجرام يهبط معدلها .

ولما كانت غريزة الكبح في الانسان وعقيدة التكفير اخذت ترجح تدريجياً على فكرة التخويف وعلى الامل المعقود على التأديب الاصلاحي ، فقد اخذت الشرائع الجنائية تفقد شيئاً

---

(١) ففي ايطاليا حيث الوفيات كانت تعد باللايين ، هبط معدلها بين ١٨٨٧ ـ ١٩٠٧ من ٥٣٤ الى ١٣ في مرض الجدري ، ومن ٨٨٢ الى ٢٢٥ في مرض التيفوئيد ، ومن ٥٩٥ الى ٢٥ للملاريا ، ومن ١١٥ الى ٤٨ في مرض الحصاف او البلاغرا . اما في انكلترا ، فقد احصوا، للفترتين الواقعتين بين ١٨٧٦ ـ ١٨٧٠ و ١٩٠١ ـ ١٩٠٥ ما معدله ٩٥٩ و ١٢٥ لضحايا الحمى القرمزية ، و ٨٤٩ و ١١٦ لضحايا التيفوئيد ، و ٥٣٥ و ٣٠٠ لمرض الواق (الشهقة) ؛ و ٢٠٨ و ١٦ لضحايا الخناق؛ و ٢٤٤٧ و ٢١٥ لضحايا التدرن الرئوي وهبط معدل الرجال المصابين بمرض الزهري من ٥٤ بالالف الى ٢١ بالالف في الجيش البروسياني ؛ بين ١٨٦٧ و ١٩١٣ ، كما هبط من ٩٥ بالالف الى ٥٩ بالالف في الجيش الايطالي بين ١٨٦٧ ـ ١٩٠٥ ، وهبط من ٧٦ بالالف الى ٥٥ بالالف في الجيش النمساوي الهنغاري ،بين ١٨٧٠ ـ ١٩١١ ، ومن ٥٤ بالالف الى ١٧ بالالف في الجيش الفرنسي بين ١٨٧٦ و ١٩١٣ ، ومن ٢٢٤ بالالف الى ٥٢ بالالف في الجيش الانكليزي في انكلترا بين ١٨٨٥ ـ ١٩١٣ ، كما ارتفع هذا المعدل في كل حرب استعمارية (تونس ـ الحبشة ـ الترنسفال).

فشيئاً من قوتها . ولم تطبق انكلترا منذ عام ١٨٢٣ ، وبلجيكا منذ عـــام ١٨٦٧ ، الا بصورة استثنائية،عقوبة الاعدام ، بينما قررت البرتغال والبلاد الواطية ، وايطاليا فيما بعد ، إلغاء هذه العقوبة . وفي فرنسا اخذوا يواجهون تعديل احكام القانون الجنائي بقصد التخفيف من هـــذه العقوبة تدريجياً منذ عام ١٨٣٢ ، وبعد أن راح كل من بكاريا وهوارد ، ومن بعدهما بنتام، بمهاجمة عقوبة النفي والابعاد ، اصبحت هذه العقوبة مثالا للجدل والنقاش الطويلين في البـــلاد ، فقد اتجهت الافكار الى الجزائر ثم وقع الاختيار على الغويان الى ان استقر في نهـــاية المطاف على كاليدونيا الجديدة . وهكذا احتفظوا بعقوبة اللومان او السجن المؤبد ليس فقط عند استبدال عقوبة الموت بالسجن المؤبد ، بل ايضاً لمن يحاول التعرض لحق التملك (ان شخصية جان فالجان مجرد شخصية خيالية او روائية او من يهدد امن الدولة وسلامتها) فالحكم على الضابط دريفوس كان له دوياً عظيماً ، وقد زالت بالتالي العقوبات الجسدية من نظام السجون ، بينما رأى فيهـــا البعض تدبيراً تأديبياً لا غبار عليه قط .

أما المرأة العاثرة فقد بقي مصيرها مؤلماً للغاية . وبالرغم من الدعوة لادخالها احـــدى دور الرعاية او ملجأ خاصاً فقد اخضعت لمراقبة شديدة محطة وغير ناجعة من قبل شرطة الأخـلاق التي لم تستطع أو لم ترد ان تضع حداً للنخاسة بين البيض ، كما ان اغلاق بيوت الدعارة في كل من برلين وفي انكلترا لم يضع حداً للبغاء . وقد تبدى للمراقبين بأن هـــذا النشوز يجب رده الى البؤس اكثر منه الى حب الرذيلة ، والى تخلي المضل عن ضحيته بعد ان يكون غرر بهـا ، والى عمل القوادين او المستثمرين للنساء والى فرض الاقامة على بنات الهوى. وكان من تأثير الاعراف والعادات المعمول بها ان كثيراً ما أدت الى اقدام الفتاة التي تضع سفاحاً على قتل طفلها كما ان الولد غير الشرعي يبقى منبوذاً في المجتمع .

وبدون أن تصبح مساوية للرجل في الحقوق اخذت رفيقته مع ذلك تتحرر شيئاً فشيئاً من هذه المقعدات التي تحط من شأنها. فباستثناء فرنسا حيث الطلاق اصبح مشروعاً ،هنالك بعض البلدان،معظمها على البروتستانتية،أباحت للمرأة قطع الرباط الزوجي كلما كانت الزوجة في وضع يجلب لها الذل وتتعرض فيه للهانة . وخلافاً لبرودون الذي لم يرَ في المرأة غير ربة مـنزل او خليلة ، فقد استطاعت المرأة على اقدار متفاوتة من النجاح ان تفتح أمامها أبواب الجـــامعة والمعاهد الثانوية ، كما فتحت امامها ابواب المهن الحرة والوظائف العامة . فاذا ما أثارت حركة تحرير المرأة التي قامت في فرنسا بعض النساء امثال جورج صاند وفلورا تريستان وبولين رولان ، الحذر والتحرز اكثر من التعاطف والتشجيع ، فالدعاية التي قامت بها الآنسة فولستون كرافت ومطالبة جون ستيوارت مل بالاقتراع العام لم تذهب سدى . فقد اعترفت كل من انكلـــترا والسويد بهذا الحق ولو حصرته الاخيرة منهما بالانتخابات البلدية . ومساهمة المرأة في تولي ادارة الشؤون العامة ، امر لا يثير اي اعتراض من قبل الذين لا يعترفون لها بحق المساواة المـــدنية فحسب ، بل ايضاً يقرون بمقدرتها في كل ما يتعلق بشؤون التعليم والصحة .

فاسمع ما كان يصرح به الاب فنتوراه بهذا الصدد : « الحضارة هي قبل كل شيء احترام المرأة » .

خطر السلام القائم على التسلح وضآلة مكاسب القانون الدولي

كان اميل جيرار دين يردد : « المدنية هي السلام » ثم يضيف قائلا : « الضمانة الوحيدة ضد القوي هي الوضع الذي تكون عليه المدنية » . في هذا يكمن الالتباس المخيف. فقبل عام ١٨٤٨ كان الحلف المقدس يتحكم بالدول الصغيرة اكثر مما كان يشركها في الحكم . ومع ذلك ، فاذا ما راح بعض المفكرين امثال جوزف دي مستر وفخت وهيغل يعتقدون بأن لا مندوحة عن الحرب ، فقد راح كثيرون غيرهم كالكويكرز واتباع بنتام ، والسان سيمونيين ، وتلاميذ فوريه ومازيني وبرودون يحبذون تأليف بعض تشكيلات فدرالية من شأنها ، في نظرهم ، ان تضع حداً للحروب . وراح المطالبون باطلاق حرية التبادل التجاري ، في كل من انكلترا وفرنسا يدلون بدلائهم في هذا الاتجاه . فاجتمع في باريس ، عام ١٨٤٩ ، مؤتمر للسلام دُعي هوغو لترؤسه وأسندت نيابة الرئاسة فيه الى كوبدن ، وخرج المؤتمرون بالشعار التالي : « الولايات المتحدة الاميركية » ، وهذا الشعار نفسه كان شعار الجريدة التي اصدرتها عصبة السلام والحرية في اعقاب مؤتمر عقد في ما بعد ، في جنيف عام ١٨٦٧ .

وعادت الحروب للظهور من جديد ، ولم تلبث اوروبا ان عاشت في ظل سلام مسلح الحكم فيه ألمانيا البسماركية ، اذ راح المنتصرون في حرب ١٨٧٠ يدعون لانفسهم انهم حماة النظام الجديد في اوروبا ، بينما الفتوحات التي حققوها ، والقوة العسكرية التي تمت لهم ، أولتهم السيطرة على اوروبا، هذه السيطرة التي رفض البعض الاعتراف بها بينما خضع لها البعض الآخر ، وشجعت السباق الى التسلح ، وهو سباق كان يكلف اوروبا من خمسة الى عشرة مليارات فرنك كل سنة وكان يستدعي للخدمة العسكرية الفعلية من اربعة الى خمسة ملايين جندي بصورة مستمرة. وقد رضي بعضهم بهذا الوضع معترفين مع سبنسر بأن السلم المسلح هو شر اخف وله بعض الحظ بالاستمرار والديمومة ، مهما بهظت تكاليفه ومهما بدا سريع الزوال ، في الظاهر .

وفكرة اوروبا واحدة موحدة ، مسيحية، ملكية كما تمنوها في بدء الامر ، عاد لتبنيها دونما نجاح يذكر ، انصار الجمهورية واصحاب حرية الفكر الذين انضم اليهم ، فيما بعد المطالبون بحرية التبادل التجاري . وفي اعقاب حرب ١٨٧٠ ، اخذت الحركة الاشتراكية تدعو الشعوب للوقوف في وجه مستثمريهم من اصحاب رؤوس الاموال ، وان يضعوا فوق كل اعتبار ، تضامن العمال العام وتآزرهم ، بينما مضت الكنائس والنفوس المؤمنة تبتهل وتضرع الى رب السلام ، لاشاعة السلام على الارض . وراح الفقهاء المتشرعون والدبلوماسيون يبسّطون للناس مفهوم الحق العام ويعملون على توطيده . وتألفت جمعية تتولى ابراز هذا الحق والتشريع له والتسييج حوله، كما ان اعضاء المعهد الدولي للقانون، اخذوا بعقد مؤتمرات عامة سنة بعد سنة، وراح مفكرون امثال لوريمر وبلونتشلي ومارتنز وفيور يطيلون النظر فيما عسى ان تكون عليه

المنظمات الفدرالية او الكونفدرالية ، كما رفع ايزمبير بذلك تقريراً عاماً رفعه الى مؤتمر العلوم السياسية عند انعقاده في باريس عام ١٩٠٠ .

وقد أثارت فكرة التحكيم الدولي مخاوف وظنون الدول التي كانت تخشى ان تفقدها هذه المنظمة شيئاً من حقوق السيادة والاستقلال . وعبثاً راح مؤتمر باريس المعقود عام ١٨٥٦ يوحي بالرجوع الى وساطة او تحكيم دولة صديقة ، قبل اللجوء الى السيف . وعبثاً ذهبت النتائج الطيبة التي أسفر عنها مؤتمر جنيف المعقود عام ١٨٧٢ للنظر في الاختلاف الناشب بين انكلترا والولايات المتحدة الاميركية بخصوص مقاطعة ألاباما ، فأثبتت هذه القضية ان الحكم الصادر عن مجلس العدل الدولي يمكن تطبيقه . ولعل اهم القرارات التي صدرت عن محكمة العدل هي تلك القرارات التي رمت الى تحسين اوضاع الحروب والتخفيف من ظروفها ويلاتها ، من ذلك مثلا مؤتمر جنيف الذي عقد عام ١٨٦٤ ، والذي دوّل الخدمات التي توفرها مؤسسة إسعاف عرفت بالصليب الاحمر الدولي ، والخدمات الصحية في الجيش ، واخيراً التوصية التي اتخذها مؤتمر بطرسبورغ عام ١٨٦٨ ، بعدم استخدام رصاص دمدم .

نتائج حقيرة جداً بالنسبة لهذه المخاطر التي هددت المجتمع الاوروبي المنقسم الى دول وطنية تحافظ جهدها على ما يشبه ان يكون هدنة ، بينما تتهيأ بحرارة واندفاع وبدون انقطاع للمعركة الفاصلة. هناك خطر كبير دائم يتهدد هذه المدنية التي تعمل باستمرار على تحسين وسائل التخريب والدمار ، كما تعنى من جهة اخرى ، بأسباب إطالة الحياة .

الفصل الخامس

بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط
الـــدول الاوروبيـــه

« قوام القومية لا يقوم على العرق ولا على اللغة »
(فوستيل دي كولانج ـ الى بسمن ـ ١٨٧٠)

وجه بارز القسمات نافر التقاطع ، هكذا تبدو اوروبا في ديمومتها . فبالرغم من يســر المواصلات وسهولتها ، والمكاسب التي حققها هــذا الطراز السوي ذو الطابع المدني والصناعي ، فقد عرفت غرائز الدول القومية فيها كيف تحافظ على سماتها وكيف تتحامى . وقد شهدت اوروبا عمليات تجمع جغرافي وتركيز قومي . قامت على اعتبارات قومية ، ان لم تفض الى فك اوصال الملكيات الدانوبية والروسية ، ساعدت على التجمع الالماني والايطالي ؛ الا ان تقهقر تركيا وسيرها من سيء الى أسوأ فتح المجال امام « بلقنة » ، شبه الجزيرة الواقعة جنوبي شرقي اوروبا . وقد برزت بعد هذا كله ، مفارقات عدة ، تمركزت في المنطقة الشمالية الغربية المتطور ، وفي المنطقة القلبية الشمالية ، والمنطقة الواقعة الى الجنوب والى الشرق ، المتميزة بضعف حيويتها وقلة نشاطها ؛ وفي قلب معظم هذه البلدان ، بين اوفرها انتاجاً صناعياً ونشاطاً تجارياً وبين هذه المناطق الريفية الطابع والمتأخرة في تطورها . ومن هــذا التنويع والتباين العظيم في التفاصيل والجزئيات ، تبرز هــذه الفوارق الكبرى التي تطبع كل عضو من اعضاء الاسرة الاوروبية .

بريطانيا العظمى الشديدة البأس في عهد الملكة فيكتوريا

في عام ١٨٣٨ دشنت الملكة الفتاة فكتوريا عهدها المديد الذي انتهى عام ١٩٠١ . اسم سعيد على ما يبدو . فقد بــدا العهد الفكتوري كأيمن عهد في التاريخ الانكليزي ، فيه كاد يتحقق سلطان بريطانيا الاكبر ، وسناؤها الاغر .

ومهما بلغ من نشاط انكلترا ، قبل عام ١٨٠٠ ، فلطالما ارتفع صوتها بالشكوى من قلة السكان فيها بينما تجارتها الواسعة واستثمار مستعمراتها الشاسعة الواقعة عبر البحار امنت لها ارباحاً مالية ضخمة ، بينما شكلت اطيانها الضخمة قاعدة متينة لمجتمع عقاري وارستوقراطي . والحال فقد رأت انكلترا عدد سكانها يقفز بين ١٨٠١ – ١٩٠١ من ١٠ ملايين الى ٣٧ مليون نسمة . فاسمع هتاف كبلنغ المدوي : «، بني، حملت كثيراً من البنين ولا يزال ثدياي ابعد من ان يجف حليبها » ؛ هذا هو الخصب الذي استشعره ملطوس بخوف ورعدة . فقد هاجر عدد كبير منهم ! اما الآخرون ؟ هذا النسغ الخصب فرض عليها في الوقت ذاته ، تحدياً اكبر وجرأة اشد ، فاستقدمت بحراً ما لم تستطع ارض بريطانيا وما تحت الارض فيها توفيره وتأمينه لهذا الشعب المتزايد .

فالمصير الفاشم وضعها طوعاً أو قسراً امام حتمية الاختيار : بين التجارة او الزوال من الوجود. وامام هذه الحشود المحتشدة في المدن التي توفرت لها كل ما تطمع به وتريد: من اساطيل ورؤوس اموال وتقدم تقني منقطع النظير ، وامبراطورية استعمارية ولا اكبر، عرفت بورجوازية مدينة منشستر ان تقبض بقوة على دفة السفينة وراحت تطلب الخلاص والازدهار عن طريق التبادل التجاري الحر . وهكذا فقد ضمنت الفوز والاستقرار لفترة نصف قرن ، على الاقل .

وهكذا استمرت انكلترا الشامخة ، القديمة العهد ، في تطورها الصاعد نحو الذروة ، امام مرأى ومشهد اوروبا التي تهتز وتضطرب تحت الهزات التي تنهال عليها ، وقد قامت فيها ملكية شعبية ونظام تمثيلي مستقر ، وحكومة قادرة على تأمين الديمومة والاستمرار مع محافظتها على الحرية . وبفضل ما عرفت به من احترام عميق للتقاليد المرعية ، استمرت ادارة المنافع العامة في البلاد بيد فريق من سراة القوم أمّن لهم ما كانوا عليه من غنى وثراء ، الاختصاص واوقات الفراغ . وعرفوا بوصفهم من اصحاب الاقطان الضخمة كيف يتكيفون ، ما وسعتهم الحيلة ، مع تطور الاقتصاد الزراعي المعمول به منذ القديم ، وتعاونوا ، على اقدار متفاوتة ، مع كبار البورجوازيين الذين يوجهون اللعبة . وقد توفر للبلاد ؛ رأس مال حكيم ، فطن ، وعرف كيف يناور ويحشد ويستثمر، ليجعل من بريطانيا العظمى، اكبر سوق تجاري في العالم واغنى بلد دخلاً وطنياً في العالم . وهذا المجتمع البريطاني الثقيف ، المهذب الذي توفر له الى حد بعيد ، السكن المريح والاثاث واللباس ، والذي صقلته الرياضة البدنية ونشطته ، والذي تذوق الاسفار ، وتعشق اللعب في الهواء الطلق ، يرى ان ثقته بالله وايمانه به لا حد لها ، تزكيها وتبررها فلسفة إنتفاعية لا ينكرها إلا كل متعنت مكابر . وهذا الاشعاع العظيم الذي عرفته البلاد في الشعر والقصة والنقد ، وهذه الاصالة التي عرف الفنان الانكليزي ان يكتسبها ، كل ذلك دل بوضوح، على ما رُكز في الطبع الانكليزي ، من شعور صادق بالواقع ، وما أوتي من قوة التحليل ، وما طبع عليه من ميل فطري الى مباهج الطبيعة وما فيها من فتنة وسحر ، كما ان إشراقة من الالهام تملت ثنايا الهندسة والموسيقى عند هذا الشعب .

اما المفارقات المتضادة فتطالعك عند كل مأتى عين ومحط بصر . فالجغرافية منها تتمثل على أصحها في هذه البقاع السوداء وهذا الريف المخضل المورق ، في هذه المدن التي غشاهـــا السواد وجلببها السخام والتي كبرت وتضخمت بسرعة فائقة ، وفي هذه المدن الضـافية التي شابت وهي بعد فتاة في شرخ شبابها.ما الاجتماعية من هذه المفارقات فامثلها هذه الفروق الصادعة الصارخة في تفاوت الثروة والغنى مما لا يتوفر بعضه في اي بلد من بلدان اوروبا الغربية ، مع العلم ان الانسان لا يتمتع في اي بلد كان ، بما يتمتع به الانسان البريطاني من ضمانات عدلية وقضائية . وهذا المشهد بالذات اوحى لماركس ببعض الاحكام النيرة : « ان العبودية التي يرسف فيهـــا المجتمع البورجوازي ، هي على ما يبدو لنا ، الحرية الكبرى، لانها تمثل ، على ما يظهر ، استقلال الفرد الناجز » . ومنها ايضاً هذه الفكرة : « اية حرية ؟ وحرية مَن ؟ هي هذه الحرية التي في وسعها سحق العامل ؟ » . وهذا الوضع هو الذي اوحى لصاحبه عنوان كتابه: « حول انحطاط انكلترا» الذي اخذ فيه مؤلفه لو درو – رولن ان يتنبأ بسقوط بلد تقوده أقليةمن هذا الطراز. ومع ذلك ان ايلاء العمال حق الاقتراع العام ، هؤلاء العمال الذين ينعمون ببعض اليسر ، والأخذ بسياسة نقابية حكيمة ، فطنة ، يتكفلان وحدهمـــا بكبح شعب لم تستهوه يوماً الافكار الثورية . صحيح ان الازدهار الذي حققته سياسة التبادل التجاري الحر ، لعب دوراً بارزاً في العزوف عن مسالك الوثيقية . فقد عرف كوبدن ويبل ان يؤمنا السلام الاجتماعي لجيل كامل ، عبر الازمات الخانقة التي ميزت الحقبة الواقعة بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ ، الخوف في النفوس . فالى القلق الذي استحوذ علىالريف يجبان نضيف هنا الصعوباتالتي اعترضتالصناعة البريطانية، في كفاحها المرير ، احتفاظاً منها بزبائنها. ففي وجه طبقة من العمال متصلبة في مطالبها ، وفي وجه المنافسة الاجنبية العنيفة،كان لا بد من التريث والتخفيف من سرعة السير امام إمارات من عسر التنفس ظهرت على البلاد . والقضية الارلندية الحادة اقتضت حلولاً سريعة. وهذه الامبراطورية التي رحبت اطرافها واتسعت جنباتها ، أخذت تتطور كما راحت ادارتهـــا تبحث عن صيغة استعمارية جديدة في وقت اظلم الأفق واكفهر .

كفاح الشعب الايرلندي

في قلب المملكة المتحدة التي نودي بهـــا عام ١٨٠١ ، وقعت الامة الايرلندية فريسة امة اخرى ظلمت لها واخذتهـا بالعنف والشدة . وبما انها بلد زراعي يقوم اقتصاده على الأرض ، فقد طلبت ان تنعم بارضها وارزاقها ، وبوصفها بلداً كاثوليكياً ، فقد راحت تطالب بتحررها الديني ، وبما انها ضمت الى بريطانيـــا العظمى قسراً وكرهاً منها فقد راحت تطالب بالغاء قانون الاتحاد هذا . فجل ما حققه اوكنيل هو الحصول على المساواة في الحقوق للكاثوليك . الا ان ايرلندا الفتاة هذه ، الرومنطيقية تجـاوزته بعيداً في مطالبتها ، الشديدة بتشكيل دولة ايرلندية مستقلة من ضمنها الاقلية البروتستانتية في مقـاطعة الاولستر ، وهو مصير رفضته الاقلية . وبعد لأي قصر وقعت الجائحة الغذائية عـام ١٨٤٧ ،

وعقبتها حركة نزوح عارمة جرفت بسكان الجزيرة خارج البلاد. والهيـــاج الذي سببه حزب الفانيان السياسي .

اخذت الجزيرة بالانحطاط والتدهور. فقد هبط سكانهـــا من ٨ ملايين الى خمسة فهي تعاني كثيراً من الأمية وتتسكع في البؤس والشقاء ، وهو وضع حرص كبار الملاكين على إبقائها فيه . أوتي شعب هذه الجزيرة خيالاً مجنحـــاً وذلاقة في اللسان وعرف باستمساكه بدينه وأرضه ، ويغنى أدبه الشعبي الغاليكي ، وقد تخلت طوعاً واختياراً عن لغتها الام لتقتبس لغة المغتصب ، فانزوت الروح الكلتية في هذه المقاطعات المستوحشة في الغرب التي قسا عليها القدر الغاشم .

وبوادر النهضة يجب ردها اصلا الى هذا التحول الذي طرأ على الارض التي تزرع حبوبـــاً فحولت الى اراض للمراعي والكلأ . وقد انتزعت من ايدي الوف الفلاحين الاراضي التي كانت في حيازتهم. غير ان القوانين الزراعية التي اخذ غلادستون المبادرة الى وضعها(بعد ان رضي من قبل بفصل الكنيسة الانكليكانية عن الدولة ، وبالغاء العشر المترتب على الكاثوليك دفعـــه للكنيسة الانكليكانية هذه) ،جعل من المتعهد الزراعي شبه شريك للمالك،ومن جهة اخرى ، فالجهود التي بذلها بارنيل لحمل البرلمان، في لندن على قرار فصل في امر سياسة الوحدة، والمطالبة « بوطن قومي » ادخلت الرعب في قلوب البريطانيين ، فسقط المشروع في المجلس، عام ١٨٩٥ . واذا كانت ايرلندا عاجزة بعد عن تحقيق استقلالها فقد صرفت جهودهـــا لتحسين تربية الماشية على ارضها وطورت صناعتها وسهلت اسباب التعليم لمن يرغب فيها من ابنائها ، وراحت تنمي الروح والاعراف الكلتية في ابنائها ورفعت من مستوى الحياة فيهـــا ، وايقظت فيهم الشعور بقواها الروحية . وهكذا ، فساعة الحرية لم تكن لتتأخر فتدق منذرة بالتحرر والاستقلال .

الازدهار يعم سكندينافيا

امام هذا التطور العظيم الذي حققه البريطانيون ، يبدو هزيلا وحزينـــاً بالشفقة بالنسبة لمصير هـــذه المنطقة المجاورة لبريطانيا في الشمال . في هذه المنطقة المرتفعةمن خط العرض ذات التربة الممسكة المفتقرة للفحم، وصاحبة الدور الثانوي المتواضع على المسرح الاوروبي منـــذ القرن الثامن عشر . فالدانمارك والسويد والنرويج التي تتقاسم الجزر واشباه الجزر المتناثرة بين المحيط الاطلسي والبحر البلطيقي ، عجزت تماماً عن ان تبعث الى الوجود هذا الاتحاد القديم الذي رأى النور في كلمار . فشبه الجزيرة السكندينافية الكبيرة هذه ، تم توحيدها موقتاً بالرغم من النرويج ، ولصالح السويد . وهذه المملكة السويدية النرويجية لا يتعدى سكانها ٣،٥٠٠،٠٠٠ نسمة ومليون دانماركي . فمعدل الوفيات فيها عـــال جداً وكذلك الهجرة لاشتداد الفقر فيها ، الامر الذي جعل اكثر من ٨ ملايين سكندينافياً على النزوح تباعاً عن بلادهم الى اميركا ، خلال القرن التاسع عشر .

ليس في وسعنا هنا التبسط طويلا حول الاعجوبة السكندينافية . فبفضل عهـــد من السلام استتب طويلا (اذ ان الحرب الدانمار كية الجرمانية عام ١٨٦٤ ليست سوى مرحـــلة قصيرة

اضطرب فيها الامن)، بفضل ما تفتحت عنه هذه البلاد من نشاط جم وبعد نظر حكيم . فقد حققت شعوب هذه البلاد درجة من اليسر والازدهار حسدتها عليها شعوب الجزر الواقعة الى الجنوب من البحر الابيض المتوسط . فنمر سريعاً بظاهرة تكـــاثر السكان في هذه البلاد . فالثانية ملايين التي ضمتها عـــام ١٨٥٠ والـ ١١ مليون التي بلغتها عام ١٩٠٠ ، بقيت ارقاماً متواضعة . وهذه الزيادة الملحوظة في السكان يمكن ردها بالاكثر الى هبوط قوي في معـــدل الوفيات منها الى ارتفاع نسبة المواليد .

وبخلاف البريطانيين لم ينزح السكندينافيون عن مواطنهم في الريف اسوة منهم بالارلنديين. فلم يزدد عدد السكان في كل من كوبنهاغن وستوكهولم على ٤٠٠ الف نسمة ، عام ١٨٩٠ . اما كرستيانيا (اوسلو اليوم) فلم يزد عدد سكانها على ٢٠٠،١٥٠ ، ولعل ابرز حادث ميز تاريخ هذه البلاد الحديث ، فهو الثورة الريفية . صحيح ان جبال النرويج الشرقية اقتصر نشاط سكانهـــا على مقايضة محاصيلهم الزراعية . فالاسر القديمة فيها لا تزال تتمتع بالسيطرة على مقاطعات غودبرنسدال واوستردال . فالمنازل هناك معتمة ، والبياضات او الملابس الداخلية نادرة والجرب متفش ، الا ان زراعة البطاطا اتسعت وعمت اطراف البلاد ، كما اخذ الناس يعولون في غذائهم على السمك المملح . وقـــد جرت في الوقت ذاته ، حركة تجميـــع بين القطع الزراعية الصغيرة بينما انصرفت حركة عارمة من الاصلاح الزراعي الى توزيـــع الاملاك الضخمة فنشطت في البلاد طبقة من الفلاحين انصرفت لاستغلال مزارعها المشتتة التي كان لها من الاتساع مع ذلك ، ما جعل منها وحـــدة إستثمار مستقلة اخذت تزدهر ، محولة في تطورها الى اراض زراعية او صالحة لتربية الماشية ، الكثبان الرملية والبطائح التي تكونت بفعل الانهر والجليد . وحرية التبادل التجاري وجهت اقتصاد البلاد نحو تنفيق المحاصيل والبيـــع ، وفتحت امام محاصيلها من الحنطة واللحوم والبيض والزبدة الاسواق البريطانية ، كما شجعت تصدير خشب الشوح . واذ كانت السويد عـــاجزة عن منافسة الدول الكبرى الصناعية ، كما كان شأنها في السابق ، فقد اخذت ليس في بيع ما لديهـــ من فلز الحديد العالي القيمة فحسب ، بل ايضا اخذت في صنع ادوات وآليات تقنية متطورة ! ازدادت نشاطاً فيها بعد بفضل الشلالات ومساقط المياه وكلها قوات محركة تذكرنا من قريب بهذه الطاقات الضخمة التي تتوفر لكندا .

والدنمارك الواقع عند مداخـــل البلطيق والذي ضعف مركزه ووهن شأنه راح يقوي من قاعدته الزراعية . فقد ساعدت حركة التطور التي اخذ باطرافها على التخفيف من حدة معارضة التاج وإلانتها ، كما خففت مـــن معارضة النبلاء والاكليروس اللوثري . وبعد ان فقد دوقية شلسويغ هولشتاين ، اضطر الملك كريستيان التاسع للرضوخ لمطالب الاحرار في الوقت الذي دعم فيه سلطته ونفوذه بهذه المصاهرات التي عقدها مع العائلات الملكية . الاخرى وقامت في البلاد ، حركة ادبية وفنية وعلمية جعلت بعيد شهرة عاصمة السويد الجميلة .

وعلى غرار السويد فقد بقيت بعيدة عن لعب اي دور بارز . ولما كان هم الدنماركيين الاكبر صوت

. مكانتهم رهبتهم الدنمارك ، فقد كان بامكان ابناء وحفدة برنادوت ان يتولوا ادارة الاتحـــاد السكندينافي . ولكن الحركة السكندينافية التي صاغتها الاوساط العلمية في البلاد ، جاءت على شاكلة الحركة الجرمانية والسلافية . كان اوسكار الاول مختصاً بالقضايا الجنائية ، فقد صرف همه الى مد البلاد بشبكة من الخطوط الحديدية وباصلاح قوانين البلاد ومكافحة المسكرات وفي عهد الملك شارل الخامس عشر ، خلعت السويد طابعها الارستوقراطي لترتدي طابعـاً متحرراً تقدمياً فأنشأ في البلاد مجلساً نيابياً حديثاً ، حل محل « طبقات » النظام القديم ، وعارض بشدة الاعتمادات الحربية ، وتجملت ستوكهولم وخيم على هـــذه السويد النشيطة التي اطلعت اركسون ونوبل ، جو من الاحترام والتقدير العالميين. ان ادخـال الخط الحديدي على البلاد والتلغراف لم يقتل فيهم ذوق *Stamning* الذي عرف ان يؤمن الانسجام بين الكائنات والاشياء . واقـــر الملك اوسكار الثاني حق الاقتراع العام ، كما كان عليه ان يواجه بفطنة ، الحركة القومية التي هزت النرويـــج .

اما النرويج فلم تكن تشعر قوياً بهذه الروابط التي شدتها للعرش في السويد ، وذلك لما بين البلدين من تباين في الامزجة وفي المصالح . والمجتمع النرويجي الديموقراطي القاعدة تألف اصلاً من اقوام احترفوا الصيد وعـــولوا في معايشهم على البحر ، فابعدوا عنهم المواطنين الدنماركين كما قضوا على كل نفوذ بينهم لطبقة النبلاء ، عيونهم وولاؤهم هي باتجاه مجلسهم التمثيلي . شواطؤهم المفتوحة بطولهـــا على البحر ، واستثمارهم لمطـــارح السمك الغزيرة الواقعة على مقربة منهم ، ونشاطهم كسماسرة نقل بحري ، كل ذلك مكنهم من تفادي الفقر والعوز . فقد كان لديهم عام ١٩٠٠ اسطول تجاري حل في المرتبة الرابعة بين اساطيل العالم التجارية الكبرى ، وبرّ الاسطول الفرنسي من هذه الناحية . وبحق تفاخرت الامة النرويجية بنوابغ رجالها المشهورين امثال غريج في الموسيقي وإبسن في الادب ونانسن في كشف القطب . فاشرأبت نفسها للاستقلال . وحققته دونما صعوبة او هدر دم ، عام ١٩٠٥ ، وأولت العرش اميراً دانماركيا ، اتخذ له اسم هاكون السابع حكم بمساعدة مجلس تمثيلي .

والنخبة الفكرية في السويد التي كانت دومـــاً تنزع للفكر والادب الفرنسيين ، لم تلبث ان وقعت تحت تأثير المانيا القوي واقامت معها علائق وطيدة ، مع بقاء بريطانيا العظمى مسيطرة من جهة العلاقات الاقتصادية .

بعث النشاط في هولندا وبلجيكا

سجل القرن الثامن عشر فترة تقهقر وانحطاط لهذا المفترق الجغرافي الذي تألف من البلاد الواطية ، اذ ان بروز بريطانيا العظمى من جهة ، وركود النشاط في منطقة الرين من جهة اخرى ، ألحق الخسف بهذه المقاطعات المتحدة ؛ وبلجيكا التي وقعت تباعاً تحت حكم النمسا ثم فرنسا ، لم تحسن النهوض بمرافقها الزراعية والصناعية فحسب بل لم تأت شيئا لتشجيع وتنشيط الحركة التجارية في مرفأ انفرس .

ولقد شاهدنا رسيسا من النشاط خلال عهد اورانج – ناسو وملكها على البلاد . الا ان الشراكة بين الشعبين عرفت اياما صعبة بعد ان غلب على البلجيكيين الشعور بأنهم راحوا ضحية مؤامرة سياسية . وقد تركت هذه العلائق المسمومة شيئا من اثرها الوخيم عالقا في الاذهان طبع بالعنف الحركات التي ادت الى شطرها شطرين متميزين مستقلين .

الا ان وقوع هاتين المملكتين في صميم اكثر بلدان اوروبا اكتظاظا بالسكان ، اذ زاد عدد سكان بلجيكا على ٦ ملايين نسمة بحيث بلغ معدل الكثافة ٢٠٠ شخص في الكيلومتر المربع الواحد ، كما ان سكان هولندا زاد على خمسة ملايين بمعدل ١٥٠ نسمة للكيلومتر المربع الواحد ، مكنهما من الافادة الى اقصى حد من مركزهما الممتاز ولوقوعهما بين بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا مواجهة هذا السهل الممتد طولانيا على سيف البحر ، عند مصب ثلاثة انهر كبيرة ، وتحت تناولها مقادير ضخمة من الفحم ، مما يبعث الهمم والنشاط في هذه الحيوية التي جاشت في صدر هذه العرق الذي جاءت ازمة ١٨٤٧ – ١٨٥٤ امتحاناً جديداً له . ان التحسينات ادخلت على التقنيات الزراعية ، واستخلاص اراض جديدة من البحر ومن الرمول ، وهذه الاعمال الضخمة التي اقتضاها إستصلاح المسالك والاقنية النهرية ، والمرافىء وانشاء شبكة محكمة من الخطوط الحديدية والاقبال على التصنيع الآلي ، واعتماد سياسة التبادل التجاري الحر والمشاركة في الحركة الاستعمارية الضخمة واستثمار رؤوس الاموال المتوفرة في كثير من بلدان العالم ، كل هذه العوامل كانت اساساً لهذه النهضة ، المادية التي ألمت بمرافق البلاد المختلفة . فالوسط البشري يحمل الكثير من سمات البيئة البشرية في الارخبيل الانكليزي المجاور ، وبما توفر له من اخلاقية تميزت بالفطنة والدراية والارادة الصادقة والاقبال على ما يؤمن الراحة مع العلم ان هذه الشعوب اصبحت اقل قدرة على الخلق والابداع في امور الفكر والفن مما عرف عنها في الماضي ، فانقطعت بكليتها الى عمل دؤوب ، صبور وتمتعت بسلم طويل بفضل ما نعمت به من نعمة الحياد السياسي ان لم يكن قانوناً فبالفعل .

والتطور العظيم الذي اخذت هاتان الدولتان باطرافه وجاء متوازياً بعيداً عن كل اضطرابات مقلقة موجهاً لها وجهة النظام التمثيلي ، شدهما شداً قوياً الى بريطانيا العظمى . من جهة عرش تناوب عليه تارة آل اورانج وطوراً الى ساكس كوبورج ، تشبع عميقاً من هذه الامتيازات التي تمت له ، غير انه اضطر لمصانعة التمثيل الوطني والتواري امامه ؛ وبورجوازية رشيدة ، حكيمة حريصة عرفت ان تحتفظ طويلاً بنظام انتخابي اساسه النسبة الضرائبية ، تنكرت للحركة الاشتراكية واخذت باسباب سياسية ابوية متحفظة ؛ هنا في بلجيكا شعب كاثوليكي نشيط متحمس ، وهناك في البلاد الواطية ، كنيسة كلفينية ، متحفظة ، جفول ، يتعاونان في مناهضة الحركة العلمانية التي جاشت في صدر احرار الفكر من البورجوازيين . وقد عقب عهد التحرر الترضيات والتنازلات المتبادلة بين الاحزاب الدينية التي زادت نشاطاً وحيوية في توسيع قاعدة الاقتراع العام . وبعد ان انصرفت الطبقة العمالية فيها على تنظيم نفسها واكثرت من انشاء ما

ترغب فيه من نقابات وتعاونيات واستجابت لنداء التشكيلات السياسية التي تتلاءم معها، راحت تناهض الامتيازات التي يتمتع بها اصحاب الاملاك العريضة .

ومن مشاكل بلجيكا المعقدة الخاصة بهـــا ، انقسام الشعب فيها الى شـطرين متباينين لغة وحضـارة : شـطر فرنسي الطابع والميزة اخذ بالتوسع منذ عام ١٨٣٠ ، وشـطر فلمنكي راح يعرض بحماس مطالبه . أفيبدو غريباً ان تفكر بروكسل ، مثلاً ، بانتهاج سياسة اقليمية تذكرنا بالسياسة المحلية الاخرى التي سارت عليها سويسرا .

الديموقراطية الجبلية في سويسرا

هل بامكان الجغرافيا ان تفسر وان تعلل لنا كيف قامت في قلب جبال الألب ، دولة مستقلة ، مـع انه لم يسبق ان حدث شيء مماثل لهذا ، لا في شرقي اوروبا ولا في غربيها ؟ استطاعت اقاليم السهل السويسري ان تستقطب حولها الاقوام التي تمور في جبال الألب وجبال الجورا ، فألفت من مجموعها حمىً او ملجأ كان خيراً من هذه الوديان المعزولة عند اطرافها ، معواناً لها لتقي نفسها من تعديات الدول المجاورة لها .

وبعد ان تعرضت لغزو عابر طارىء من قبل الفرنسيين ، استطاعت سويسرا بعد ان بعثتها معاهدة فيينا الى الوجود ثانية وسيجت عليها بالحياد، عرفت كيف تتفادى الحروب التي استهدفت لها واستطاعت رفع مستوى العيش بين سكانها الآخذ عددهم بالنمو والتكاثر .

فمن مليون نسمة عام ١٨٠٠ ، ارتفع عددهم عام ١٩٠٠ الى اكثر من ثلاثة ملايين. وبلغ من شدة كثافة السكان فيها ان قام ٨٠ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد، وهي كثافة جد مرتفعة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان ثلثي عدد السكان يتمركزون اليوم في مساحة من الارض مرتفعة على الاجمال . وهذا العدد الضخم من السكان الذي طبع البلاد من عهد بعيد ، كان معينا لا ينضب من المهاجرين واليد العاملة في الصناعة . صحيح ان المدينة فيها جاءت صغيرة على نسبة الناحية او المقاطعة ، مع ان سكان كل من زوريخ وبال في سنة ١٩٠٠ تجاوز ١٠٠،٠٠٠ في كل منهما ، الا ان الحرفة المسيطرة على الاسرة فرض قيامها في المناطق الجبلية ، كما ان النشاط الريفي تأثر بعيداً بالحركة التجارية . وهكذا لم تلبث سويسرا ان اصبحت بلاداً تدر الحليب واللبن اثر تضاعف الماشية فيها بين ١٨٥٠ - ١٩٠٠ ، وعرفت ان تكتسب لهـــا شهرة عالمية بأجبانها الدسمة وسكاكرها من الشوكولا . واذ كانت تفتقر اصلا للفحم الحجري فقد اتجهت الصناعة فيها الى المصنوعات الدقيقة ، فاستمرت فيها صناعة النسيج القديمة على ازدهارها المعروف ، بينما خلقت المصنوعات الميكانيكية الدقيقة ، عند هـــذا الشعب الذي توفرت له تربية مهنية قوية ومراس مهني ، طبقة من الصنعة المهرة . واستثاراً منها لموقعها ولطبيعتها الجغرافية ، عرفت هذه البلاد ان تجتذب الى خطوطها الحديدية ، الشبكة الاوروبية للمواصلات الحديدية فأوجدت لها مركزاً ممتازاً في المجال السياحي . ولم تلبث ان افاقت على عهد من الفحم الابيض بعد ان عرفت كيف

تسخر ما لديها من مساقط المياه والشلالات لتوليد الطاقة الكهربائية . فراحت البلاد تستثمر ثرواتها الطائلة في اعمال التأمين وفي مشاريع انشائية كبرى في الخارج .

وهكذا ازدادت شراكة المصالح وثوقاً وترابطاً وأدت بالتالي الى تقوية الشعور القومي والرغبة المشتركة في العيش معاً في رفقة . وهذا التكتل الذي تألف من هيئات ارستوقراطية وتعاونية من اعيان المدينة ومن مجتمعات ريفية ، هو الاتحاد الفدرالي السويسري ، تبدّى لنا ، عام١٨١٥ وكأنه حلف بسيط ضم الاقاليم بعضها الى بعض. فالتمسك الشديد بأعراف الجدود، ابقى حياً قوياً ، نفوذ الأسر القديمة . ومع ذلك فموكب الديموقراطية يسير دوماً الى الأمام ، بصدق وعزم وعزيمة ، بشيء ملحوظ في التحفظ والاعتدال .ولذا فلا عجب ان تتضح حركة التطور هذه ضد الأقليات والمجتمعات الريفية صاحبة الاطيان ، ضد « اسياد » برن ، وضد المقاطعات الكاثوليكية في الوسط ، بدافع من بعض الفئات الرأسمالية ولا سيما البروتستانتية ، في كل من زوريخ ، وبال ، وجنيف ولوزان . إلا ان هزيمة *Sonderbund* جاءت تبشر بدنو أجل *Staatenbund* وبقرب ظهور *Bundestaat* [1]، مع دستور سنة ١٨٤٨ الذي جاء اكثر اخذاً بالنظام الرئاسي الاميركي منه بالنظام الفرنسي، واستمر الصراع قائماً بين السلطة الفدرالية والمقاطعات . وفي اعقاب حرب القوميات أدى تعديل الدستور ، عام ١٨٧٤ الى تقوية الطابع الاتحادي والعلماني للكونفدراسيون الذي تولى توجيهها الحزب الراديكالي الديموقراطي البورجوازي المحبذ لتطوير الخدمات العامة والتوسع فيها ، والمعادي لكل تشريع اشتراكي الطابع او النزعة، وتحافظ كل مقاطعة بمنتهى الغيرة على حقوقها بتنظيم العمل وتنظيم التعليم فيها كما ترغب وترى ،ومساهمة الشعب بالحكم مباشرة تشتد باللجوء الى عملية الاستفتاء العام في كل مرة يتوجب فيها إقرار او التقدم بمشروع قانون هام .

يتمتع السويسري على العموم ، بأخلاق رضية. فقد اشتهر بثقافة فنية وبالعناية بالصحة ، لا يبالي كثيراً بالدراسات الأدبية وبالفنون. وهو رصين ، مرح ، عملي التفكير ، ذو طبيعة فياضة.

الديموقراطية الفرنسية بين النظام والحركة

لم يتغير وجه فرنسا جغرافياً . هنالك حادث توسع من جهة الألب ، وقع عام ١٨٦١ ، وعملية اقتطاع من جهة الرين بعد ذلك بعشر سنين . اما التوسع والامتداد فيقع خارج فرنسا ، وعدد السكان فيها يبقى كما هو تقريباً ويؤمن للبلاد كثافة متوسطة ، وهذه ظاهرة تفسر لنا اشياء كثيرة عن الحياة الفرنسية . هل اشتط بريفو – برادول الرأي وذهب بعيداً في تشاؤمه عندما راح يؤكد: « نحن الفرنسيين، سيكون لنا من الوزن –بالنسبة للعالم الانكلوسكسوني – مع الاحتفاظ بكل نسبة ،ما كان منه لأثينا

(١) انتقال البلاد من نظام الكونفدراسيون الى نظام الفدراسيون ، مع بقاء الاصلاح ساريا على الشفاء .

قديماً بالنسبة للعالم الروماني » . فالمقارنة بين فرنسا والمانيا ليست قط في مصلحة الأولى . فلم يكن عدد الالمان ، عام ١٨٧٠ ، ليزيد كثيراً عدد الفرنسيين ، بينما بلغ عدد الالمان، عام ١٨٩٠ خمسين مليوناً (اي ما نسبته ٩١ نسمة للكيلومتر المربع الواحد) . بينما كان عدد الفرنسيين ، في السنة ذاتها ٣٨ مليوناً (اي ٧٥ للكيلومتر المربع الواحد) . ففرنسا هي الدولة الكبرى في اوروبا التي فتحت ابوابها على مصراعيها امام الهجرة .

وقد ألفت قواعد شعبية ريفية جذور هذه الأمة التي لم تشعر بأي ضغط ديموغرافي . ومع ان المدن الفرنسية تضخمت واتسعت ، فان معظم الفرنسيين فضلوا السكنى في مدن صغيرة نسبياً قامت في محيط ريفي ، واذا ما احتلت باريس محلاً لا يضاريها فيه أحد ، فهذا مرده أصلاً الى ان المركزية الادارية والأدبية تضخمت في الوقت الذي تضخمت فيه مراكز النشاطات الاقتصادية . فبالنسبة للجنوب ، أخذ الشمال ينمو أكثر وكذلك الشرق بالنسبة للغرب . ونلاحظ حركة جذب واستقطاب باتجاه المراكز الصناعية الانكلو جرمانية دون ان يطرأ أي ضعف أو وهن على الروابط الوثيقة التي تشدها الى البحر الابيض المتوسط . وبدون ان نلاحظ أي قطيعة في التقاليد الريفية الفرنسية نرى تحولا أو بالاحرى إنصرافاً بطيئاً عن بعض الاقاليم، يفرغها من سكانها ، لا سيما في الوسط وفي الجنوب الغربي . فالمزارع الذي هو في الغالب صاحب الارض أو مستأجر لها ، لا تتوفر له الادوات والعدة الحرفية اللازمة لارضه ، كما انه لا يستأنس كثيراً لحركات التجدد ويعول كثيراً على النائب ممثله في المجلس النيابي ليتولى الدفاع عن مصالحه ، ولذا نراه يستمسك بشدة بالنظام التمثيلي ، ويرجو من الطبيعة الحليمة التي يعيش في ظلها ومن نظام تمثيلي يرضى عنه ،بتوفير غد له يطمئن اليه ويأتلف مع اطماعه المحدودة. وهذا العامل الذي يعمل في الصناعة الضخمة أو في المنجم ، في هذه المناطق الصناعية الرئيسية ،يؤلف طبقة بروليتارية أخذت تعي مصلحتها الطبقية بينما عرف ان يحافظ على هذه الذهنية الفردية التي هي من مميزات العرق الفرنسي . واكثر من هؤلاء ، الصناعيون واصحاب الحرف الذين يعملون لحسابهم الخاص أو لحساب هذه البيوتات التجارية الكبرى ، وهم متشبعون بفكرة الاستقلال أو نتزاعون الى الاضرابات . فالحرف الحرة أو العامة التي يختلف الناس رأياً فيها والتي تتفاوت بينها الاجور ، تستقطب نسبة كبيرة من المواطنين في بلد شقّت فيه البورجوازية طريقها الى الوظيفة ، بينما ظل صغار القوم فيها يجاهدون في سبيل البروز والظهور والتقدم . اما هؤلاء الاعيان من اصحاب الاطيان والعقارات الضخمة، أو من رجال الاعمال أو من رجال الصناعة ، فحبهم للنظام ، والحذر الذي يقابلون به الافكار والنظريات الجديدة ، يمازجه كره لا يُغلب لهذه التدابير ولهذه الاجراءات المالية التي من شأنها أن تمس دخلهم ، كما يمقتون تدخل النقابة في تحديد عقود العمل. فبالرغم من اختلافاتهم على الصعيد الفكري وبمنأى من كل عقيدة ، فهم لا يرغبون بوساطة الكنيسة الكاثوليكية وبمساعدتها ، الا بالقدر الذي ترمي معه للدفاع عن المجتمع . فلا عجب ان تتأثر الحياة العامة عميقاً بمثل هذا الوضع .

هنالك من يدعي ان فرنسا ، في ظل النظام التمثيلي ، كانت دوماً تتردد بين النظام والحركة، هاتان النزعتان اللتان تتقاسمانها اجتماعياً وجغرافياً بحيث ان أقل بادرة تأرجح تبدو على الهزاز الانتخابي تكفي لترجيح هذه الكفة او تلك . والواقع ان جمهرة الفرنسيين لا تنزع الى « ردة فعل » ، تؤمن الغلبة للعناصر المحافظة وسلطة البوليس ، كما انها لا تميل الى التعاليم والنظريات الجريئة التي تقول بالتجدد الاجتماعي . يجب على اية خطة عامة او اي برنامج عمل عام ألا يحدث الأخذ به تغييراً كبيراً في الوضع السائد . هي ذهنية صغار البورجوازيين وصغار الملاكين التي تسيطر حتى على طبقة البروليتاريا .

بعد الهلع العام الذي استحوذ على الناس ، سنة ١٨٤٨ ، جاء الحكم الامبراطوري تدبيراً اعتباطياً سارت معه البلاد من سيء الى اسوأ، اذ راح يعرض النظام للاعيان والفلاحين ، والعمل لمن يرغب فيه، ويحاول التسوية بين مبادىء عام ١٧٨٩ والسلطة. ولكن ما ان سنحت الظروف المؤاتية وتوفرت الوسائل ، حتى راح اعيان البلاد يعملون على اقامة حكومة تقدمية متحررة ، فجاءت كارثة عام ١٨٧٠ وسهلت لهم الأمر. وفي اعقاب الكومون ، كانت المطالبة بالعودة الى النظام البرلماني مطلب الأعيان من نصراء الملكية والاعيان من نصراء الجمهورية . إلا أن الفشل الذي اصيب به النظام الادبي ، أدى الى طلوع جمهورية معادية لروح الدين ولرجاله ، قنعت من الأمر بدستور عام ١٨٧٥ ، الذي جاء نتيجة اتفاق تراضٍ بين النزعتين . وموجز القول ان الجمهورية الثالثة جاءت وليدة ارادة أكثرية الشعب الفرنسي وكمرساة انقاذ او خلاص طالما تمنوا الوصول اليه منذ عهد بعيد ،ربما منذ عام ١٧٨٩،وهو نظام سيكتب له البقاء لأن باستطاعته ان يفرض احترام النظام القائم ، وان يمهد السبيل امام بعض اصلاحات ، بأقل قدر من حكم الجمهورية ، كما يشير الى ذلك ، اناتول فرانس في كتابه : « التاريخ المعاصر». هي اعجز من ان تحقق « المشروعات الكبرى » ، وقد تكشفت عن كونها انتهازية ، فرَصية ، تقدمية معتدلة ؛ وقد خففت من عدائها لرجال الدين ، وتقوم « بتهدئة » ، وتسلك في سياستها الخارجية ، وفقاً لتقاليدها الدبلوماسية ، وتتحالف مع الامبراطورية الروسية وتكشف عن روحها الاستعمارية او الاستثمارية، كما انها خففت من الهزات السياسية تحت ستار عدم الاستقرار الوزاري في الحكم، وتغلبت بقدرة فائقة ، على عدة ازمات ، وراعت بفنها الناعم ، الاعراف المرسومة ، ويشتد منها الساعد على مرور الزمن والمراس الموصول . وطبيعتها الديموقراطية المعلنة لا تعيشها قط ، للسبب نفسه ، من وضع منهاج اشتراكي ، حتى ولا راديكالي .وقد عرَفت فترات كمن الخطر عليها « في اليسار » ، وعرفت جيداً ، مع ذلك ، كيف تدافع عن مكاسب الاعيان . وقد يفوتها القطار احياناً . فالمحطات والاماكن العامة الأخرى تفتقر كلياً للذوق ، والسكن لا يتطور بالقدر الذي تم لالمانيا وسويسرا . اما المطبخ الفرنسي فهو اطيب المطابخ والذها، والمناخ بعد هذا كله لطيف ، حليم .

وقد عرف الفرنسي،باقل سرعة من غيره في مجال انتاج المواد الاستهلاكية ، كيف يحافظ على

تفوقه الادبي والفني بسرعة الخـــاطر عنده ،وذوقه الرفيه وقدرته على التحليل والنقد ، كل ذلك جعله يبرز في مجال الفلسفة التجريدية والنقد التحليلي . ومـع انه أقل إقبالا من جيرانه في الشمال على الاعمال الكبرى ، فهو لا يزال يفيض إلهاماً ووحياً ، في مجالات العلم والفن ، كما انه لم يعرض قط عن ملذات العيش الرضي .

اوروبا المتوسطية ومميزاتها الفارقة

لعل فـــرنسا هي البلد الوحيد الذي يستمد الدفء معاً من المراكز الصناعية في المنطقة الفحمية ومن شمس البحر الابيض المتوسط . فهي تشارك ، عن طريق اللانغدوق والبروفانس ، بهذه الحياة الساطعة التي تنعم بها البلدان المطلة على هذا البحر ، وتأخذ كثيراً من طبائـــع واخلاق هذه الاقوام المرحة الفرحة ، الطيبة القلب ، التي عرفت ان تقيم لها اسماً بعيد وشهرة عالية في عالم التجارة وفي عالمي الادب والفن .

ويرزح الوضع الاقتصادي في بلـــدان البحر الابيض المتوسط تحت ثقل الركود والجمود المتطاول . فالتيارات التجارية الكبرى غابت عن ساحته وانتفت عن شواطئه حيث تطالعك انماط من النشاط الصناعي والزراعي ، على الطريقة القديمة : هنالك لقاءات مدهشة يتناوب فيها الروض والبحر . فالصحراء تقف مارداً في وجه الحقل الزراعي ، كما يطرد البدو الحضر ويخنق الجبل الارض القابلة للحرث ، فالاقليم يفتقر اصلا للفحم فيضعف النشاط في الصناعات المعدنية كما ان المنطقة تفتقر جذرياً لرؤوس الاموال .

وتطل علينا ، مع ذلك ، طلائع نهضة تثقف وتطوير الخط الحديدي كما ان السفن البخارية اخذت تعول ، اكثر فاكثر ، على هذا البحر الذي يتمتع بوضـــع جغرافي عظيم الاهمية لا سيما ، بعد ان تم شق قناة السويس ، فالآمـــال التي عقدها ميشال له شفالييه لن تلبث ان تتحقق . فمنذ عام ١٨٨٠ ، اخذ ربع اساطيل العالم يتردد على مرافيء البحر المتوسط ، مـوزعة في كل مكان ، الفحم والآلة والمنسوجات وتعود منها محملة الحبوب والفاكهة والزيوت وفلزات المعادن مؤمنة الاتصال بين اوروبا وآسيا ، ثم ان استيطان الاوروبيين مناطق افريقيا الشمالية ومصر عاد بالنشاط على الحركة التجارية في هذه الاقطار ، كما نشطت بالتالي حركة الحج الى الاماكن المقدسة المسيحية والمناطق الاثرية القديمة . وأطل علينا عالم اليونان اولاً ثم عالم ايطاليا ، بعد ان زحزحت الأولى عنها ، على غرار اسبانيا والبرتغال ، نير الاسلام ، كما زحزحت الثانية ، ظل الدولة البابوية ، بعد ثورة عارمة ، جامحة ، بقيادة دولة قارية ، شبيهة بقشتالة وليون ، هي دولة البيامونت .

تأخر اسبانيا والبرتغال عن الركب

مهما بدا الوضع الجغرافي للدول الايبيرية عظيماً فلم يعد يخولها مع ذلك ، اية ميزة قط . فهما ابدأ في تأخر وتقهقر واصبحتا في عداد الدول الثانوية ، فاسبانيا لا تفتقر الرجال ، اذ كان عـدد سكانها عـــام ١٨٠٠ يربو على عدد سكان انكلترا ، وقد اوشك هذا العدد ان يرتفع الى الضعفين ، عـــام ١٩٠١ وهي زيادة

بزّت نسبياً الزيادة التي حققتها فرنسا من هذه الناحية . اما البرتغال التي ارتفع عدد سكانها من ٣ ملايين الى ستة ، فمستوى العيش فيها بقي متدنياً . مما يلفت النظر عندها ، هـذا التفاوت العظيم في توزيـع السكان . فبينما كانت نسبة تكاثف السكان في البرتغال ٥٠ نسمة للكيلومتر المربع ، عام ١٩٠٠ ، كان معدل هذه الكثافة ، في مقاطعة بورتو ٢٢٠ نسمة وفي منطقة بيجه في اقليم غلمتيخو ١٤ نسمة لاغير . كذلك قام في قلب اسبانيا منطقة مرتفعة تكاد تكون خالية من السكان تتكون من هذا الصيد الجبلي الوسيط ، كما ان اسبانيا الساحلية تغص بالسكان من جهتها . وهذا التوزع الى جيوب او خلايا ، المتحصل عن طبيعة البلاد الجبلية ، من شأنه ان يخلق شيئاً من العزلة بين هذه المناطق فيغذي فيها النزعات والمطالب الاقليمية ، كما كان من شأنه ان يعرقل ، الى حد بعيد ، استثمار الاراض . فاذ ما شكت اسبانيا دوماً من تصور شبكة مواصلاتها البرية فخطوطها الحديدية التي انشئت متأخرة وكلفت غالياً والتي تم انشاؤها بفضل رؤوس اموال فرنسية ومهندسين فرنسيين ، فقد كانت طاقتها ، من هذه الناحية محدودة للغاية . اما اسطول اسبانيا التجاري فلم يكن بوسعه ان ينقل اكثر من ثلث بضائعها . فالانكليز لا يزالون يسيطرون تماماً على الشواطىء ولهم موطىء قدم وطيد جداً في لشبونة .

اما مواردها المعدنية ، فمعظمها بيد الاجانب والصناعة الاستخراجية تبعث بها الى الخارج (ان ٦٠ ٪ من الاسهم والاعتمادات التجارية في اسبانيا ، سنة ١٩١٢ كانت للفرنسيين). وهـذا الماضي الزاهي الذي عرفته الصناعات التعدينية ، في شبه الجزيرة الايبرية لم يبق منه غير الذكر الحميد ؛ وهذه الافران والمسابك الكبيرة التي قامت في مقاطعة كتالوني انطفأ الواحد منها بعد الآخر واصبحت أثراً بعد عين . وستطل على البلاد حركة بعث جديدة ، عام ١٨٨٠ تتركز في مقاطعات استوريا وبلباو حيث يتوفر بكثرة العاملان الاساسيان لكل صناعة : الحديـد والفحم . وبالاضافة الى صناعة النسيج التي نشطت في هذه المقاطعات ، هنالك صناعات عديدة أمنت للمنطقة برمتها ، سبقاً ملحوظاً في هـذا المضمار ، لعبت معه اسبانيا دوراً شبيهاً بالدور الذي لعبته المنطقة البدوانية في ايطاليا ، مما ادى بالنهاية الى تقوية النزعة الفردية في المنطقة .

تعبر الجماهير عن رضاها وعن ارتياحها عندما تشبع بطونها . كانت البلاد تصدر في مطلع القرن الحبوب الامر الذي يحرم المزارعين من هذه المواد الضرورية ، فتضطر الحكومة بالتالي لاستيراد حاجاتها من الخارج لقاء بيعها الخمور والفاكهة . فقد تباينت طبيعة الاقليم فيها ومناطق البلاد . فالمنطقة الشمالية الغربية الواقعة على المحيط الاطلسي امتازت بامطارهـا الغزيرة ، الغارف والاندلس التي يبدو عليها شيء من الطابع الافريقي ، تؤلف ، في مجموعها ، صعيـداً متوسطاً قاسياً ، قليل لزراعة الحبوب والمزدرعات في هذه الاماكن المطلة على البحر المتوسـط . واستطاعت بعض المناطق المشهورة بزراعاتها الكرمة والخضروات والاشجار المثمرة ان تزيـد من انتاجها بفضل تصديرها هذه المحاصيل الى الخارج ، الا ان التطور العـام في الريف اصيب بالشلل لفرط اهمال الارض ، وعدم العناية بالاملاك واستثمارها كما يجب . وهذا العصر الذي تميز

بكثرة اضطراباته وهزاته الاجتماعية وانتفاضاته السياسية ، حال دون قيام اصلاح زراعي عام، كما حال دون تطور التعليم وزيادة المدارس لمكافحة الامية التي يتسع فيها الفلاح وابناء الريف بالاخص .

استهلت اسبانيا القرن بحرب مريرة طويلة ضد الغزو الافرنسي والفتح النابوليوني ارزحت البلاد وافقرتها . والحزب التقليدي المعروف في البلاد والذي تألف من كبار الملاكين ومن الكنيسة ورجال الدين اخذ بصراع طويل مع الحزب الدستوري الحر الذي يسانده الجيش والماسونية والعناصر البورجوازية ؛ كل شيء يقوم على الجيش ويتوقف عليه . فالانقلابات العسكرية المتكررة في البلاد تقيم الحكومة وتقعدها ، وتعلو بها وتنزلها ، وراحت الحزبية العسكرية تتأرجح بين هذا الجانب وذاك ، كما ان النظام التمثيلي اصبح بعد تبنيه ، مجرد واجهة لا غير . والى هذا الوضع يمكن ان نرد بقاء هذه الاضطرابات قائمة في المناطق الشمالية لتغذي الحرب التي اثارتها قضية الملك كارلوس وتأليف الكيانات الاقليمية التي تسن القوانين التي تؤمن مصالحها ، والتي تنزع الى السيطرة على سياسة البلاد وتوجيهها ، والى قيام هذه الفتن المتكررة في الجنوب ، بين اصحاب الاملاك . والجمهورية التي اعلنت في البلاد ، عام ١٨٧٣ ، لم تكن موحدة الاهداف ، ولا متجانسة ، بل كانت فدرالية ، ولذا سهل على الجيش امر تصفيتها . وعندما طلعت على البلاد الحركة العمالية ، نزعت منذ اللحظة الاولى الى الفوضوية فسمرت الخوف في قلب البورجوازية واصحاب الامتيازات القديمة دون ان تستطيع اخضاعهم. وجاءت الحركة الاصلاحية التي قام بها الملك الفونس ، الذي اعلن « تمسكه كأسلافه بالكثلكة ، كما اعلن نفسه من جماعة الاحرار المخلصين باعتباره احد ابناء العصر » . فلم يتغير شيء وهدأت الحرب الكارلوسية الا ان السلطة المركزية لم تتوطد قط في البلاد. فالمجالس النيابية لا شأن لها والمرتبات الضخمة أجزلت لكبار ضباط الجيش على حساب موازنة وزارتي التعليم والزراعة، كما بقيت ناشطة ، جياشة الحركة القومية بين اقوام البشر ، واتخذت الحركة الكتلانية ، هي الاخرى ، بالاتساع والامتداد ، وتأزمت القضية العمالية. وبالرغم من هذه الامور ، فقد امكن للمؤسسات الدستورية ان تعمل وتنشط ، خلال نصف قرن ، اقله في الظاهر ، بحيث نشط للعمل في ظلها، المجتمع القديم الذي بقي حياً وسط مجتمع رأسمالي اكثر حيوية. وحصلت فترة شبيهة من الهدوء في البرتغال في عهد الملك الفنان لويس الاول . وفي احتياجها الشديد للنقد راحت حكومتا مدريد ولشبونة تسنان القوانين دونما طائل . والمشكلة الاساسية المتمثلة بالاصلاح المادي كانت في نظر المفكرين واصحاب الحجى في البلاد ، مرتبطة الى حد بعيد ، باصلاح عام يتناول الاخلاق . وراحت الحركة الادبية الطالعة في اسبانيا تحاول الكشف عن طاقاتها القومية . كما ان الكارثة التي نزلت باسبانيا عام ١٨٩٨ ، وافقدتها القسم الاكبر من مستعمراتها اظهرت للملأ قسوة الجهد ومرارة السعي اللازمين لمقاومة التيار السريع الانحدار . وبدت في البرتغال محاولة لاحلال النظام الجمهوري محل اسرة براغرانس الملكية التي عجزت كلياً عن

اخراج ولاية لوزيتانيا من الورطة التي تعانيها .

مشكلات المملكة الايطالية الفتية

نقاط التشابه والتماثل كثيرة بين شبه الجزيرة الايبرية والايطالية . فالنمو الديموغرافي اكبر وانشط هنا منه هناك، اذ ان عدد السكان فيها قفز من ١٨ مليونا عام ١٨٠٠ الى ٣٢ مليونا عام ١٩٠١، وبذلك بلغ معدل كثافة السكان ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد ، في سهل البو واودية توسكانا ومقاطعة كومبانيا وعلى سواحل صقلية ، بينما بقيت مناطقها الجبلية وسهولها الجافة التي تركبها الحميات ، قليلة السكان ، تردف بقوة حركة الهجرة الى الخارج والاغتراب . نرى من جهة تقاليد صناعية تحافظ على ما لها من شهرة واسعة . كما نرى من جهة أخرى افتقار البلاد للوقود والمعادن . في البلاد طبقة فقيرة من الفلاحين معدمة توسف في الجهل والاميـة وقعت فريسة الملكيات الضخمة ، كما تفتقر البلاد الى رؤوس الأموال . وقد مزقتها نزعات اقليمية نماها عهد طويل من التقاطع والتنابذ ، وحياة عارمة في المدن ضيقة الأفق ، محدودة المرمى والهدف . وقامت بين الشمال والجنوب منافسة حادة ومعارضة شديدة، اذ كان الاول اكثر ارتباطاً باوروبا الوسطى وبالتالي اكثر التصاقاً بالقارة الاوروبية ، شعبه نشيط ، دؤوب على العمل والصناعة ، بينما لا يزال الثاني يحمل سمات القدم والعهد السحيق يتمسكع في مساوىء الملكيات الضخمة . فالشمال هو الذي أعطى الوجود السياسي للبلاد وأمن كيان دولة فتية ، قوية عرفت ان تفرض نفسها بمساعدة أجنبية ، مع ان الجنوب كان أقل انقساماً سياسياً من الشمال . الا ان عملية التوحيد بين المقاطعات والاقراغ السياسي الجديد للبلاد التي تمت على عجل ، لم تحل كل المشكلات التي اعترضت سير الدولة الجديدة . فالمهمة بدت شاقة ، مرزعة لهذه الدولة الحديثة ذات الامكانات الضيقة بالنسبة لدولة يتكاثر سكانها بسرعة ، كثيرة الاحتياجات .

طلعت عليها هذه الصعوبات في الوقت الذي تمت فيه وحدة البلاد . فالجنوب لم يكن ليرتاح كثيراً للتقاليد الادارية والعسكرية المرعية في تورينو . واسرة آل سافوى التي كانت تتمتع بالعطف والرضى في المناطق الشمالية لجبال الابنين ، كانت ، في الجنوب ، موضوع تشكك وتذمر . وقام في وجه حزب اليمين المناصر للملكية والمضاد للاكليروس في البيامونت ، رجال الاكليروس واصحاب النزعات الاقليمية في شبه الجزيرة الايطالية ، والحزب اليساري الذي، بالرغم من نزعته المضادة للدين ، كان يشوبه شيء من النعرة المزينية لم تكن باشتراكية ، وكان يجد العديد من الانصار ، بين هؤلاء الغاضبين في مملكة نابولي القديمة . وراح سكان البيامونت يهاجمون بعزم وصلابة أقوى مما تم لهذه الهيئات اللمباردية والتوسكانية المتحالفة ، الامتيازات التي تنعم بها الرهبانيات والجمعيات الدينية في هذه المقاطعات التي تم توحيدها ، كما راحت تهاجم حروب المناوشات في الجنوب ، محاولين تأمين التوازن في موازنة الدولة وتوجيه ايطاليا للعمل والانتاج . وقد جاءت الاستجابة ضعيفة جداً ، لهذه الحركة الاصلاحية في هذه المناطق التي لا نفوذ فيها للبورجوازية وحيث تسيطر الملكية الضخمة ورجال الدين على الجماهير

الشعبية التي تتسكع في مهاوي الأمية والجهل المدقع . ومع فوز اليسار سيطر على شؤون الحكم في البلاد ، سكان صقلية . فوسعوا على ضوء مصلحتهم ، قاعدة التمثيل القائم على نظـــام الضرائب ومارسوا إفساد الضائر على نطاق واسع ، وقمعوا هذه الانتفاضات والفتن التي سببتها المجاعة بين صفوف العمال ، وراحوا يعللون الآمال الكبيرة في الخارج ، وهكذا رأينا كريسبي هذا الماسوني الجمهوري القديم ينهج سياسة التسلط والتحكم بدون ان يتوفر له المـال ، ملوحاً بعظمة الرومانيين وحقوق هذا الشعب البائس . وبالرغم من هذا البطء ومن هذا التفاوت الذي ميز التطورات التي اخذ بها الشمال ومقاطعة توسكانا ، فقد أمن ، مع ذلك ، استخلاص الكثير من الاراضي وتوصل لانتاج ٢٤ هكتوليتراً من القمح في الهكتار الواحـــد مقابل عشرة هكتو ليترات في الجنوب ، كما تطورت فيما بعد كثيراً زراعة الشمندر السكري والحدائـــق وتربية الماشية . وهكذا زادت بروزاً المفارقات بين الشمال والجنوب ، هـذا الجنوب الذي نراه يتذمر باستمرار مدعيا انه مرزح ، مثقل كما ان البؤس الذي يخيم على الجماهير الريفية فيه حملهـا على المهاجرة بأعداد كبيرة . ان توفر اليد العاملة الصالحة في الشمال واستثمار رؤوس اموال كثيرة معظمها اجنبية ، وروح الاقدام والمبادرة في المجال الصناعي هي من خصائص الشمال الذي عرف كيف يفيد كذلك من القوة الكهربائية مع العلم ان النظام المصرفي فيه كان ضعيفاً وسريع العطب وان سياسة الحماية الجمركية التي سارت عليها البلاد التقدمية لم تفد كثيراً ، وانه الى جـــانب بؤس الفلاحين والقضية الزراعية يجب ان نحسب حساباً لبؤس الطبقة العمالية ومشكلاتها الحادة

وايطاليا تعتمل فيها تيارات اجتماعية عميقة الغور . وكان من العسير جدا على طبقاتها الحاكمة ان تبني لها قصوراً في الهواء على نفع او جدوى سياسة كبرى تسير عليها ، تكلفها نفقات عسكرية مرزحة ولا على موازنة تشكو دوماً العجز وعدم التوازن . وهذه الطبقات التي تتحلى بالفطنة تولي عنايتها المحاصيل الزراعية والصناعية التي يؤمن بيع انتاجها تـأمين ميزان المدفوعات . الا ان ذكريات الماضي الحية في النفوس ، ومـــوقع البلاد الجغرافي حملها على الاهتمام بأسطولهـا التجاري ، الامر الذي ساعدها على اقامة علاقات واسعة مع دول كثيرة : هذه العلاقات التي ساعدت على استغلال ثروة اخرى تكمن على الاخص في هذه المناظر الطبيعية البديعة والآثار الخالدة الجديرة بكل احترام وثناء ، وقيام الكرسي الرسولي فيها .

اوروبا الـــوسطى تحت سيطرة المانيا البسماركية

بعد ان خطت خطواتها الاولى نحو الوحدة بمساعدة فرنسا ، راحت ايطاليا تتابع طريقها بمساعدة بروسيا مستغلة الى اقصى حـــد حرب عام ١٨٧٠ . فقد بقيت انظارها مسمرة نحو برلين . وجاءت قضية تونس تشدها اكثر فاكثر بالدول الجرمانية . فشق طريق سان غوتار ثم في الوقت الذي عقد فيه الحلف الثلاثي الذي رموا منه الى عزل فرنسا ووضع روسيا تحت المراقبة .

واوروبا الوسطى التي كانت لاجيال عـــديدة ساحة حرب ومعارك طاحنة ، اخذت هي

الاخرى ، بالتجمع ، فتقاسمت بلدانها ، منذ الآن فصاعداً مملكتان : هما الامبراطورية النمساوية المجرية التي سيطرت على حوض الدانوب ، والريخ الذي وحّد بين المانيا الشمالية والمانيا الجنوبية تحت سيطرة بروسيا ، وقامت بين الامبراطوريتين منافسة حادة وخصومة عنيفة انتهت بينهما الى شيء من المصالحة تمت معها السيطرة للامبراطورية الالمانية .

الريخ الالماني مجال لتطورات عظيمة

في هذه الحدود الجغرافية التي تمت لالمانيا عام ١٨٧١ وهي تكاد لا تزيد كثيراً عما تم من امثالها لفرنسا ، جاءت المانيا الجنوبية ذات النزعة الاقليمية الخاصة والطابع الزراعي ، والمانيا الوسطى ، الجبلية الطابع ، المتجزئة ، الكثيرة المعادن والاحراج ، والمانيا الرينانية التي احتلت منذ عهد قريب مرتبة صناعية وتجارية من الدرجة الاولى ، وساكس الوافرة الغنى بمواردها الزراعية والصناعية ، والسهل الشمالي المترامي الاطراف المعروف بفقره ، الواقع سواده الاكبر في بروسيا والمطل على بحرين ، فالغرب والجنوب مناطق كاثوليكية ، بينما الشمال والوسط مناطق بروتستانتية ، في هذه البلاد ثلاثة اقاليم رئيسية : بولونية كاثوليكية الى شرق ، وألزاسية لورينية الى الغرب ، معظمها من الكاثوليك ، ودائرة الى الشمال ، سيطرت في الشمال منها منطقة تميزت باصحاب الاملاك الضخمة ، كما قام في الجنوب والغرب منطقة اخرى ، اصحاب الارض فيها من متوسطي الاملاك وصغارهم . الى هذا كله تنوع كبير : كثير من العادات القديمة واحترام البزة الرسمية والوظيفة في الدولة ، والسلطة على الاجال ، والرضوخ لابوية فعالة والاعتداد بالعمل الذي انجز بالتعاون المشترك والرغبة في المضي بمجهود جماعي موصول . فلسنا هنا امام اتحاد كنفدرالي كما هي الحال في سويسرا ، ولسنا كذلك امام اتحاد دولي كما كان الوضع من قبل في الاتحاد الجرماني . فلبروسيا السيطرة السياسية وملكها هو الامبراطور ، كما انه من المتوجب على حكومة الريخ ان تقيم الحدود مع الدويلات التي تسهم في تشكيل *Bundesrath* والرايشستاغ المنتخبين من قبل الامة جمعاء ، كما انه يترتب عليها تأمين الخدمات والمصالح الفدرالية بمواردها الخاصة .

وهذه الوحدة التي تمت في غمرة الانتصارات الداوية هي بحاجة لسلطة قوية تثبت وجودها امام هذه النزعات الاقليمية والتهديدات التي تأتي من الخارج لتأمين الازدهار للبلاد . وبسمارك الرجل الحديدي اليد الذي انشأ الريخ بقيت يده على سكان سفينة الامة يتولى توجيهها وادارتها . فهو منصرف بكليته لتوطيد عمله وترسيخه .

ان ارتفاع الطاقة البشرية في البلاد ، بين ١٨٧٠ – ١٩٠٠ ، من ٤٠ – ٥٦ مليون نسمة جعل المانيا تتيه فخرا ، فانتشار اليسر وتحسن الاحوال الصحية خفض من معدل الوفيات وزاد في معدل امد الحياة دون ان يطرأ اي هبوط او انخفاض في نسبة المواليد التي بقيت قوية . وحركة الهجرة جرفت من البلاد عددا من الفقراء ، والاقبال على حركة النزوح الى المدن بلغ من إتساعه وقوة تياره بحيث اخذت البلاد تحول اكثر فاكثر ، على الصناعة والتبادل التجاري بعد ان عجزت الارض الممسكة عن تأمين الغذاء واسباب العيش لمن عليها . فبينما كانت البلاد في الامس

الغابر تصدر الحبوب والماشية الى الخارج، فقد اتخذت لها شعاراً الكلمات التالية *Verkehr* و *Handel* هذه الكلمات نفسها التي كانت شعار الاتحاد الجمركي المعروف بـ *Zollverein* فالعمل الريفي يأخذ بالالباب لنشاطه الجم ، محاولا ان يزيد من انتاجية هـذا السهل الرسوبي الممتد طولانياً من مونستر الى سيليزيا فيستصلح هذه الاراضي الرملية والبطاح العديدة ليجعل منها اراضي صالحة للزراعة تمتد من الـ *Geest* في الشمال الغربي حتى المقاطعات البولونية لتعطي اولى غلالها من البطاطا والشمندر السكري ، والخنزير وحشيشة الدينار دون ان يغني هـذا الانتاج عن شراء ما تحتاج اليه البلاد من الحبوب والثمار والخشب . فالارض تتوقع كل شيء من الصناعة ووسائل النقل بعد ان تؤمن لها ما هي بحاجة اليه من الآلات الزراعية والمخصبات ، ومثال هذه المحاصيل تنتجة لمحو مراكز السكن الكبرى المعروفة بضخامة استهلاكها . وهـذه الصناعة القديمة التي اعتادت ان تنتج عدداً كبيراً من الادوات والمصنوعات الرخيصة ، إنضمت اليها منظمات تجارية قوية سهل تأليفها توفر رؤوس اموال ضخمة ، بعد ان عرفت كيف تفيد من النظام الاجتماعي المسيطر على البلاد ومن جرأة الاساليب العلمية التي هي قيدالاستعمال.وقد برز باكرا ، عالم من الاعمال والمشروعات الجماعية رمت الى تأمين حركة بيع وتنفيق ضخمة في الداخل والخارج ، على السواء تتناول المنسوجات والمصنوعات المعدنية والمواد الكيماوية والبناء وهي نشاطات توزعت مقوماتها بين مقاطعات رينانيا وساكس وبرلين ومرافىء البحر الشمالي بفضل شبكة ممتازة من الخطوط الحديدية والاقنية المائية من المرتبة الاولى ، وبفضل اسطول تجـاري يبشر بطلوع نشاط واسع . فالبورجوازي هو الذي في شخص فربتاخ وآل سودرمان وآل هنريخ مان يطبع هذه الرصانة الهادئة الرزينة والثقيلة الوطأة نوعاً .

فأولو الامر يصرفون جهدهم الاكبر لتوحيد العمل واذكاء النشاط في قفير النحـل الذي تمثله الامة الالمانية . فالهدف الاول من السياسة الالمانية هو تسخير الريخ في خـدمة الاقتصاد الوطني. ولهذا بذلت الجهود ليس لتوحيد التشريع في البلاد فحسب كتوحيد المكاييل والموازين واصدار نقد واحد موحد لكل المانيا ، هو المارك ، بل ايضاً رصد مبالغ طائلة للاشغال العامة وللنفقات الحربية، فالجيش الالماني يجب ان يكون الاول بين جيوش اوروبا كلها . واذا لم يكن في مقدور الريخ فرض ضرائب على الاشخاص المسجلة اسماؤهم ، وهو امر من اختصاص الولايات استطاع مع ذلك تأمين الموارد اللازمة ، عن طريق قروض داخلية ورسوم جديدة تفرض على الاستهلاك . والرجوع الى سياسة الحماية الجمركية ، عام ١٨٧٩ ، يجب رده جزئياً ، الى حاجة الخزينة . فبسمارك في نقاش وحوار لا ينتهي مع مجلس النواب لاقرار الموازنة العامة .

فقبل عام ١٨٧٠ كان ارباب الاراضي الضخمة، المحافظون والمعروفون بعصبيتهم البروسيانية واللوثرية ، على خصام وجدل مع الوطنيين الاحرار هؤلاء البورجوازيين الذين يحرصون شديداً على النظام مع تأييدهم النظام البرلماني . وكان بسمارك قد قطع لهؤلاء ولأولئك ضمانة ، اذ قبل الاخذ بمبدأ الاقتراع العام ، ودون ان يسمح بتطبيق هذا القانون ، في جميع انحـاء الامبراطورية

الالمانية اذ أن صلاحيات الرايخشستاغ كانت مقيدة ومحـــدودة ، بينما كان سلطان الامبراطور وصلاحياته واسعة جداً ، فبعد الحرب كان خوفه من الحزب الديموقراطي الاشتراكي الذي برز للوجود من عهد قريب اخف مما سببت له معارضة الحزب الكاثوليكي من قلق ، هـذا الحزب الذي يمكن ان تنضم اليه الاقليات البولونية والالزاس واللورين . فـــراح يحاربهم بسياســة *Kulturkanpf* يشد من ازره اللوثريون والوطنيون الاحرار . وفي عام ١٨٧٩ ، قلب ظهر المجن لهذا الفريق الذي طالما مالأه ، وعدل عن نظام التبادل التجاري الحر ، وقام بحركة تقارب من حزب الفلاحين المحافظين ، واستخدم ضـد الحزب الاشتراكي ، تارة الضغط والاكراه ، وطورا تشريعاً اجتماعياً لم يكن ارباب العمل يرضون الاخذ به بطيبة خاطر ، على طريقـــة المطران كتلير واصحاب الاراضي .

وفي تلك الغضون راحت الازمة الاقتصادية الخانقة تفرض على البلاد في عداد ما تتطلب من مشاريع ، انشاء سوق واسعة تستطيع ان تزاحم الاسواق الكبرى في الخارج. الا ان الدفـــع الاقتصادي يتوقف قبل كل شيء على التنفيق والتسويق وقد عقب عهد الوحدة ، عهد الامتداد عهد « السياسة العالمية » .

وعندما دشن الامبراطور غليوم الثاني « العهد الجديد » ، كان المجتمع الالماني قـــد حقق نجاحات ضخمة في مجال الازدهار والرفاهية المادية صحيح ان نصيب الفلاح والعامل من هذا الرفه كان اقل جداً مما ناله كبار الملاكين وارباب العمال وكبـار الموظفين . غير ان الوفر المذخر العظيم الذي امكن تحقيقه ، وأهمية رؤوس الاموال التي امكن استثمارها ، كل ذلك جاء دليلا على نمو الطاقة المالية . وحركة تخطيط اصلاح المدن ، انما تدل ، مهما تباينت الآراء من الوجهة الجمالية ، كما يدل التصنيـع ، على هذه الإدارة الجبارة ، نحو ما هو ضخم ، عملاق . ومهما يكن هذا التوزيع الموسيقي الذي تم على يد واغنر ، فكل شيء يخضع لمستلزمات الجماعة ومقتضيات الضخامة ، مدنية جماعية . فالانسان فيها يربط نشاطه الفردي بهذه الانشاءات الوطنية بقصد تأمين ازدهار المجموع . فالفرد يضيع في المجتمع . وهذا التعاضد والترابط يقتل روح الاصالة في الفرد . فمن رأي نيتشه : « القوة تخبل العقل » ، « ولا يمكن بصورة من الصور ، الادعـــاء والتبجح بتحقيق انتصار الحضارة الالمانية » . فعبـارة القوة توشك ان تسكر المانيا الشاعرة بقيمتها والمشبعة بفكرة تفوقها .

الفصل السادس

أوروبا الشرقية ويقظة الصقالبة

لا نرى قط ان مصائر البشرية جمعاء منوطة باوروبا
الغربية وحدها (اسكندر هارزن ـ ١٨٥١)

بروز اوروبا الشرقية

بعد الخط الممتد من هامبورغ الى تريستا ، تأخذ القارة الاوروبية بالتكثف والتضخم . فالمناظر التي تتعاقب تحت انظـــار المسافر تشير بانه يودع ، شيئاً فشيئاً استطالة العالم القديم في الغرب ليوغل اكثر فاكثر في قلب العالم القديم ، حيث تقسع العين على اقطار اكثر اتساعاً وجبال شجراء وسهول فسيحة الأرجـاء ، وطرق تندر وتقل ، وشبكة من الخطوط الحديدية مخلخلة العرى . وألوان الطعام تغيرت وتبدلت فحلت العصيدة محل الخبز ، وصرنا نلمح الواناً من الطعام بينها الـ *Barszcz* وهو مزيـج من الملفوف والشمندر ، والـ *Braga* وهو ضرب من النبيذ المستخرج من الذرة البيضاء يشبه الـ *Kvass* الروسي (بينما يستطيب الالماني صنف الشوكروت مع الجعة) ، وتناءت المدن وتبـــاعدت وهي اقرب الى القصبة من المدينة ، بكنائسها البيزنطية وشوارعها المتعرجة التي يبدو عليها الاهمـال . في هذه المجتمعات البشرية ، كثيراً ما نرى تجمعات يهودية عديدة تؤلف احياناً غالبية السكان ، تستأثر بالتجارة واحياناً بالصناعة ، تتكلم اليهودية وتسكن حارات خاصة بها واحياء تنقطع اليهـا وتنعزل عن باقي الجماعات ، ترك شاغال لنا عنها العديد من الصور والرسوم . وقد تبلبلت فيهـا اللغات واللهجات المحكية وتنافرت لتصل احياناً الى عشر لغات مختلفة ، كما هي الحال مثلا في مدينة لفوف [1] كما تعددت الاديان والمذاهب والمعتقدات ، كما في فيلنا (حيث وُجد ١١ ملة أو طائفة) . ومدينة بودابست هي بمثابة جزيرة من طراز أوروبا الوسطى في وسط ريف على الزي الشرقي . ودالماتيا تؤلف واجهة من طابع لاتيني هي الباب الخلفي او البراني للبلقان . وهذا التشيكي في براغ يختلف تماماً عن هذا السلوفاكي في تتراس اختلاف الاسرائيلي في فيينا عن ابن دينه في الكربات الروتينية أو في البوكوفين .

وتضم الامبراطورية الالمانية ضمن وحدتها المتراصة جزءاً ـ بولونياً ـ من اوروبا الشرقيـة ليجد نفسه في وسط اكبر واقوى شعب في اوروبا الوسطى . اما في حوض نهر الدانوب فالأمر يبدو اكثر تعقيداً .

---

(١) ـ بيا ليستوك . من هذه المدينة الاخيرة طلع الدكتور زمنهوف الذي وضع سنة ١٨٨٧ ، لغة الاسبرنتو .

الشراكة النمساوية المجرية في حوض الدانوب

على إثر معركة سادوا التي كان من بعض آثارها ان تبعد النمسا عن المانيا وتقضي على الاتحاد الكونفدرالي الذي انشىء عام ١٨١٥، توصلت فيينا الى تحقيق التفاهم مع بودابست، هذا التفاهم الذي تحولت ملكية آل هبسبورغ القديمة بموجبه الى دولة مزدوجة قامت على الـ *Ausgleich* الذي تم عقده بين الطرفين عام ١٨٦٧، فخرج بموجبه الى عالم السياسة مسمى جديد هو النمسا ـ المجر أو المجر النمسا على حد سواء، فوضع بذلك مملكة القديس اسطفانس والنمسا على قدم المساواة، وبعبارة أخرى اكثر لباقة دبلوماسية، وحد بين ترانسليتانيا ما وراء النهر وترانسليتانيا عبر النهر.

وهكذا ضمنت اسرة هبسبورغ العريقة لنفسها البقاء وحمل رئيسها لقب الامبراطور الملك، رمزها النسر ذو الرأسين رمز الاستمرار والوحدة. وبالرغم من قلب الدهر له ظهر المجن، فقد عرف الامبراطور فرنسوا جوزف ان يحافظ على مركزه ومكانته عن طريق انصراف البلاد الخاضعة له، للعمل المثمر وطول عهده المديد في الحكم. فقد كان عهده عهد حكم مطلق، خفف من حدته التكاسل الذي طبع حياة فيينا التي عرفت بنعومتها ورقتها. وكان تعلق السكان بالاسرة المالكة تعلقاً قوياً مخلصاً، كما كان الجهاز العسكري فيها متيناً والشرطة يقظة.

وقد ألف الحوض الدانوبي، الى هذا كله، مجموعاً طبيعياً متكاملاً متكافلاً لو تناثرت اجزاؤه وتفككت لأنزل ذلك به كارثة اقتصادية تأثر الجميع من عقابيلها الوخيمة. ومع انها ادركت متأخرة عهد التطور الرأسمالي والاقتصادي، وكانت وسائل المواصلات فيها فقيرة ضيقة، فلم تبرهن اسرة آل هبسبورغ عن مقدرة تستطيع معها رفع مستوى حياة الشعب المتأخر تحت حكمها. فاللجوء الى الغرب، بعد عام ١٨٤٨، ورؤوس الأموال اللازمة للنهوض بأسباب التطور وقطع مراحله حثيثاً، لم يسمح للامبراطور فرنسوا جوزف الوقوف في وجه الاتحاد الجمركي الألماني (*Zollverein*) فاستطاعت بروسيا ان تؤمن لها الغلبة في ساحة الوغى. الا ان الولايات التابعة للتاج بالوراثة كانت غنية بمواردها الجيولوجية وتتوفر فيها يد عاملة لم تكن متطلبة. ولا تزال مقاطعات ستيريا وكارنتيا والنمسا العليا والسفلى ولا سيما بوهيميا تنعم بشهرة صناعية واسعة عرفت ان تحققها منذ عهد بعيد. واملاك التاج في هنغاريا، وهي املاك ضخمة واسعة جداً، تُرفد بمواردها الزراعية والراعوية الغنية، الغلال والمحاصيل التي تعطيها سيسليتانيا من الحبوب والشمندر والمراعي. وهكذا يمكن اعتبار هذه الشراكة الثنائية أو المزدوجة، سوقين استهلاكيتين تكمل الواحدة الأخرى.

هنالك، مع ذلك، فوارق ونزعات لا بد للمؤرخ من ان يلحظها ويأخذها بعين الاعتبار. فالصناعة، في النمسا، كانت بحاجة لسياسة حماية جمركية، ومثل هذه السياسية لم تكن هنغاريا تتمناها أو تريدها باعتبارها بلداً مصدراً للحبوب والمحاصيل الزراعية. ولذا كان لا بُد من التوفيق بين مطلب الزراعيين واصحاب رؤوس الأموال الصناعيين. وهذا ما رمى اليه بالفعل الاتفاق الذي توصل الجانبان الى عقده، واعادة النظر فيه كل سنتين، على ضوء الاوضاع الراهنة.

ومقابل الفوائد التي أمنها هذا الاتفاق الحي رأت النمسا تعويضاً لها عن غبن لحق بها فرض تعريفة مرتفعة . وفي أثر أزمة عام ١٨٧٣ التي جاءت أخف وطأة على المنطقة الوسطى الشرقية منها في تلك المنطقة الصناعية الأكثر تطوراً، فقد انفتح في وجهها باب البلقان بفضل الاتفاقات التي تم عقدها مع كل من صربيا ورومانيا ، وبفضل التعريفة الاكثر رعاية عرفت مرافىء وموانىء البحر الادرياتيكي أمثال تريستا وفيومي ، ازدهاراً كبيراً .

فكبار الملاكين والبورجوازية هما القوتان الاجتماعيتان اللتان نسجت وقائع تنافسهما حيناً ، واتفاقها احياناً ، وتطوراتها ، تاريخ هذه الملكية الثنائية . فالارستوقراطية التشيكية الالمانية في بوهيميا ، والبولونية في غاليسيا ، والمجرية في هنغاريا أحكمت السيطرة على مداخل السلطة ومخارجها . فقد عرفت ، بما تم لها من ثقافة وخبرات واسعة ، كيف تتخذ لها يداً من الاستثمارات الكبيرة لادخال التصنيع الآلي الى البلاد ولتطوير الاساليب الزراعية فيها . فهذه الارستوقراطية تصدر الحبوب وتشحنها الى الخارج بينما عدد كبير من سكان البلاد يتضورون جوعاً ويضطرون للنزوح عن البلاد . صحيح ان هبوط اسعار المواد الزراعية ترك أثره العميق على الارباح وعلى ريع الاملاك ، ولذا راحت الاسر الكبيرة العريقة النسب تطالب بالحماية اكثر من أي وقت مضى ، ان توقف عليها الوظائف الكبرى ، كما اخذت تهتم ، من جهة أخرى ، بالنشاطات الصناعية .

وعندما اشتد ساعد البورجوازية اخذت بمهاجمة المؤسسات الارستوقراطية والاكليريكية ، كما اخذت تطالب بعلمانية الدولة وتحقيق الوحدة الادارية التي من شأنها ان تيسر كثيراً المعاملات الرسمية ، فقد استطاع اليهود ان يؤمنوا سيطرتهم على المهن الحرة وعلى مرافق التجارة في البلاد (ففي الجمنازات والمعاهد العليا اربعة من اصل خمسة هم من اليهود الامر الذي شحن النفوس بعداء مستحكم للسامية) . وبدافع من رجال الفكر والادب هب على البلاد تيار اشتراكي قوي وجد له عدداً من المؤيدين والانصار بين العمال في فيينا والمراكز الصناعية الاخرى . ووقعت اضطرابات وقلاقل اجتماعية ، سنة ١٨٤٨ ، ومنذ ذلك الحين رأت الملكية الثنائية نفسها عرضة للاضرابات وللفتن الريفية .

فقد ألفت العناصر الموجهة في قلب الطبقات العمالية، اقلية ضئيلة رفلت بجميع اسباب الراحة والرفه في المجتمعات الكبيرة وفي القصور . فهل من داعٍ الى رهن اراضيه وأطيانه هذا المتلاك الكبير الذي كثر لديه الحشم والخدم ، والذي تزخر مائدته بأطايب الوان الطعام وترفل باللذيذ الفاخر من الشراب، والذي تم له من طاقم الفضية ومجموعات السجاد والطنافس والخيول الأصيلة والعربات ، والذي يقيم له الحدائق والرياض الغناء (فالاملاك التي تخص الارشيدوق جوزف في كونتية فيجر والتي نسقت على الطراز الانكليزي حدائقها وبساتينها ، تمتعت بشهرة واسعة من حيث تنسيقها) ويقوم في فيينا مجتمع ثقيف ، مهذب ، لطيف المعشر ، متساهل ، تعشق الادب الرفيع والموسيقى واشرأبت عيناه نحو المانيا والغرب .

وبالرغم من هذا فقد عانى الامبراطور الملك من صراع القوميات . فكبار الامراء وبورجوازيو بوهيميا او غاليسيا هم على استعداد للتفاهم مع فيينا على شروط معينة . والحقيقة التي لا مماراة فيها هي ان العنصر الجرماني الذي طبع عميقاً المؤسسات والاذواق وصناعي التفكير في الامبراطورية النمساوية القديمة لم يجر اتفاقه مع العنصر المجري الا ليتمكن من الصمود في وجه الدفع السلافي . « صونوا حدودكم لتحافظ على سلامة حدودنا » كان يردد واحد من هؤلاء الذين قادوا المفاوضات التي ادت الى هذا الاتفاق [1] وهذا التفاهم الالماني المجري آل في نهاية المطاف ، الى التحالف مع برلين وبالتالي الى احتلال البوسنة والهرسك ، وكلاهما من الاراضي السلافية السكان ، فالامبراطور فرنسوا جوزف لا يلبث ان يصبح ، بعد قليل « الرفيق الجميل » للرايخ ، والمجري وسيط بينهما .

في حوض الدانوب ، كما نرى ، تاججون وفاشلون . ولعدم قيام شكل فدرالي — قد يكون من المستبعد تحقيقه — بقي التعاون بين مختلف القوميات الواقعة تحت سيطرة آل هبسبورغ .

من البحر البلطيقي الى الادرياتيكي قوميات مستعبدة تتململ وتتمطى

والقرن التاسع عشر الذي تميز بالاستقرار جغرافياً في اوروبا ، ساعد على ترسيخ التقسيمات الجغرافية الكبرى التي وقعت الى الشرق منها ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر لمصلحة الملكيات الثلاث : النمساوية والبروسيانية والروسية . فالاتفاق الذي تم عقده ، عام ١٨٦٧ بعد ان حدد الاهداف وعين المهام الموكولة لكلا الطرفين ، : إضعاف « الاجلاف » قطع سيسليتانيا : البولونيين والروتين في مقاطعة غاليسيا ، وباعد بين السلوفاك والتشيك والسلوفين والصرب والكروات في مقاطعة دلماتيا عن اخوانهم في الدم : الكروات والصرب في هنغاريا ، واحتفظ للامبراطورية النمساوية بايطاليي البترول وتريستا وبرومانيي بوكوفينا ، كما ادمج رومانيي ترانسلفانيا في ترانسليتانيا ، كل ذلك عملاً بالقول المأثور : « فرق تُسد » .

بقيت المقاطعات البلطيقية الواقعة الى الشرق ، خاضعة منذ الاجيال الوسطى للنفوذ الجرماني . فالتجارة سيطر على مرافقها الالمان فجعلوا من مدينة ريغا مدينة حلوة جميلة ، كما استولى البارونات الالمان على الاراضي الزراعية . والتعليم في جامعة دوربات (تارتو) كان يعطى بالالمانية . الا ان عدداً من كبار الملاكين اضطر لبيع املاكهم في أثر عملية الاصلاح الزراعي الذي قام بها الروس ، عام ١٨٦١ . وهكذا ظهر في البلاد ، من جهة ، طبقة من صغار الملاكين ، كما ظهرت ، من جهة ثانية ، طبقة بورجوازية محلية ، بفضل ظهور الخط الحديدي وتطور المرافىء البحرية في هذه المنطقة . وقد نتج عن ذلك ، يقظة بين القوميات ابتدأت في مجال اللغة ثم تطورت الى المجال السياسي . فاذا ما رأت الحكومة الروسية ان توجه حركة اليقظة هذه ضد التيار الجرماني ، فلم تكن لترمي من وراء ذلك ، الى اطلاق حركة انفصالية ، بل

(١) في عام ١٨٨٠ ، هنالك ٩ ملايين الماني (منهم ٨ ملايين في النمسا نفسها) ، و٦ ملايين مجري ، مقابل ١٧ - ١٨ مليون سلافي ، و٣ ملايين ونصف مليون روماني وايطالي .

رمت الى تشجيع حركة « ترويس » هذه المقاطعات وطبعها بالطابع الرومي وذلك بتحريم استعمال اللغات واللهجات الاقليمية في التعليم والمنشورات الرسمية .

وفي غراندوقية فنلندا الظليلة الاحراج والغابات، القاسية المناخ والفقيرة والتي تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري والثقافة الروسية واللوثرية التي تغلغلت بين نبلاء البلاد والبورجوازية، لم تنتشر كثيراً بين سكان الريف الذين يتكلمون اللغة الفينية . وقد ترك الحكم القيصري هنـــا للشعور القومي ان ينمو ويشتد بحرية، وذلك لاضعاف النفوذ الالماني المسيطر من عهد قريب، كما ان الامبراطور اسكندر الثاني جرد الاكليروس البروتستانتي من حـــق الاشراف على التعليم ، وراح يوسع من الحريات المحلية بهذا المرسوم الذي اصدره عام ١٨٦٩ في اعقاب مجاعة مخيفة تضرست بها البلاد. وقد اخذ الاقتصاد الفنلندي يتطور مع استثمار صناعة الخشب والصمغيات والقطران وصنع رب الورق وعيدان الكبريت . ونما عدد السكان فيها بسرعة . واذا اخذت الحكومة الروسية تنظر شزراً الى اشتداد الحركة الوطنية واستفحالها في المنطقة ، فقد آلت على نفسهـــا ان تربط بالامبراطورية الروسية ، سوقاً ناشطة ومقاطعة لها اهميتها الخاصة من الوجهـــة الستراتيجية ، تقع على قيد غلوات من ابواب عاصمتها . وسيصادف سوورومي اوقاتاً عصيبة جـــداً في أخريات هذا القرن .

فكيف السبيل لعمري الى بعث الحياة في بولونيا وهي على ما نرى مقسمة الى ثلاثـــة أجزاء لكل واحد منها محور جذب وسيره الخاص ؟ غير ان الامة البولونية المتزايد سكانها، المجاهدة، الفتية ، تحافظ على وحدتها الروحية . فهذه الآمال الرومنطيقية التي راودت خيالهـــا الجموح ، ذهبت في الارض هباء منثوراً بعد الفشل الذريع الذي أصاب الثورات التي قامت بها في المنطقة الروسية ، عام ١٨٣٢ و ١٨٦٣ ، على اثر الغاء جمهورية كراكوفيا ، عام ١٨٤٦ . هـــذا الكيان المهلهل الذي بقي من الاستقلال البولوني . فالارستوقراطية البولونية فشلت تماماً في مقاومتهـــا الدول الثلاث التي تقاسمت بولونيا من قبل ، كما لم يكن بالامكان مجابهتها بنجاح . وجل ما أطل من أمل مرتجى هو احتمال قيام تعاون موصول بين كبار ابنـــاء غاليسيا وآل هبسبورغ ، كما ان حركة الاغتراب السياسي الكبيرة في جميع أرجاء اوروبا عجزت في محاولتهـــا إثارة أي رغبة في تعديل معاهدات ١٨١٥ ، كما ان انتصار بروسيا على فرنسا عام ١٨٧٠ ، والتفاهم القائم بـــين الاباطرة الثلاثة ، أبعدت عن الانظار مثل هذا السراب الغرار ، ومنذ ذلك الحـــين ، غلبت على القائمين بالحركة « النظرة الواقعية او الموضوعية » ، أي النظرة الى الواقع بالعـــين المجـــردة ، أي محاولة الصمود في وجه كل حركة ترمي الى « جرمنة » و « ترويس » البلاد ، والاقبال على تقوية القوى الحية الناشطة في البلاد ، الفكرية منها والمادية . ومنذ ذلك الحين اخذت تـــبرز للعيان بولونيا اكثر اخذاً بأسباب العصر ، واكثر إقبالاً على أسباب التصنيع ، مع العلم ان نشاطاتهـــا الرئيسية تسيطر عليها العناصر اليهودية والالمانية . كذلك اخذ يبرز الضمير الوطني اكثر تحرراً بـــين البورجوازيـــين الاحـــداث واكثر اشتراكية بين رجال الفكر والادب واكثرهم من طبقة

البروليتاريا الذين راحوا يعولون على الدور الذي ستلعبه ، في المستقبل الطالع ، حركة عمالية ناشطة . ففي الشطر الالماني ، راح الفلاحون ورجال الاكليروس الكاثوليكي يقودون حركة الصمود في وجه عملية « جرمنة » البلاد الواسعة ، في المدرسة والريف . أما في الشطر الروسي فقد آلت حركة « ترويس » البولونيين الى نشر الامية بين جماهير الشعب . وعلى عكس ذلك برز الوضع في غاليسيا ، أي في الشطر النمساوي حيث سيطر جو حليم خفيف الوطأة ، اذ تمتعت المقاطعة بشيء من الاستقلال الاداري والثقافي جاء يوثق من روابط الاتفاق الذي شد الروابط بين أعيان المقاطعة من جهة ، وبين حكومة فيينا التي أخذت تشجع تدريس البولونية في مقاطعة لفوف (ليوبول) ، هذه المقاطعة التي ألفت مع كراكوفيا ، مشعلاً للآداب ومنارة للعلوم والفنون. وهذه البرودة التي دبت الى العلاقات بين روسيا وبين الامبراطوريتين المركزيتين الاخريين ، ساعدت بدورها على بعث الامل في قرب انبعاث بولونيا الى الوجود .

وتاريخ الاقلية التشيكية اخذ مجراه ضمن الملكية النمساوية . ففي بوهيميا نفسها ترى العنصرين الالماني والتشيكي تارة على وفاق وطوراً في خصام . فالاول منهما، اي الالماني ، يحتل المنطقة الجبلية الغنية بمعادنها واحراجها ونشطت فيها ، كما هي الحال في ساكس وفي سيليزيا ، صناعة النسيج. أما الثاني، فيسكن التجويف الجغرافي الذي يحيق بالعاصمة براغ التاريخية ، وبمدينة بلزن المعروفة بصناعتها الحديدية ويطالب عالياً «بحقوقه التاريخية» في هذه المقاطعات التاريخية التي خصت عرش الملك فنسسلاس، اي باعادة مملكة بوهيميا الى الوجود ، ومن ضمنها مورافيا وسيليزيا . هنالك ارستوقراطية تشيكية ألمانية ألفت التعاون مع فيينا وراحت تعتمد في نشاطها السياسي ، على آل هبسبورغ ، كما قام من جهة أخرى ، بين بوهيميا والنمسا روابط اقتصادية متينة. وهذا الوضع بالذات حمل بلاتشكي على التصريح بعد الفشل الذي اصيبت به حركة الجامعة السلافية الفدرالية، عام ١٨٤٨ ، قائلا: «لو لم توجد الامبراطورية النمساوية من عهد بعيد، لوجب العمل على انشائها في الحال لخير اوروبا جمعاء». ولذا جاء الاتفاق (بين النمسا والمجر) صدمة عنيفة للحركة النمساوية السلافية التي لم تكن لتحقق في قلب مقاطعة سيسليتانيا ، سوى تنازلات جزئية ، كاردواجية اللغة مثلا وكانشاء جامعة تشيكية . وبذلك اخفقت المساعي الى عقد اتفاق نمساوي تشيكي شبيه بالاتفاق المجري الكرواتي . والحال فالشعب التشيكي المعروف بخصب تناسله ، اخذ يحقق شيئا من السيطرة في هذه المناطق المتعددة، وأخذت طبقة من البروليتاريا الصناعية وبورجوازية تجارية تزيل تدريجياً الطابع الجرماني العالق ببراغ وبلزن ، بينما راحت الطبقة التشيكية المفكرة ، تنبذ هي الاخرى ، الثقافة الالمانية . وقام في وجه حزب « قدامى التشيك » الذي أخذ نفوذهم الهبوط وحزب التشيك « الفتاة » الذي رفض التسليم أو القبول بسقوط الحقوق التاريخية ، وراح يطالب بانشاء دولة تشيكية ديموقراطية . وهكذا حوالي عام ١٨٩٠ ، وجه الاستاذ توماس مازارين التشيك والسلوفاك نحو الاتحاد معاً لدك السيطرة الجرمنية النمساوية . فقد حاول اجتذاب الفلاح السلوفاني في تتراس نحو بوهيميا وهو اكثر تطوراً موصياً بأن الهجوم

يجب ان يتجه ضد بودابست وفيينا على السواء .

بين الشعوب التي خضعت للملكية الهبسبورغية كان الشعب المجري هو اول من يستفيد من هذا الاتفاق . فاذا ما أطلت علينا حركة « مُجيرَة » قبل عام ١٨٦٧ ، واذا ما رفض الزعيم المجري كوسوت عام ١٨٤٨ للأقليات الاخرى، في مملكة القديس اسطفانس القديمة ما يطالب به هو اليوم للمجر، راح اولو الامر في بودابست يمارسون ضغطهم الشديد عندما وُضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ . « فعلى هنغاريا ان تبقى هنغاريا او تموت » ، بهذا كان يصرح كولومان تيزا . وهجوم المجري على الروماني اتسم بالعنف ، هذا الروماني الذي نزح من جبال ترانسلفانيا الشجراء ليستقر في مقاطعة باتات وضواحي بيهور ، وكذلك هجومه على الصربي القابع في ما بين النهرين البانوني ، بالرغم من الاتفاق المعقود بينهما عام ١٨٦٨ والموجه ضد الكروات على الاخص . وهذا المجري المتمركز في الوسط الذي يرى تحت تصرفه الموظفين ويستخدم في سبيل تحقيق اغراضه الثكنة والمدرسة والجريدة والاكليروس والاحصاءات بعد أن يجري فيها تلاعباً وتزويراً ، يحاول أن يبسط سيطرته على المناطق الدائرية . فقد جاءت النتائج مشوشة ، مضللة للرأي العام في الخارج . والضغط ولد دوماً ردات فعل عكسية ، فدفع بالسلوفاك باتجاه براغ ، وفتح الطريق أمام حزب وطني جديد في رومانيا ، وحمل الصرب على الاتجاه بنواظرهم نحو بلغراد ، وعمل على إثارة واهاجة الحركة اليوغسلافية التي الفت خطراً يحسب لها الف حساب في هنغاريا المجرية .

ويعتمل صقالية الجنوب بتيارات متضادة . هنالك بالفعل ثلاث أقليات سلافية : اثنتان منها ترسفان تحت حكم آل هبسبورغ من عهد بعيد هما السلوفين والكروات وتتجهان بأنظارهما نحو فيينا ونحو روما كذلك، بوصف سكانها من رعايا الكنيسة الكاثوليكية ، ولا يزال طرياً في الاذهان ذكر مرور الفرنسيين في إليريا والمناداة باستقلالها القصير . اما الاقلية الثالثة ، وهي اكبرها على الاطلاق ، فتتألف من هؤلاء الصرب المستقيمي الرأي أو العقيدة الذين خضعوا أجيالا طوالاً ، للسيطرة العثمانية ، مما حمل قسماً منهم على اعتناق الاسلام. من هنا: صربيا التي تحاول ان تلعب من بلغراد، نحو الاتراك ، الدور الذي لعبه البيامونت ، ومن هناك زغرب التي قد تصبح عاصمة اتحادية لثلاث اقليات هي كرواتية وسلافونية ودالماتية (*La Troyadna*) . وقد لعب الامبراطور فرنسوا جوزف آخر ورقة بيده هي حركة اوستروسلافية اخرى . فالفريق الكرواتي بزعامة جيلاتشيتش قام يرد على تعنت كوسوت كرجع صدى لبالاتشكي : « لو لم تكن النمسا موجودة لوجب ايجادها في الحال » . برنامج يوغسلافي هذه المرة ، يضمه كرواتي ويدور حول الكروات . فبينما كانت صربيا تتحرك دائرة على نفسها ، فضلت فيينا ان تدخل في مفاوضات مع المجر وتوفقت الى ابعاد السلوفينيين عن الكروات فتلقي بهؤلاء الى ايدي المجر بينما تحتفظ هي لنفسها ، بهذا الحزب من مقاطعة دالماتيا التي تقطنه أقلية صربية كرواتية الى جانب اقلية ايطالية اخرى . فكان على كرواتيا ان تنزل عند هذا الاتفاق

الغامض الذي وقعه قوم يجيشون كراهية للحركة الصربية ، فلم يبقَ من ثم أي محل ، بعد هذا التدبير ، لالليريا . وتوترت على الأثر العلاقات بين بودابست وزغرب في الوقت الذي راحت فيه المملكة الثنائية توافع عن الكاثوليك والمسلمين ضد الارثوذكس في مقاطعتي البوسنه والهرسك التي احتلتها عام ١٨٧٨ . وهكذا لم نَبْعُد ببعيدين عن هذا اليوم الذي ستشهد فيه الجامعة اليوغوسلافية وقوع انهيار الامبراطورية النمساوية ـ المجرية وتفسخها لمنفعة صربيا الكبرى.

وهكذا من البلطيق الى الادرياتيك، اشتد هياج الاقليات الواقعة تحت الضغط بالرغم من التطور الذي اصاب مرافق البلاد الاقتصادية ، في الامبراطوريتين الالمانية والنمساوية . ومما هو انكى من هذا كله واوقع في النفس هـو ان تصبح هذه المنطقة مكمناً للخطر يهدد السلام في اوروبا .

تقهقر تركيا وبروز الدول البلقانية

والوضع السياسي في البلقان يبدو كثير المزالق واكثر ميوعة. فشبه الجزيرة البلقانية هذه التي تتقاسمها الجبال العالية وتجعل منها مناطق موصدة وحجيرات شبه مغلقة ، لا تضم ، بخلاف شبه الجزيرة الايبرية المقابلة في الطرف الآخر من البحر المتوسط ، أي صعيد في وسطها ، واصبحت على قاب قوسين وادنى من تحررها من نير الاتراك العثمانيين وعبوديتهم . نحن هنا أمام فتح مسيحي جديد . فقد حلت التجزئة محل الوحدة الاسمية ، وقد استفحل تدخل الدول الاوروبية في هذه المنطقة التي وقعت في صلب ما يعرف بالقضية الشرقية التي تعني النظر في أمر وراثة أو التصرف بتركة « الرجل المريض » ، اذ نرى من جهة ، الروس يشرئبون بأعناقهم الى القسطنطينية والى المضايق ، كما نرى من جهة أخرى البريطانيين يقفون في وجههم ويقطعون عليهم الطريق، كما نرى الضغط الجرماني المجري يشتد ليتجه من حوض الدانوب السفلي شطر بحر ايجيه ومنافذ البحر الادرياتيكي . لعبة متشعبة ، معقدة ، يعلل فيها الاتراك النفس بالأمل ان يفضي هذا التنافس الى ترسيخ اقدامهم كما تعلل القوميات التي تتحرك وتحور في هذه المنطقة النفس بأمل الاستقلال على ان تجد بين الدول الاوروبية الكبرى من ينصرها ويقف الى جانبها . وهكذا فطلوع هذه الدول البلقانية وإطلالتها على الدنيا ، تتم نهزة نهزة ، وفقاً لمجريات السياسة الاوروبية .

فقد فرضت هذه السياسة على السلطة العثمانية ، في مطلع القرن العشرين ، الاعتراف باستقلال اليونان ، وهي سابقة حرصت قوميات عديدة على تذكرها في اليوم العصيب . ولكن دولة اليونان هذه التي برزت عام ١٨٢٩ ، جاءت دولة فقيرة ، « قاحلة جرداء » في معظم مناطقها ـ هكذا تبدت للامارتين ، عام ١٨٣٢ ـ لا مال عندها ولا حكومة ، قوامها وكيانها يتألف من مقاطعة الاتيك وجزيرة أوبيه ومقاطعة البلوبونيز القديمة (الموره) وجزر السيكلاد ، وهي تتأرجح بين النفوذ الروسي والنفوذ البريطاني. ومع ذلك فسيتنازل لها الانكليز عن الجزر الايونية، ثم حالفها الحظ فضمت اليها مقاطعة تساليا وفكرت جدياً بضم جزيرة كريت ومقاطعتي الأبير ومقدونيا ، كما اتجهت بأنظارها نحو شواطىء إيجيه الآسيوية : حركة ضم وتوحيد

جريئة لعمري ، اذا ما نظرنا الى ضعف وسائل التنفيذ والعمل المتيسرة لديها . فحق الاقتراع العام يفعل فعله ، كما ان الأقبال على العلم والتعلم ينبض في كل صدر . الا ان الاقتصاد الوطني يشكو من الفقر المدقع كما ان الحاجة الشديدة للفنيين ولرؤوس الأموال مقعدة لها مرزحة ، اذ ان تحصيل العلم يفضي بطالبه الى مزاولة المهن الحرة والى الوظائف العامة والى المراكز ذات المرتبك المغريات والى المعترك السياسي . واثينا التي كانت قصبة صغيرة عند الاستقلال ، ألبانيـــة الطابع والسمة اكثر منها يونانية ، قفز عدد سكانها من ١٥ ألف عند المناداة بها عاصمة للبلاد الى ١٠٠،٠٠٠ شقت فيها الجادات الواسعة في وقت عجزت فيه مرافق الزراعة عن تأمين إعالة السكان الآخذ عددهم بالازدياد بسرعة ، فبعد ان عطلت قلة المواصلات وافتقار البلاد للادوات والاجهزة المسعفة كل حركة . وسوء توزيع الملكية في البلاد وتوزيع الاقطاعات التركية لم يحل قط دون بقاء اصحاب الاملاك الضخمة يرزحون تحت وطأة الضرائب والاعشار . فالاغريقي يؤثر التجارة ، وهنالك جانب كبير من الاغارقة يعملون خارج هـــذه المملكة الصغيرة التي أمدتها بافاريا بملك من عندها عقبه ملك آخر من الدانمارك ، على أمـل أن يبقى هؤلاء الامراء فوق الحزبيات المحلية التي تتطاحن فيما بينها للاستئثار بأكبر عدد من المنافع . هذا هو لعمري وضع الاعجوبة اليونانية .

وهذه اليونان التي تؤلف شبه جزيرة صغيرة في قلب شبه الجزيرة البلقانية مع ما اليها من جزر متناثرة ، تشعر في الصميم ، انها تتصل بالبحر الابيض المتوسط بكل جوارحها . اما القوميات البلقانية الاخرى التي تتسم بالاحرى بالطابع القاري الشرقي ، فهي تمور وتتحرك ضمن حدود مبهمة لا تستقر على وضع ولا على حال .

هنالك ابن تائه للحركة السلافية يحتل في هذه الجبال الوعرة المسالك ، عش نسر لا يرام ، يخضع لسيطرة العثمانيين . هذا البلد يعرف عند الاتراك باسم : كراداغ وعند الايطاليين بالجبل الاسود ، وعند اليوغوسلاف بـ *Tserno Gora* ويطل من عل على نهـــر كوتور (كاتارو) . وتؤدي الى هذه الامارة الثيوقراطية التي يؤول الامر فيها لآل بتروفتش نيغوش ومن اليهم مـن هؤلاء الاقوام الرعاة الذين يتراوح عددهم بـــين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألف نسمة ، الطريق الوحيدة المعبد لعربات الجر . فهو يكاد لا يظهر على الخريطة الجغرافية ، ومع ذلـــك فقد كان حصناً حصيناً من حصون الحركة الصربية منذ ان لاقت صربيا دوشان حتفهـــا في معركة كوسوفو الطاحنة .

وتُبعث صربيا من جديد ، ولو ببطء فتقتطع محلا لها تحت الشمس ليس بـــين انهار بانونيا ، بل عند ملتقى نهري الدانوب والساف فيجريا معاً في وادي مورافيا باتجـــاه مقدونيا . وهؤلاء الانكشارية الذين اتخذوا من قلعـــة بلغراد حصناً حريزاً لهم لم يهدأ يوماً لهم روع ولا بال منذ ان تلاحق على مهاجمتهم ، دونما ملل ، هؤلاء الفلاحون الخوارج الاشداء من سكان المقاطعات

المجاورة يربون قطعان الخنازير في غابة البلوط القريبة ، « غابة عذراء » في عيني لامارتين الذي زارها عـــام ١٨٢٩ . وميلوخ اوبرنيوفتش الذي اعلن نفسه رئيساً اعلى *Knez* للامة الصربية كان احد مربي الخنازير ، على شاكلة كارا جورج الذي تولى قيادة الثورة في عهد نابليون وراحت الامارة الصربية تجاهد صابرة ، دونما ضجة في الظاهر ، وتناضل في سبيل التحرر من ربقـــة الاتراك العثمانيين ، محاولة التوسع عبر مجاز نهر الموراڤا. الا انها عجزت عن الوصول الى احواض مقدونيا ، كما فشلت في محاولتها الاتصال بالشقيق الجبل الاسود . فقد استطاع الاتراك الاحتفاظ بالمجازات التي تفضي من تراقيا الى شواطىء البانيا والى البوسنة. وقد أقصيت ، هـــذه الاخيرة ، عام ١٨٧٨ ، من الدولة السلافية الجنوبية ، التي تخلت عنها روسيا وتركتها وشأنها ، برهة من الدهر ، لتقع تحت تابعية الامبراطورية الاوسترو – مجرية الاقتصادية . وبعد ان حيل بينها وبين البحر وانعدمت لديها كل الامكانات والوسائل الضرورية واصبحت عالة على القروض التي تأتيها من الخارج ، وبقيت مملكة آل اوبرينوفيتش ، حوالي عام ١٨٩٠ ، بلداً فقيراً سكانه الفلاحون يتكاثرون وينمون بسرعة تشدهم بعضاً الى بعض وشائج القربى والتماسك مع مجتمعهم . ومـــع ذلك،لن يلبث هذا الشعب الفخور، المناضل الذين لا يزيد عدد سكانه على مليوني نسمة ان يصبح مناط امل اليوغسلافيين الوطنيين الذين نظروا اليه نظر الايطاليين الى البيامونت فكان محـور وحدتهم وعمل على جبهتين : ضد الاتراك وضد النمسا والمجر .

وقد لعبت الـ *Munte* المولداف والفـــلاخ ، في مطلع القرن التاسع عشر دوراً يشبه الدور الذي لعبته *Chaumadia* عند صغار المزارعين والرعاة الرومانيين متخلين عن الـ *Cimp* او السهل، للاسياد الروس *Boiars* الذين اخضعوا المزارعين العاملين عندهم لعبودية الارض تجار الحي اليوناني المعروف بالفنار . في استنبول فالثورة اليونانية أقصت سلطة السلطان عن الفناريين واستبدلتهم بأمراء محليين من ابناء اليونان جرى انتخابهم من قبل الـ *Boiars hospodars* الروس . ومع ان هذه الارستوقراطية الاقطاعية حررت الفلاحين واولتهم ، عام ١٨٦٤ ، حق تملك الارض ، على غرار ما فعلته الحركة الاصلاحية الزراعية في روسيا ، الا انها لم تفقـــد شيئاً من سيطرتها وبأسها بهذا الاستقلال الذي ساهم نابوليون الثالث بتحقيقه . فهي تحكم رومانيا المولدو – فالاخ تحت ستار دستور معلن ، وتفتح ابواب البلاد امـــام رؤوس الاموال الاجنبية التي تطمح الى السيطرة على ثروات البلاد من الحبوب والخشب والبترول . وهذا الاستثمار حرص على ان يبقي متدنيا ، مستوى العيش في شعب خصب التناسل ، سريع الخاطر ، حاد الذهن .

والسياسة الحزبية التي تعلن عن نفسها متحررة ، لم تحُل قط دون ثورة الفلاحين ولا دون اضطهاد الاقلية اليهودية في البلاد والغالبة الوجود في المدن . هنالك نخبة صغيرة ثقافتها فرنسية تقطن قلب بخارست تقابلها هذه الجماهير الريفية التي تتسكع في الجهل والجهـــالة والـــتي تفتقر في الصميم لكل جهاز وآلة ، تشاطر الحيوانات الاهلية مسكنها الذي يتألف عادة من اكواخ من اللبن او من روث البقر المجفف سقفه المعروف من القش أو من القصب ، في جو قاس منفر. هذا وضع

تفح منه رائحة الروسي الذي يصدر الحبوب في الوقت الذي يتضور الفلاح فيه جوعاً . فالوفيات بينها عالية والاتسال في خصب غريب . فرومانيا التي كانت تعد عـــام ١٩٠٠ خمسة ملايـين نسمة هي اكثر دول البلقان سكانا. فضمهم لمقاطعة دوبرودجه القفراوية على البحر الاسود لم يعوض عليهم خسارتهم لمقاطعة بسارابيا الجنوبية التي اضطروا للتخلي عنها للروس . اما هذه الاتفاقات التي توصلوا الى عقدها مع فيينا ومع برلين بتأثير الملك شارل هوهنزولرن فهي لا تنسجم كثيراً مع هذه الوشائج اللاتينية التي كثيراً ما تبجح بها سكان رومانيا المعاصرون عند الدانوب السفلي.

والى الجنوب من هذا النهر تبرز بوضوح سيطرة الاتراك. فأينما أجلت النظر وقعت منك العين على الاملاك الضخمة و «الجفتلك» التي تعود لهؤلاء البكاوات والآغاوات، والفلاح فيها مشدود الى الارض شداً وثيقاً تابعاً لها يرزح تحت الجزية والخراج . فقد سجل الاسلام هنـا ارتدادات كثيرة تفادياً من الأهلين للطرد ولمصادرة املاكهم وأراضيهم . وهكذا اعتنق الاسلام البوماك او بلغار الرودولف ، والالبانيون في الجنوب ، وعـــدد كبير من قـــرى ودساكر الصرب في البوسنة . ومن جهة ثانية فقد أقام مزارعون اتراك لهم ، هنا وهنالك ، مزارع عديدة . وفي وادي نهر المارتزا ، حيث خضع الفلاحون لعبودية مرزحة عرفوا هنالك باسم روملي او رومي اي روماني ، الا انهم في الواقع ، من عرق البلغار ، هؤلاء البلغار الذين يرجع أصلهم البعيد الى قبائل الهونز ، تمت صقلبتهم على نطاق واسع واعتنقوا الارثوذكسية واستمسكوا بأراضيهم . وأتيح لهم ان يؤسسوا امبراطورية دامت ردحاً من الزمن ، ولم يلبثوا أن رزحوا تحت ضغط البكاوات ، عرضة للسرقة والاعتصار من قبل التجار اليونان يقنعون ، طعامـــاً لهم ، بكعكة وبعض البندورة والبصل واللبن . فللمدن طابع تركي صرف بمآذنها الشاهقة واسواقها المسقوفة . ويبدو ان يقظة الضمير القومي في هذا الشعب تمت بصعوبة .

وفجأة أطلت علينا، بدافع من أطماع قيصر روسيا، عام ١٨٧٠ أكسرخا (امارة) بلغارية كما راح دعاة الروس يحثون الفلاحين المهتاجين على الثورة ويدعونهم لانشاء دولة كبرى لهم ، تمتد من البحر الاسود حتى مشارف مقدونيا في إطار هذه الاكسرخا . والحال فقد اعتاد السلطان ان يحرك البوماك والارناؤوط المسلمين ضد سرايا الكومتياجي المسيحيين . فالفظاعات الـــتي اقترفها هؤلاء الباشبزق ، المعروفـــة في التاريخ « بالمآسي البلغارية » والاضطرابات التي وقعت في المنطقة وامتدت حتى البوسنة ، كانت السبب المباشر في اشعال الحرب البلقانية عام ١٨٧٧ ، كما كانت فرصة لتدخل الجيش الروسي فسجل على الاتراك انتصاراً كلفه غالياً . غـــير ان مؤتمر الدبلوماسيين الذي عقد في برلين ، في السنة التالية لم يقر سوى قيام « أمارة مستقـــلة ادارياً خاضعة لولاء السلطان ، هي بلغاريا الجنوبية التي فصلوا عنها المقاطعة الجنوبية المعروفـــة باسم الروميلي الشرقية ، بينما اوقف التقدم الروسي عبر وادي مورافيا واعترف للامبراطورية الحق بادارة البوسنة والهرسك . والثابت ان الامير اسكندر باتنبرغ اي شقيق الامبراطور اسكندر الثاني اخذ منذ عام ١٨٨٠ ، يعتبر نفسه « امير بلغاريا الشمالية والجنوبية » الا انه لم يلبث ان

اختلف والقيصر واضطر ان يرفع استقالته كما اضطر خليفته الامير فرديتان الاول من اسرة ساكس كوبورج الملقب « برئيس الدساسين » ان يمهد الطريق لمدة طويلة وان يراعي جانب الدول الكبرى وان ينمي الموارد اللازمة لأمة خصب الانسال فيها والتوالد لا يقل بشيء عما هي عليه جاراتها من هذا القبيل ، مدفوعة الى ذلك بما رُكز في طبيعتها من حب للعمل وما فيها من عطش ورغبة في العلم اذا ما ارادت يوماً ان تعاود سيرتها في جمع شمل كل الشعب البلغاري .

الا ان تركيا لا تزال تسيطر على ممر ضيق من الاراضي ينطلق من المضايق ويستمر بلا انقطاع حتى يتصل بتراقيا وجبال رودولف بمقدونيا والبانيا والأبير حيث يؤلف الاقوام فسيفساء مدهشة من الشعوب والاجناس . ويقوم الى الغرب من هذا الممر العرق الالباني ، كاثوليكياً كان او ارثوذكسياً او مسلماً ، ويعيش مستقلا في جبال صعبة المرتقى كثيرة الانحدار ، تنتهي بسهل ساحلي ضيق يمتد على سيف البحر . أما في الوسط ، فتقوم مقاطعة مقدونيا ، ذات الاسم الساحر ، وهي تتألف من كتلة الجبال الصعبة ومن الناس ساكني تلك الجبال ، وهم اقوام يفتقرون الى عرقية واضحة المعالم ، ينظر اليونان الى هذه المنطقة باشتهاء وازورار ، كما يحدجون بأنظارهم سالونيك حيث يؤلفون ، مع اليهود ، اكثرية هؤلاء اليهود الذين قدموا من اسبانيا واستولوا على مرافق البلاد التجارية ، كما ان الصرب كانوا يطالبون بها لأنفسهم تحت ستار رابطة اللهجة المحكية ؛ يحوبها ظمأ بمواشيهم ، اقوام من رعاة الالبانيين والفلاخ . وفي نهاية الامر يستقر الاتراك فيها وقد زرعوا فيها الفوضى باهمالهم الفاضح ، وعرفوا ان يستثمروا لمصلحتهم الخاصة المنافسات الحامية بين هذه الاقليات المتباينة الاجناس والعروق . واخيراً نجد في الطرف الشرقي من هذا الممر ، مقاطعة تراقيا التي تؤلف مفترقاً طبيعياً للطرق المتصالبة ، وهي مقاطعة تتميز بطابعها السهلي يتشبث الاتراك بملكيتها كما يطالب بها البلغار على السواء . فهي تضم الرأسين الجغرافيين المندفعين في البحر باتجاه آسيا ، احدهما يحمل عاصمة السلطنة التي تسهر الدول الكبرى العظمى على سلامتها وبقائها بغيرة وحرص كبيرين .

فهذا الجزء من اوروبا الجنوبية الشرقية ، لم يعد اوروبياً بالفعل . فبعد ان وزح اجيالاً متطاولة تحت وطأة الاتراك الذين اهملوا شأنه وأساؤوا استغلاله ، فقد وقع فريسة سهلة للتقسيمات السياسية بين قوميات مخشوشنة ، مفتولة العضلات ، حربية المزاج فقيرة الحال ، عرضة دوما للفوضى والاضطراب ، وهو وضع لم تحاول الدول الاوروبية الكبرى التخفيف من حدته او ادخال اي تعديل عليه . وموقف ألبانيا يذكرنا حتما بموقف مقاطعة القبائل في الجزائر كما تذكرنا مقدونيا بسوريا . اما هذه المدنية الزراعية والراعوية بما لها من عادات مجتمعية ، واعراف قومية وانماط العيش السائدة بين اقوامها ، فهي تذكرنا ، وبحق ، بروسيا القريبة منها .

العهد الاستبدادي الروسي والنظام القديم قبل حرب القرم

للامبراطورية الروسية منذ حرب التحرير التي خاضتها ضد الفتح النابوليوني نفوذ كبير . فهي الحامية للنظام التقليدي السائد في اوروبا ، وهي الهادفة باستمرار ، الى تحقيق « الحلم اليوناني القديم » متابعة فتوحاتها الداوية في قلب آسيا وأطرافها الشمالية الشرقية . الا ان حرب القرم وما رافقها من شؤون وشجون وماجريات كشفت بجلاء عن عورات هذا الحكم المطلق وعن خلخلته .

هنالك سلطة تفرض الطاعة العمياء ، وشعب يأخذ بالخرافات والاساطير ، واكليروس كهنته جهلة أميون لا اخلاق لهم ولا اعتبار ، يعمل في خدمة السلطان المستبد ويأتمر بحركات بنانه ، وطبقة من اسياد الارض يتمتعون بامتيازات عريضة شريطة السير في ركاب الحكومة والنظام ومساعدتها على ابقاء الفلاح تحت ولائها ، وطبقة من الموظفين هم من البساطة والسذاجة ما يخفف كثيراً من وقع تصرفهم الكيفي ، الا ان الكسل والاهمال والعجرفة أصارتهم مكروهين من الناس . (من المبادىء التي سارت بينهم ان الكل يسرقون ، وان يسوع المسيح نفسه كان سرق لو لم تكن يداه مسمرتين على الصليب) ، وشرطة بوليسية لها محاكمها الخاصة تخضع البلاد والشعب لمراقبة شديدة ضيقة ، ولنظام حجر صحي آسر شديد يتصل نشاطه خارج روسيا ويعمل بغير علم السفارات الروسية ، وجيش بطاش هو أداة لفرض هيبة الحكم وللنظام في البلاد ، واداة الفتوحات الاستعمارية ، الا ان عدم الانضباط فت في عضده. أما جمهرة الفلاحين فهي حيناً راضخة مستسلمة لمصيرها ، وحينا متذمرة متأففة من وضعها المرزح المرهق ، نزّاعة الى ردود فعل بربرية وحشية ، تكره نظارها وتحقد على وكلائها ، ألفت الحياة المجتمعية ، وتكالبت على الارض بنهم ، متخاذلة في مطالبتها بالتحرر من رق الارض وعبودية الفدانة (ظهري مطية لك يا سيدي ، اما الارض فهي لي) ، عاجزة ، مع كل هذا ، عن ادخال أي تحسين على الوضع الزري الذي يكتنفها . هنالك طبقة بورجوازية ، متوسطة وطبقة من أصحاب الحرف منصبة على العمل (« فليس في روسيا من طبقة ثالثة او طبقة الشعب » كما تلاحظ بحق مدام دي ستال) . هنالك صناعة مرتبطة بالدولة رأسا او ببعض الاسر الشريفة ، أو بأصحاب رؤوس اموال اجنبية تحميها التعريفات الرسمية ، تسير في تقاليدها المرعية ، لا تحيد عنها ولا تجدد فيها . (فالامبراطورية تتوقف عن تصدير ما تنتجه من الحديد عندما لا تلاقي شاريا او زبونا يرغب فيه بينما تستمر في بيع الحبوب) وبخلاف ما نشاهد في الغرب ، فالثروة المنقولة محدودة للغاية ، والحرف اليدوية تفتقر اصلاً ، للآلة وتفضل العمل الريف حيث تتوفر لها اليد العاملة . والمدن تشبه ، في سوادها الاكبر ، قرى وضياعا كبيرة منازلها من الخشب ، بعضها يستخدم كقلاع او حصون ، لها احياؤها المقفلة ولها ما يعرف عندهم بـ *Kreml* ، والحركة التجارية في البلاد مشلولة لعدم وجود طرق للمواصلات يسهل معها التنقل والانتقال ، وللتضييقات المفروضة عليها من قبل الاجراءات القانونية من جهة ولقلة النقد بين ايدي الناس ، من جهة ثانية .

كل شيء في هذا الهيكل الاجتماعي القائم في البلاد ، وفي العقلية المسيطرة على الناس يقف في وجه تطور رأس المال الحر الذي يعتبر بحق ، الخير الذي يُطلع كل ثورة اقتصادية في البلاد، وسيؤول في نهاية المطاف الى زعزعة نظام الحكم القديم السيادي ، المطلق . فكيف السبيل الى إدخال اصلاحات على المؤسسات والنظم القائمة في البلاد دون إحداث هزة عنيفة في قلب هذه الطبقة الضخمة من الفلاحين الجهلة وبدون نقل هذه الهزة الى الاقوام الاخرى ، وبالتالي دون مس وحدة البلاد وإثارة التشكك في سلطة القيصر نفسه التي عليها يرتكز كل بناء الدولة ؟ وهكذا ندرك جيداً كيف ان كاتبا مثل غوغول او تورغنيف او سلتيكوف تشيدرين الذين رسموا لنا صورة ناصعة لهذا النبيل المنحرف الاخلاق ، ولهذا الموظف المختلس، لا يستنكفون عن التنبؤ بالمستقبل الذي ينتظر مثل هذه الروسيا العفنة .

ولكن لم يكن بدّ لهذه البلاد من ان تتبنى الاساليب والاشكال الجديدة التي يقتضيها الانتاج والتبادل التجاري . فوجودها ذاته يتوقف على هذا . فالفشل الذي منيت به الجيوش الروسية امام سبستوبول تعود اسبابه البعيدة التأخر ويجب رد بواعثه الدفينة لهذا الوضع الذي رسفت فيه البلاد . فالقوة الحربية لا يمكن ان تقوم لها قائمة ما لم يدعمها اقتصاد قوي صحيح ، وما لم تطلّق البلاد الاساليب البالية التي سارت عليها . وعبثاً يُخضع القيصر نيقولا الجامعات في البلاد لرقابة خانقة ، ويفرض على الكتب والمنشورات مراقبة لا ترحم ولا تلين ، فهو اعجز من ان يمنع كل اتصال مع الغرب ، ولا يستطيع ان يكم الافكار والالسنة . صحيح انه حدث بعض التطور في البلاد منذ محاولة القتل التي قامت بها جمعية الفحامين السرية . فالافكار المتوارثة عن الثورة الفرنسية تنكفىء وتعود القهقرى في الوقت الذي تقوم في البلاد ردة ضد عقلانية القرن الثامن عشر ، التي تهافتت عليها الاوساط الارستوقراطية تتلقف مبادئها وتعاليمها . فقد حل محل الفلسفة الفولتيرية الفلسفة الهيغليانية التي غذت في البعض عبادة الدولة كما دفعت بالبعض الآخر الى الثورة والتمرد . وهكذا ظهر في البلاد ، في اعقاب حرب القرم ، تياران قويان تنازعا السيطرة على الافكار واستبدا بها: تيار « الغربيين » الذين شعروا عميقاً انهم قريبون من خصوم العهد كالاشتراكيين والفوضيين والليبرية البورجوازية اكثر هذه الحركة الليبرالية ، و « انصار السلافيين » الذين استقر في روعهم ان التقليد الروسي يمكن له ويترتب عليه ان يمهد الطريق لتعاون وثيق بين القيصر والكنيسة الارثوذكسية ، والموجيك (اي الفلاح الروسي) الذي يُشيد كورولينكو وتولستوى بفضائله العليا . ولكن كلا التيارين، ينظر على ما نرى الى المجتمع القروي صاحب المشارع واشكال العمل واهدافه ، نظرة ملؤها الارتياح والرضى . فاذا ما استسلم بعضهم لليأس وراحوا يصفون ما تقاسي النفس الروسية من عذابات اليمة ويصورون الشقاء والبؤس الذي يتسكع فيه المجتمع الروسي الغارق في الفوضى ، فمعظم القوم يؤمنون بقدرة البلاد على التجدد كما لا يسقط بعضهم من حسابهم احتمال قيامها بمهمة ثورية .

الازمة الروسية في عهد اسكندر الثاني- الاصلاحات وبوادر الحركة الثورية

من الواضح ان النهوض بالامة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنجاح عملية واسعة للاصلاح الزراعي. ان إلغاء رق الارض وتحرير الفلاح لا يزيلان من الطريق كل العقبات . فتحرير الفلاح دون تأمين وسائل العيش الكريم له هو بمثابة اعداد مستقبل مليء بالمخاطر والشرور . ولما كان لا يمكن التفكير مطلقاً بمصادرة املاك النبلاء دون التعويض عليهم ، كان لا بد من فرض فداء للأرض وفقاً لشروط ، ولو مجحفة نوعاً بحق الملاك ، بدلاً من شروط يرزح تحتها صاحبها الجديد . ومهما يكن ، فعلى السلطة ان تتحرك وان تقوم بعمل شيء ما . من هذه الاحداث التاريخية الحاسمة ، الثالث من آذار عام ١٨٦١ ، اذ فيه يعلن القيصر اسكندر الثاني الذي اخذوا بتلقيبه ، ابتداءً من هذا اليوم « بالمحرر » ، تحرير الفلاحين . فجمهور الفلاحين يجزل غبطة وسروراً . الا ان خيبة الامل لن تتأخر .

والذي حصل بالفعل هو محدود بالفداء لصالح المجتمع الريفي . فالدولة تقدم ٥/٤ المبلغ المتوجب. فالمتملكون ينالون سبعة هكتارات بوصفهم مزارعين تابعين للتاج وقد تنخفض حصة الواحد الى ٣ هكتارات في الاراضي السيادية حتى تصل الى هكتارين في الاراضي ذات التربة السوداء ، اذ لا مصلحة للملاك في التنازل او التخلي عن شبر واحد من هذه الاراضي . فهم سيبقون يعانون الجوع الذي ستشتد وطأته مع التقسيم الجديد للارض بعد ان يتضاعف عددهم بفضل ارتفاع معدل المواليد في البلاد . فيستعبرون أنفسهم قد هُزِيء بهم وراحوا ضحية السرقة بينما تشابك القطع الزراعية التي نالوها بالقطع التي بقيت للملاك السابق ستكون مثاراً لدعاوٍ كثيرة امام القضاء. كل هذا والنبلاء ينفثون احقادهم: فقد اقتطع من حسابهم ليس مبلغ مساو للدين فحسب بل ايضاً لم يستلموا سوى سندات لن تلبث قيمتها ان اصيبت بالهبوط. فلا عجب والحالة هذه ان تبيع املاكها او ان تؤجرها للتجار. فالاملاك التي احتفظت بها لا تستغل بصورة احسن من قبل ، والفلاح الروسي لا يستطيع – لو شاء – ان يدخل اي تحسين على وسائل الزراعة. وبعض افراد هذه الطبقة لهم من الاراضي اكثر مما تستطيع استثماره (٧٥ مليون هكتار لم يستثمر منها سوى ٢٥ مليوناً ، حوالي عام ١٨٨٠ ، كما ان البعض الآخر كان يشكو من الحرمان او من عدم حيازته ما يكفي منها (١٠٠ مليون) فقد كان هذا الاصلاح عملية فاشلة من كلا الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية

ردة الفعل ، مكاسب الرأسمالية وبؤس الجماهير العمالية والزراعية في عهد القيصر اسكندر الثاني

ردت الجماهير الروسية على مقتل « المحرر » و« حَسَن النية » بالجمود . فحصول سنة ١٨٨١ كان طيباً كما ان جهاز الدولة تمكن من السيطرة على الحركة الإرهابية ، ولم تشهد البلاد سوى بضع مؤامرات فردية منها المؤامرة التي وقعت عام ١٨٨٧ التي أودت بحياة أوليانوف الشقيق الاكبر للنين . فبعد ان عرف كيف يكسب الوقت باعلانه عن انشاء مجلس عام من الـ *Zemstvos* وتخفيضه معدل فداء الارض بعد ان جعله

إلزامياً وبانشائه مصرفاً للفلاحين يعنى بتسليف الهيئات الزراعية في القرى مـــا تحتاج اليه من الاموال لاستثمار اراضيهم وبتخفيض ضريبة الاعناق وساعات العمل في المصانع ، وبتنظـــيم الهجرة الرسمية الى سيبيريا . وقع القيصر الجديد الذي رأى في الحركة التحررية هـــذه شيئاً يبعث القرف في النفس ، تحت تأثير استاذه القديم بوبيا دونستزيف الاخصائي الكبير في القانون المدني الذي عين معتمداً امبراطورياً لدى السينودوس المقدس ، والذي راح يدعو الى «ملكية» اشتراكية ابوية على اساس من التسلسل الطبيعي . وقد اخذت ردة الفعل تميل نحو النبـــلاء ورجال الدين والوطنيين . ففي الوقت الذي انشىء فيه مصرف يعنى بمساعدة النبـــلاء الذين يعجزون عن استثمار املاكهم ، أعيد الى الـ *Barine* القديم الدور التقليدي الذي مثله من قبـل بوصفه قيما على الفلاحين ومرجعاً لهم في المناطق الريفية . وقـــد لعبت الارثوذكسية دورها المعـروف في الضغط على القوميات الغريبة ، متبعة في سياستها تلـك اسلوباً منهجياً . ولم تلبث السلطة المدنية ان اشتدت وطأتها فضربت بيد من حديد الطوائف والملل الاخرى *Skopsy* (المنحرفين) والعقلانيين ، حتى الكاثوليك في بولونيا ، واللوثريين في الولايات البلطيقية ، وسببت انزعاجاً كبيراً للبطريرك رئيس الكنيسة الارمنية ولم توفر المسلمين في القفقاس حتى شملت البوذيين في آسيا واشتدت وطأة الاضطهاد خاصة ، على العنصر اليهودي الذي اصبح منذ ذلك الحين هدفـاً لتدابير عنيفة اتخذت ضده. وقد وضع اولو الامر في بطرسبورغ خطة لتحقيق الوحدة في البلاد. رمت فيما رمت اليه من اهداف الى « ترويس » فنلندا وانولايات البلطيقية والبولونية وبسارابيا وطبعها بالطابع الروسي الى حد انها بعثت كردة فعل ، حركة انفصالية بين هذه القوميات التي راحت فريسة الضغط والارهاق . وفي الوقت ذاته وجد عهد الاستبداد هـــذا عوناً مالياً ودبلوماسياً وعسكرياً لدى حكومة الجمهورية الفرنسية في باريس دون ان يقطع علاقاتـــه بالامبراطورية الجرمانية .

وهذا الجهد المؤقت الذي بـذله الحكم المطلق في روسيا لاعادة هيبته ونفوذه يجب ربطـه بحركة التطور الصناعي الذي اخذت روسيا بأسبابه ، اذ ذاك . فقد تهافتت رؤوس الأمـوال الاجنبية على هذه البلاد بعد ان أخذت بسحر غنى مواردها الطبيعية الهائلة ووثقت بصلاحها للاستعمار والاستثمار . ففتحت المناجم وارتفعت في كل بقعة ومكان المصانع والمعامل التي اخذ سكان الريف البائسون يتجهون اليها من كل فج وصوب من جميع انحاء البلاد .

والاحصاء الاول الذي وقع عـام ١٨٩٧ ، دل على ان سكان البـلاد قفز عـددهم الى ١٢٥ مليوناً بعد ان كان ٥٧ مليوناً عام ١٨٥٠ ، كما اثبت ان مقابل ٣ ملايين مـن صغار المـلاكين ينعمون باليسر كما استقر في الاذهان ، هنالك ٢٢ مليوناً روسياً هم من البروليتـاريا يعملون في خدمة الصناعة ، و٣٦ مليوناً من صغار الفلاحين الملاكين الفقراء و ٤١ مليوناً من البروليتـاريا المزارعين . ويشير الاحصاء بشيء من الرضى الى الارقام العالية التي سجلها الانتاج في البـلاد . اكتسبت الامبراطورية الروسية ، في بعض المجالات ، محلاً مرموقاً بين الدول الاقتصـادية

الكبرى ، إلا انها تبقى عاجزة عن تلبية حاجة الاهلين من الغذاء . فهي تسجل ادنى مستوى للعيش على الاطلاق في اوروبا وتشير غالباً الى صادرات البلاد العظيمة من القمح وتهمل تماماً الاشارة الى الفقر والمجاعة الضاربة اطنابها فيها .

وقد شجع *Rejtern* بوصفه وزيراً للمالية في عهد القيصر اسكندر الثاني مرافق الصناعة في البلاد ، وهي سياسة تبنّاها وسار عليها خلفاؤه في هذه الوزارة ، امثال بونج وفتشسنغرادسكي وفيت (الذي كان موسيقياً أعجب بليست وشرحه) . واقبلت روسيا تقترض من الخارج واستجابت الدول لنداءاتها في هذا المجال . فالدين العام زاد خمسة اضعاف واربى على خمسة مليارات عام ١٨٩٥ كما ان النظام المصرفي تطور في البلاد بسرعة . والدليل التجاري الاعلى الذي كان بمعدل ١٠٠ في الفترة الواقعة بين ١٨٠٠ ـ ١٨٢٥ ارتفع الى ٩٧٢ للفترة الواقعة بين ١٨٧٤ – ١٨٩٩ في حين ان عدد السكان لم يرتفع الا ثلاثة أضعاف . وهكذا دخلت روسيا حلبة التجارة الدولية على حساب طبقة الفلاحين فيها التي أستبيحت كما ان الطبقات الشعبية فيها راحت فريسة ضرائب ورسوم مرزحة . ومهما يكن فقد ساعد تهافت رؤوس الاموال الاجنبية على توسيع شبكة الخطوط الحديدية ، واصلاح المرافىء والموانىء البحرية والاقنية النهرية ، والصناعات الاستخراجية والانتاج الميكانيكي والمنسوجات في كل من بطرسبورغ وموسكو واوكرانيا . من الرواد في هذا الميدان ولا سيما في حوض الدونتز ، الروسي يوهل الذي عرف ان يستثمر رؤوس اموال فرنسية والانكليزي يوث . وتولى فرنسيون من مدينة ليون ، ادارة شركة كاما التي راحت تعنى بانتاج الصب والصفائح الحديدية ، كما اشرف غيرهم على صناعة الحرير في منطقة موسكو . وشغل بلجيكيون ، والمان مراكز هامة في البلاد وفي هذا العهد راح السويدي لودفيغ شقيق ألفرد نوبل ، وهو من رجال الصناعة المشهورين اذ ذاك ، يتعهد بناء البوارج الحربية في كرونستادت . واخذ يدعو لبترول باكو كما راح يصمم الصهاريج وبواخر النقل الخاص بالبترول .

وأخذت المدن العمالية تنمو وتكبر بعد ان شيدت على عجل دون الاهتمام كثيراً بوسائل الراحة والترفيه . هنالك مساكن يفترش ساكنوها الارض العراء لا حصير فيها ولا فراش . وقد اعدّت بعض الشركات لعمالها مباني ضخمة جهزوها بالحمامات والمغاسل وراح بعض ارباب العمل يفرضون على العمال شراء موادهم الغذائية من مخازن التموين التي انشأوها بالقرب من هذه المباني ، كما ان العمال راحوا يؤلفون لهم ، في بعض الاماكن تعاونيات لتأمين حاجياتهم . واليد العاملة غير مستقرة تفرض عليها ايام عمل شاقة وطويلة بأجر سيء وانتاج ضعيف ، كثيراً ما يتعرض العمال فيها لحوادث العمل ، ينمّون فيهم روح النقمة وحب الثأر والانتقام . ومنذ عام ١٨٨٠ ، قامت في البلاد إضرابات عديدة أدت الى هبوط كبير في الاجور كما ان ارباب العمل كثيراً ما عمدوا الى اقتطاع بعض اجور العمال اقتصاصاً منهم لسوء العمل . ولهذه الاسباب

راحت حكومة القيصر تحاول الحد من هذه التصرفات الصارخة وترسم سياسة اجتماعية ،تتسم بروحها الابوية .

ومع ان الطابع العام للبلاد هو طابع ريفي فلم يستفد الفلاح الروسي كثيراً من فوائد الصناعة . من المفارقات الصارخة ، هذه الاراضي ذات التربة السوداء الصالحة لانتاج القمح . فقطع الارض في منتهى الصغر وحيث تشتد المجاعة فتصبح مخيفة (فقد ضربت مجاعة عام ١٨٩١ أرضاً تبلغ مساحتها مساحة فرنسا) اذ يضطر المنتج ان يبيع غلته في الخريف ليدفع ما يترتب عليه من الضرائب والاقساط السنوية المستحقة عليه ثم يضطر بعد ذلك لشراء حاجته من البذار بسعر أعلى مقتنعاً في غذائه وغذاء ذويه بطعام رديء . هنالك سبعمائة ملاك يزيد مجموع ما يملكون من الاراضي على ٢٠٠ مليون هكتار . بينما ١٠٠،٠٠٠ من صغار الملاكين لا يزيد مجموع املاكهم على ٣٤،٤٠٠،٠٠٠ هكتار . وقد استطاع «اكلة » الاراضي ان يغتصبوا، شيئاً فشيئاً اطيب الاراضي المشاعية التابعة للهيئات البلدية ، بينما نرى فقراء الفلاحين ، في كل مكان ، في خصام موصول مع هؤلاء القولاق . من هذه البروليتاريا الريفية الآخذة دوماً بالازدياد والنمو قسم يتجه نحو المعمل او يلتحق ببعض ورش العمل ، كما راح قسم آخر منها يعلل النفس بأن يستقر يوماً في سيبيريا حيث تنتظره متاعب الحياة ومنغصاتها . وهكذا نرى الوفاً من هؤلاء البؤساء يجوبون الارض سيراً على الاقدام لا يملكون شروى نقير او ما يمكنهم من ركوب القطار فيتساقط عدد كبير منهم عناء وموتون فريسة الشقاء والبؤس . فظروف العيش لم تتغير كثيراً عن تلك الظروف التي رسف فيها أرقاء الارض .ولم يعد الموجيك يردد : « ليس غير الكسالى لا يوجه لنا اللطمة » ، فهو لا يزال يرى كما في الماضي : « ان الله بعيد عنه في الاعالي ، كما ان القيصر بعيد عنه جداً في قصره . ففي خضوعه دوماً للحياة الجماعية ولمقتضياته ، فهو يرى نفسه مضطراً لتكييف نفسه ضمن الجدار الذي يحيط بكوخه الحقير – عزبة الشمال – المبنية من الخشب ، لا نافذة لها ، يحتل الوجاق جانباً كبيراً من كوخه ، ينام فيه صاحبه مع اولاده بملابسهم ، أو خطة الجنوب ، من اللبن وأحياناً من القش اليابس. ليس في هذا المسكن من صابون ، وقد يفتقر أحياناً للاضاءة ، كما يفتقر لبعده عن الغابة للحطب ، فيقنع ، ولا اختيار له ، بالقش والتبن . فالازدحام انما يعني : الاختلاط والفساد . فالبياي عندهم من الكماليات (واعطاء بقشيش ، في الروسية ، انما يعني: اعطاء شيء من الشاي » . وكثيراً ما يحتسون شراباً اشبه ما يكون بعصير التفاح يستخرجونه من نسغ الدردار وعصيره ، يعرف عندهم «كفاس» . فالنقص في المواد الغذائية والادمان على المسكرات يرفعان عالياً من نسبة المحلال الفساد . والامل في الحياة يبقى ضعيفاً كما ان نسبة الوفيات بين الاطفال بقيت عالية جداً (فوالدا ليون تروتسكي مزارعان يهوديان ينعمان باليسر يفقدان أربعة من اولادهم الثمانية ، غير ان الخصب في التناسل هو مرتفع جداً ويكون معيناً للعديد من المعوزين والفقراء .

منطران مختلفان لروسيا : نخبة ادبية وفنية ممتازة وتأخر اقتصادي متصل

كانت روسيا ، منذ عهد بعيد ، مثار دهشة الاجانب لما تبديه حضارتها من اضداد ومفارقات . من جهة اخلاق شعبية ناعمة وان خشنت ملامسها، ومن جهة ثانية ، مجتمع رفيع مستسلم للذات . هنا ، الجهل والسذاجة الفكرية والعقلية ، وهناك ، مرونة عقلية فائقة.

الادب الروسي أدب غني واقعي ، روحاني يصف لنا الموجيك الخشن الطباع والمرح معاً ، والتاجر الجشع ، والملاك الفظ بقلب الطفل ، والجذاف العامل على النهر ، والمتشرد التائه الذي لا جذر له ولا ينتمي لطبقة . فمن بوشكين الى نكراسوف الى بلوك ، ومن غوغول الى دوستويفكي ، ومن تشيخوف وتولستوي الى غوركي يفتر الادب الروسي عن شعر او قصة أو اقصوصة بلغت سدرة المنتهى بما تمور به من خيال مجنح ونقد لاذع وجزالة ادهشت اوروبا المهذبة وسحرتها . فالرغبة في العلم والاقبال عليه لا حدود لها ، وحب الفضول والظمأ الى المعرفة لا يروي له غليل ، وبقفزة واحدة يرتفع الفكر الروسي الى ابعد الحلول جرأة . فالانجازات العلمية عديدة ، سواء التجريدية منها والعملية الواقعية . صحيح ان الالهام الهندسي الذي نبع من الوحي الديني خبا وكأنه جف وغار ؛ الا ان معظم المنازل السكنية والمباني هي مستوحاة من الطراز الكلاسيكي أو الطراز الغريب الذي غلب على اوروبا الغربية . ومع ذلك ، نحن أمام بوادر نهضة فنية روسية المصدر سلافية الينبوع، كما نرى ذلك في كنيسة المخلص في موسكو ، ومدارس الرسم الجديدة من الطراز الرومنطيقي او من الطراز الواقعي ، ورسم المناظر الطبيعية مع وفرة من التحف والنقش والحفر والرسم التزييني ، الا ان مظاهر الحساسية الروسية تجلت على اكملها في الموسيقى . فبينما نرى تشايكوفسكي وغلازونوف وروبنشتاين يقعون تحت سحر الموسيقى الالمانية ، نرى فريقاً كبيراً يستلهم بحق الادب الشعبي القومي والاغاني الفلكلورية ، والرقص القومي وأناشيد الطقوس الدينية امثال غلينكا ومن امثلهم دارغومسكي اولاً ، ثم « الخماسي » او الفريق الخمس الصغير *Koutchko* (او الكومة الصغيرة) كما كان يلقبهم بسخرية خصومهم ومنافسوهم . وقد برز بينهم : بوردوين ورمسكي – كورساكوف وموسورغسكي الذين خرجوا لنا بأنغام والحان موسيقية تأخذ بمجامع القلب لما تتسم به من سمو وروعة ومناغاة وانسجام . وقد تتلمذ على رمسكي كل من سترافنسكي وبروكوفييف وخوستاكوفتش . كذلك عرف رقص الباليه المستوحى من الرقص الشعبي نجاحاً غريباً ، وقع تحت سحره كثيرون من سكان المدن : « فالباليه المسكوبية هي ، ولا شك اكبر لذة يمكن ان يستمتع بها مشاهد » كما كانت تشهد بذلك مدام جولييت .

تمثل روسيا في الخريطة مساحة كبيرة اذ تؤلف مع مستعمراتها في آسيا كتلة واحدة . فهي في مقدمة الدول الاوروبية بكثرة سكانها. ويكوّن العسكريون لهم فكرة عن الجيش الاحتياطي الذي يتوفر لها كما يكوّن علماء الاقتصاد فكرة لهم للموارد الطبيعية الهائلة التي تتوفر لها . والحال ، فبالرغم من التطورات العظيمة التي حققتها خلال جيل ، فنشاطاتها لا تؤلف مع ذلك

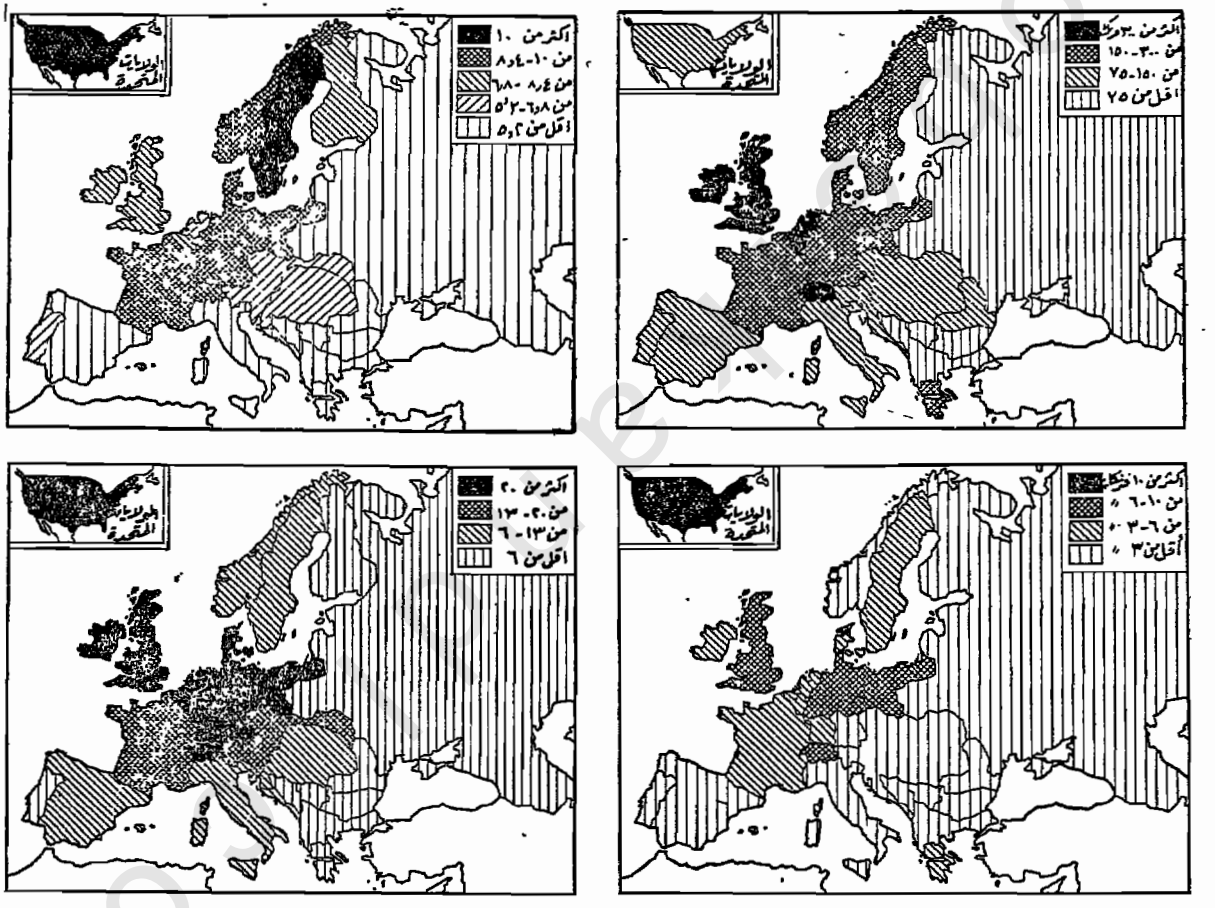

شكل رقم ٢٠ ـ نشاط اوروبا سنة ١٨٩٠

اعلى ، الى الشمال : الخطوط الحديدية : عدد الكيلومترات لكل ١٠٠٠٠٠ نسمة (معدل ٦٠٨) اسفل ، الى اليمين : عدد الرسائل والبطاقات البريدية المرسلة بالنسبة للفرد الواحد (معدل ١٣٠) . اعلى ، الى اليمين : التجارة بالنسبة للفرد الواحد (معدل ١٧٣ فرنكا) . اسفل الى اليمين : نفقات الدول على التعليم العام بالنسبة للفرد الواحد .

شيئاً يذكر ، اذا ما قورنت بنشاطات دول اوروبا الغربية والوسطى . فمحصول روسيا من القمح في أواخر عهد اسكندر الثالث كان يوازي بالنسبة للقارة اجمع ١٥٪ من القمح ، يربى على ٢٥٪ من ماشيتها انما لا تنتج سوى ٢ بالمائة من الفحم ، و ٤ بالمائة من الصب ، و ٣ من الفولاذ ، ولا تصدر سوى ٤ بالمائة من الرسائل ، وعلمها لا يرفرف الاعلى ٣ بالمائة من مجموع السفن التجارية في العالم ، كما لا تساوي تجارتها مع الخارج سوى ٦٫٤ بالمائة من مجموع الصادرات العالمية . اما مدارسها فلا تضم سوى ٢٤ تلميذاً لكل الف نسمة (١٧٢ في المانيا ، و ١٤٠ في السويد) .

فاذا ما سببت مناهج القيصرية وأعمالها القلق ، فالمراقبون السياسيون يشددون على ما «للعملاق الروسي من اقدام سريعة العطب » . وعندما اعلن القيصر نيقولا الثاني ، إثر اعتلائه العرش ، عام ١٨٩٤ ، عن عزمه بالدفاع عن مبادىء السلطة المستبدة ، كان الشك يخيم بالفعل حول حيوية هذا النظام بالنسبة للحاجات الكبرى التي يشعر الشعب الروسي اليها وبالنسبة للقوى الجديدة التي كانت تعتمل فيه .